اعترافات شبابی

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

تولستوى، ليو
اعترافات شبابى
نيوبوك للنشر والتوزيع
14 × 21 سم
تدمك: 9789779960074
رقم الإيداع: 2019/15444
1 ـ القصص الروسية
2 ـ العنوان

دار النشـــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: اعترافات شبابى
الـكـاتـب: ليو تولستوى
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

اعترافات شبابى

ليو تولستوى

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

المحتويات

مؤلف الكتاب ٧

الفصل الأول

التأهب للجامعة ١٣
مناقشات ١٧
بداية الصداقة ٢٥
الربيع ٢٩
محيط الأسرة ٣٧
قواعد ٤٢
الرحلة إلى الدير ٤٧

الفصل الثانى

الامتحان ٥٧
الاستعداد للجامعة ٦٧
مشاغل فولوديا ودبكوف ٧٣
الاحتفال بنجاحى ٨٠
المشاجرة ٨٦
تأهبى للزيارات ٩٥
آل فالاخين ١٠١

آل كورنكوف ١٠٨
آل أيفين ١١٣
إيفان أيفانتش ١١٩

الفصل الثالث

صديقى ديمترى ١٢٥
آل نخليودوف ١٣٢
الحب ١٣٩
توثق المعرفة ١٤٦
نزهة ١٥٢
فى الريف ١٥٩
نحن والفتيات ١٦٧
مشاغلى ١٧٤
كما ينبغى ١٨١
الجيران ١٨٧

الفصل الرابع

زواج أبى ١٩٧
كيف تلقينا النبأ؟ ٢٠٣
الجامعة ٢١١

الفصل الخامس

أشجان القلب ٢٢١
المجتمع ٢٢٥
زوجة أبى ٢٣٥
أصدقاء جدد ٢٤١
حصاد العام ٢٤٩

مؤلف الكتاب

ليو تولستوى (١٨٢٨ ـ ١٩١٠).

رجل فذ فى تاريخ الآداب العالمية، مقامه فى عالم القصة كمقام «ميخائيل إنجلو» و«ليوناردو فنشى» فى عالم الرسم والتماثيل. فحل بين الفحول فى إنتاجه الكبير الرائع، ولكنه ليس روائيًا فحسب، بل هو أيضًا صاحب رسالة، وصاحب مذهب فى القصة، وصاحب قلب كبير وحس دقيق عميق.

اعتنق مبادئ السلام والرحمة، وهاله أن تصبح رسالات الأنبياء التى قصد بها أن تؤلف بين القلوب، من أقوى أسباب تنافر الناس وتألبهم بعضهم على بعض بأشد العداوة والبغضاء.

وهاله أن الأوطان التى يفخر بها الإنسان، وإليها يحن، قد جعلت من أمنا الأرض التى تجمعنا على ثديها أحياء، وفى جوفها أمواتًا، مثارًا للتنازع والتطاحن، من أجل منفعة زائلة وجاه مغصوب يقوم على الغبن والعدوان..

وهكذا انقلب تولستوى سليل بيت الإمارة والنبل والثراء العريض والضياع المترامية الأطراف مبشرًا بالعدالة والمساواة وبأن الأرض

ليست ملك أحد، وإنما هى حل لمن يحلب شطريها بساعده، وبأن المحبة والسلام يجب أن يسودا الناس، بحيث تتحرر الشعوب من رق الاستبداد والاستغلال على السواء.

وجرد الرجل نفسه لرسالته، وجعلها هدفًا لرواياته الطوال والقصار.. بعد أن طبقها على حياته الخاصة. وكتب مؤلفات فى الاجتماع والنقد الفنى، هي للأسف أقل من رواياته فى كل شىء، فهى كلمات رجل طيب متحمس لما يقول، ولكنها لا تصمد للمناقشة العقلية. فإذا خلد تولستوى ـ وأنه لخالد! ـ فبما كتب من رواياته، وبفنه القصصى الممتاز لابدعواه فى الفلسفة والنقد الأدبى.

ولكنها الشهرة الذائعة على ألسن السواد من الناس. ومشاكل الحياة فى مطلع هذا القرن، وأواخر القرن السابق جعلت الناس يتنبهون إلى صيحة هذا الرجل فى سبيل الرحمة. ويأخذهم الانبهار بما يكتب فى الصحف إلى «ابن عمه» قيصر روسيا، وما أدراك يومئذ ما هو! فيقول له فى خطاباته المفتوحة:

«أخى نيقولا!» ثم يعظه فى جرأة ومضاء، فتحول مكانة «نبى الجيل ورسول السلام» فى الأدب العالمى، والقومى دون حسابه بما يحاسب عليه غيره.

* * *

ولد تولستوى عام ١٨٢٨، من أسرة عريقة فى الحسب طائلة الثراء، وتوفى عام ١٩١٠، وهو فى الثانية والثمانين من عمره، ولقد قضى هذا العمر الطويل يكتب ويؤلف، فأصدر فى شبابه العديد من الكتب: «الشباب، اللقاء، القوزاق، سباستبول، الجنديان الفارسان، الغزو»

ولكنه فى هذه المؤلفات لم يكن قد اهتدى بعد إلى الرسالة الغامضة المستسرة فى أعماق نفسه، والتى لم تكن قد تكشفت له، وأسفرت عن نفسها. كانت هذه الرسالة لا تنفك مبهمة بين جوانحه، يشملها الضباب، فلا تبين على حقيقتها، وأن كانت تومض بعض الوميض الحين بعد الحين.

ثم ينطلق فى رحلتين: إحداهما فى البلاد الروسية وقراها ومزارعها، يخالط الزراع ويحادثهم. والثانية فى أنحاء أوروبا وربوعها، يرى نظمها ومعالمها، ويتصل بأبنائها. وتبدأ معالمه تتضح شيئًا فشيئًا، ويعود إلى بلده، ويستقر فيه، ثم يقدم على عمل، لم يسبق أن أقدم عليه غيره، فيوزع أراضيه الواسعة وضياعه الكبيرة على الفلاحين وأبناء بلدته، ويبقى لنفسه ما يسد الرمق، ويقيم الأود، ثم يعتكف فى صومعته أو محرابه، يستوحى قلبه وضميره، ويخط ما يمليه عليه هذا القلب الرحيم، وذلك الضمير الحى، ويروح يدعو إلى السلام، وإلى الأمن والدعة، وإلى الإخاء بين الناس، وإلى نبذ الحروب، فالدنيا فسيحة تتسع للجميع، ولكنها تضيق بالمطامع والأهواء، والشرور والآثام. وانطلق يدعو إلى الوئام بين الأفراد، وبين الدول والشعوب، وإلى الإصلاح الاجتماعى ورفع مستوى الشعوب حتى تستطيع أن تحيا الحياة الكريمة.

ولامراء أن ارتفاع مستوى الحياة الاجتماعية التى دعا إليها تولستوى يجب أن يسبق تقدم العلم. ففى ارتقاء الحياة الاجتماعية ما يصلح الأخلاق ويصفى النفوس، ويتيح للمثل العليا أن تحيا وأن تبرز، وتأخذ مكانتها فى العالم، أما العلم وحده فهو سلاح فى يد شرير.

لقد بهر الناس هذا الإخلاص فى الدعوة، وهذا الإشراق فى الأدب، وهذه الروعة فى التصوير ولمس أوتار النفوس، فاقتدى به «مهاتما غاندى» سليل بيت الحكم والجاه فى الهند، وصاحب الثراء، وربيب الترف، فخلع هذا كله، ونزل عنه ووهب مزرعته للفلاحين، وأخذ يزرعها معهم على سنة «النبى الجديد» وقد أسماها «مزرعة تولستوى» تنويهًا بذكرى الرجل العظيم، واعترافًا بأستاذيته.

ذلكم هو «ليو تولستوى» النبى الروائى، صاحب الدعوة إلى الإخاء والوئام والسلام، الذى كتب له أن يشتهر بالرسالة فينتهى الأمر بخلوده بالرواية دون الفلسفة الاجتماعية التى يحسب له فيها ثواب النية الصادقة، والقلب الكبير.

وهو وأن كان لم يوفق فى وضع خطوط رسالته، فقد استطاع أن ينشرها بين الناس، ويدعو إليها، ويبشر بها، ويهيب بالناس أن يستمسكوا بها، وحسبه هذا فضلًا، وأنه لفضل عظيم جليل.

الفصل الأول

التأهب للجامعة

لم تبق سوى شهور قليلة على دخولى الجامعة، وكنت منصرفًا إلى الدراسة بجد، وأجد فى دروسى مع أساتذتى الذين يعدوننى لدخول الجامعة لذة، وكنت أتأهب لدخول كلية الرياضيات، وقد اخترتها فى الحقيقة لا لشىء إلا لافتتانى بمصطلحات الرياضة من قبيل جيب الزاوية، والتفاضل والتكامل وما إلى ذلك.

وأنا أقصر قامة من أخى فولوديا الذى يكبرنى بسنة وبضعة شهور. بيد أنى كنت عريض المنكبين كثير اللحن عاطلًا من المزايا الواضحة، وكان هذا أكبر ما يشغل بالى فأحاول على الدوام أن أبدو ذا أصالة فى سلوكى بحيث أتميز بشىء.

لقد تغيرت طباع كثيرة من طباعى، فكففت منذ زمن بعيد عن مراقبة حجرة نوم الخادمات، وصرت أخجل من التلصص وراء الأبواب، وانتهى تعلقى بخادمتنا ماشا، بعد ما تبينت غرامها بخادمنا القديم وسيلى، وقد انتهى ذلك الغرام بزواجهما، وكنت أنا الذى حصلت لهما من أبى على الإذن بذلك الزواج.

وقصارى القول أنى أخذت أتخلص من نقائص الطفولة والمراهقة،

ما عدا نقيصة واحدة سيظل أذاها لاحقًا بى مدى حياتى، وتلك النقيصة هى جنوحى إلى التفلسف.

* * *

وكان أصدقاء أخى الكبير فولوديا يسخرون من قامتى القصيرة وصغر سنى. وكان ذلك يجرح كبريائى، ومع هذا كنت أحب الجلوس فى حجرة أخى فولوديا حين يزوره أصحابه كى أرقب فى صمت كل ما يجرى هناك.

وكان أكثر هؤلاء الضيوف ترددًا على فولوديا ضابط يقال له دبكوف، وطالب اسمه الأمير نخليودوف. أما دبكوف فقصير بارز العضل أسمر اللون تجاوز مقتبل الشباب، قصير الساقين، بيد أنه مليح المنظر دائم الطرب والمرح، وهو من أولئك الأشخاص محدودى الأفق الذين يرجع ظرفهم إلى هذه الصفة، صفة ضيق الأفق. فهو عاجز عن النظر إلى الأشياء إلا من جانب واحد، ويمكن أن يستغرقه أو يستهويه أى شىء من غير مقاومة، وأحكام أمثاله وآراؤهم ضالة ذات جانب واحد. بيد أن قلوبهم طيبة مفتوحة وفيهم جاذبية آسرة، حتى أن ضيق أفقهم وأنانيتهم نفسها تغتفر لهم وتبدو من عناصر جاذبيتهم. يضاف إلى هذا أن دبكوف كان يسحر فولوديا ويسحرنى بمظهره العسكرى، وبالسن التى تقترن لدى الشبان دائمًا بالاحترام والاعتبار.

والحق أن دبكوف كان رجلًا معتبرًا فعلًا، ولم يكن يضايقنى سوى أن فولوديا كان يخجل فى بعض الأوقات ـ فى وجوده ـ من بعض أعمالى البريئة وتصرفاتى الساذجة، ومن صغر سنى.

أما نخليودوف فلم يكن وسيمًا، كانت عيناه صغيرتين رماديتى اللون، وجبينه ضيقًا بارزًا، وذراعاه وساقاه على قدر من الطول بعيد عن كل

تناسب ولا يمكن وصفه بالجمال، فليس فى هذا الأمير من علامات الوسامة سوى قامته المديدة ولون محياه الرقيق المشرب بحمرة وأسنانه الرائعة الحسن، وكانت ابتسامته المعبرة ولمعان عينيه يكسبانه تميزًا وحيوية فائقة. والحق أن نظرة عينيه وابتسامته كانتا تستوقفان النظر سواء أعبس أو استولى عليه الشرود.

ويظهر أنه كان خجولًا جدًّا لأن أتفه الأمور كان يكفى لتضرج محياه بحمرة شديدة حتى أذنيه، ولكنه لم يكن خجلًا صرفًا كخجلى، بل كلما ازدادت حمرته أزداد تعبير وجهه إصرارًا فكأنه حانق على نفسه لما يبديه من ضعف.

وكان الأمير فيما يبدو على صداقة وثيقة بفولوديا ودبكوف، مع أن الصدفة المحضة هى التى جمعت بينهم، فهم متباينون أتم التباين، فعلى حين كان فولوديا ودبكوف يتخوفان من كل شىء يمت بصلة إلى الجد فى التفكير أو المناقشة أو الشعور، كان نخليودوف ذا طبع حماسى، لا يتردد فى خوض المناقشات الفلسفية غير عابئ بالسخرية. ويؤثر فولوديا ودبكوف الكلام عن حبيباتهما، وكثيرًا ما أغرما بغير مقدمات بفتيات كثيرات، وربما أغرما بفتاة واحدة بعينها، فإذا لمحا من طرف خفى إلى غرام نخليودوف بفتاة ذات شعر أحمر من غير أن يذكرا اسمها، كان ذلك كافيًا لإغضاب الأمير المديد القامة.

ولم يكن من عادة نخليودوف أن يسخر من أحد، ولذا كان يغضب إذا تهكم صاحباه ولو تلميحًا على عمته التى كان يجلها إجلالًا عظيمًا.

ولاحظت أن فولوديا ودبكوف كانا يخرجان معًا إلى مكان ما بعد العشاء، ولا يصحبهما نخليودوف ولذا كانا يسميانه بالفتاة الخجول، والحق أن الأمير نخليودوف راعنى منذ أول وهلة بحديثه ومظهره معًا،

إلا أن شخصيته وشكله وسلوكه الخجول كسلوكى لم يفز بإعجابى فى البداية، ولعل السبب هو هذا التشابه بيننا فى المسلك وفى الخجل.

ثم أننى كرهت أيضًا نظرته المتعالية وعدم اكتراثه الواضح بى، ولذا كثيرًا ما حاولت أن أقهره فى المناقشة كى أذل كبرياءه وأظهره على ذكائى، ولكن خجلى كان يعرقل مسعاى هذا.

* * *

مناقشات

ولما دخلت كالعادة حجرة فولوديا بعد انتهائى من دروس المساء، وجدته مستلقيا فوق الأريكة، متكئًا على مرفقه يطالع رواية فرنسية، فتطلع نحوى لحظة ثم استأنف القراءة، وهو تصرف طبيعى وبسيط للغاية، بيد أنه دفع الدم إلى وجهى، فقد خيل إلىَّ أن نظرته تسألنى لماذا أتيت، وأن السرعة التى بها نكس رأسه دليل على رغبته فى إخفاء معنى تلك النظرة عنى، وكان الميل إلى تأويل أبسط الحركات والتصرفات من دأبى فى تلك السن. وسرت إلى المنضدة وتناولت كتابًا، ولكن قبل أن أشرع فى القراءة خطر لى أن من السخافة ألا نتبادل الكلام ونحن لم نتقابل قبل هذه اللحظة طول النهار، فسألته:

ـ هل ستكون فى البيت الليلة.

ـ لا أدرى. لماذا؟

ـ أنما هو سؤال خطر لى.

ولما تبينت فشلى فى إنشاء محادثة بيننا، تناولت كتابى وشرعت أقرأ، ومن العجيب أننى وفولوديا يمكن أن نقضى ساعات طويلة صامتين ونحن بمفردنا، أما إذا حضرنا ثالث حتى ولو لزم الصمت،

فوجوده كاف لاشتجار أفانين الحديث المنوعة بين كلينا، فقد كنا نشعر أن كلًا منا يعرف أخاه أتم المعرفة، وهذه المعرفة التامة تمنع من المكاشفة الحميمة: فشأنها فى ذلك شأن المعرفة السطحية سواء بسواء.

وسمعنا صوت دبكوف يسأل من الردهة:

ـ هل فولوديا فى البيت؟

فقال فولوديا وهو ينزل قدميه إلى الأرض ويضع الكتاب على المنضدة:

ـ نعم.

فدخل دبكوف ونخليودوف الحجرة بمعطفيهما وقبعتيهما:

ـ هل ستأتى معنا إلى المسرح؟

فأجاب فولوديا وقد أحمر وجهه:

ـ كلا، فليس عندى وقت.

ـ يالها من فكرة! تعال من فضلك.

ـ ليست لدى تذكرة.

ـ يمكنك الحصول على ما شئت من التذاكر عند الباب فقال فولوديا وهو يغادر الحجرة هازًا كتفيه:

ـ انتظرا، سأعود فى الحال.

وأدركت أن فولوديا يود الذهاب إلى المسرح ولم يكن رفضه إلا لأن المال يعوزه، ولم يكن خروجه إلا ليقترض من الساقى خمسة روبلات إلى أن يقبض مرتبه التالى، وقال دبكوف وهو يمد إلىَّ يده:

ـ كيف حالك أيها الدبلوماتى؟

وكان أصدقاء فولوديا يسموننى الدبلوماتى لأن جدتى كانت تتحدث بعد العشاء ذات ليلة عن مستقبلنا فقالت إن فولودي سيكون جنديًا، أما أنا فتتمنى أن ترانى دبلوماتيًا رشيقًا أنيقًا فى ملابس السهرة السوداء.

وسألنى نخليودوف:

ـ إلى أين ذهب فولوديا؟

فاحمر وجهى وقد خطر لى أنهم ربما خمنوا سبب خروج فولوديا من الحجرة، وقلت:

ـ لست أدرى.

ـ أظنه خاوى الوفاض، أليس كذلك؟

فلما ابتسمت ابتسامة تحمل معنى الإيجاب صاح:

ـ يالك من دبلوماتى! وأنا أيضًا خاوى الوفاض، أمعك نقود يا دبكوف؟

فأجاب دبكوف وهو يخرج كيسه ويتحسس بعناية نقودًا صغيرة الحجم، قليلة العدد بأنامله القصيرة:

ـ سنرى، ها هى ذى قطعة ذات خمسة كوبكات، وها هى ذى قطعة ذات عشرين كوبكًا... سحقًا لها!

وأتى بيده حركة مضحكة، وإذا فولوديا يدخل الحجرة فسألاه:

ـ ماذا وراءك؟ هل سنذهب؟

ـ كلا...

فقال نخليودوف:

ـ ما أسخفك! لماذا لا تقول أنك بلا نقود؟ خذ تذكرتى.

ـ وأنت؟

فقال دبكوف:

ـ سيذهب إلى مقصورة (لوج) ابن عمه.

ـ بل سوف لا أذهب إطلاقًا.

ـ لماذا؟

ـ لأنى لا أحب كما تعلم أن أجلس فى مقصورة.

ـ ولماذا؟

ـ لا أحب ذلك، أشعر بضيق وقلق.

ـ هذا دأبك! ولست أفهم كيف تشعر بالضيق والقلق حيث يرحب الجميع بوجودك، هذا سخيف يا عزيزى.

ـ وما حيلتى فى خجلى؟.. أنا واثق أنك لم يحمر لك وجه طول حياتك، فى حين يحمر وجهى لأتفه التوافه!

وأحمر وجهه فعلًا وهو يقول ذلك، فقال له دبكوف فى تعالٍ:

ـ أتعرف من أين يأتى خجلك هذا؟.. من فرط حبك لنفسك يا عزيزى.

فقال نخليودوف محتجًا على هذه الغمزة:

ـ فرط حبى لنفسى؟ بالعكس، أن خجلى سببه قلة كبريائى، فأنا أشعر على الدوام أنى ثقيل مزعج يضيق بى الناس.

وقال دبكوف:

ـ هيا ارتد ثيابك يا فولوديا...

واستطرد نخليودوف:

ـ وهكذا كثيرًا ما يحدث لى...

بيد أن دبكوف لم يعد يعيره سمعه، بل راح يدندن لحنًا شائعًا.

ـ لن أسكت على هذا، وسأثبت لك أن الخجل ليس سببه حب الذات على الإطلاق يا دبكوف...

ـ ستثبت هذا بأن تأتى معنا.

ـ قلت أنى سوف لا أذهب.

ـ أذن تبقى وتدلى بحجتك للدبلوماتى، ويتولى هو رفع الخلاصة إلينا عندما نعود.

فقال نخليودوف بعناد طفلى:

ـ وأنا أيضًا سأرفع إليكما الخلاصة، هيا وعجلا بالعودة.

ثم سألنى وهو يجلس بجوارى:

ـ ما رأيك؟ أتظن بى الكبر؟

ومع أن رأيى فيه كان قائمًا، إلا أن سؤاله المفاجئ أخذنى على غرة فتريثت قليلًا قبل أن أجيبه وأنا أشعر بصوتى يختلج ووجهى يحمر لأن الوقت قد حان كى أبين له أننى ذكى ولست فدمًا كما كان يظننى.

ـ أعتقد أن كل إنسان فيه كبرياء، وأن كل ما يأتيه المرء من الأعمال يأتيه بدافع من كبريائه أو كرامته.

فقال نخليودوف باسمًا ابتسامة خلتها تنطوى على استخفاف:

ـ وما هى الكبرياء فى رأيك؟

ـ الكبرياء هى الاعتقاد الراسخ لدى الشخص أنه أفضل وأحكم من سائر الناس.

ـ ولكن كيف يرسخ هذا الاعتقاد لدى كل إنسان؟

ـ لست أدرى هل هذا الاعتقاد صواب أم خطأ، ولكن ما من أحد يعترف به صراحة، وأنا شخصيًا مقتنع فى قرارة نفسى الآن أننى أحكم من سائر أهل الدنيا، وأنا واثق أنك مقتنع بهذا الرأى نفسه.

ـ كلا، فأنا على الأقل أعترف أننى قابلت أشخاصًا أقررت لهم بتفوقهم علىَّ فى الحكمة وسداد الرأى.

ـ محال!

فحملق نخليودوف فيَّ بإمعان، وقال:

ـ أتظن هذا حقًّا؟

فخطرت لى عندئذ فكرة، صارحته بها على الفور:

ـ سأثبت لك رأيى، لماذا نحب أنفسنا أكثر مما نحب سائر الناس؟ ذلك لأننا نعتبر أنفسنا أفضل من سائر الناس وأجدر منهم بالحب، فإذا اعتبرنا الآخرين أفضل منا وجب إذن أن نحبهم أكثر مما نحب أنفسنا، وهذا لا يحدث مطلقًا، وحتى أن حدث، فإنه يعزز رأيى على كل حال.

وابتسمت ابتسامة مطاولة ومجاملة عن غير قصد، وظل نخليودوف صامتًا برهة ثم قال بابتسامة عذبة تفيض طيبة وصفاء سعدت بها سعادة مفاجئة:

ـ لم أكن أحسبك على هذه البراعة!

والمديح له تأثير قوى لا على العواطف فحسب، بل وعلى عقل الشخص الذى ينصب عليه الثناء أيضًا، ولذلك شعرت تحت تأثير هذه الكلمة أننى أذكى مما كنت، وأن الأفكار تنثال علىَّ فى سرعة لم أعهدها.

وانتقلنا، دون أن نشعر، من موضوع الكبرياء إلى موضوع الحب، وكانت المناقشات فى هذا الموضوع بحرًا بلا انتهاء، وبدت لنا أتفه الآراء ذات مغزى عظيم بسبب ما نشأ بيننا من المودة والتوافق الروحى، فهذا التوافق الروحى من مزيته أن يؤدى لمس أى وتر فى

أحد الشخصين إلى تجاوب كتجاوب الصدى فى الشخص الآخر، وهكذا تبادلنا اللمسات الذهنية فى مناقشاتنا، وأحسسنا أن الوقت والألفاظ لا تكفى للتعبير عما فى أعماقنا من أفكار وخواطر.

بداية الصداقة

ومنذ تلك الليلة نشأت علاقات قد تكون غريبة ولكنها طيبة جدًّا ومحببة إلى نفسى بينى وبين ديمترى نخليودوف ففى وجود الغرباء كان لا يكاد يعيرنى التفاتًا، حتى إذا صرنا وحدنا جلسنا فى ركن هادئ وشرعنا نتناقش فننسى مرور الوقت وننسى كل شىء حولنا.

لقد تحدثنا عن الحياة المستقبلة، وعن الفنون وعن الحكومة والزواج وتربية الأطفال، ولم يخطر ببالنا مطلقًا أن كل ما جرى على لساننا كان هراءً فظيعًا، فكل قوى النفس فى وقت الشباب تكون متجهة نحو المستقبل، وهذا المستقبل مشحون بالحيوية والتنوع والأمل، الأمل القائم لا على تجارب الماضى، بل على إمكانيات موهومة للسعادة، وهذا الوهم فى حد ذاته كافٍ فى تلك السن للحبور، متى كان وهمًا مشاعًا بين نفسين متقاربتين.

وكانت مناقشاتنا ميتافيزيقية فى بعض الأحيان وكان يستهوينى أمعانها فى التجريد إلى أن نعجز عن التعبير عنها بألفاظنا العادية،

فنعترف بذلك العجز ونتوقف عن التحليق فى تلك الأجواء الفكرية العليا.

وحدث فى فترة المهرجان أن استغرقت الملاهى المتباينة نخليودوف، حتى أنه رغم حضوره إلى البيت جملة مرات فى اليوم كان لا يكلمنى إطلاقًا، وآلمنى منه هذا السلوك حتى عدت إلى رأيى الأول فيه وتربصت لفرصة أريه فيها أنى غير حريص على صحبته إطلاقًا ولا أكن مودة خاصة له.

وفى أول مناسبة بعد انتهاء مهرجان المرافع أبدى رغبة فى الحديث معى، فقلت له إنى مشغول بدروسى ثم صعدت إلى الطابق العلوى حيث حجرة الدراسة، ولكن بعد ربع ساعة انفتح باب الحجرة ودخل نخليودوف، وسألنى:

ـ هل يضايقك دخولى؟

فأجبته رغم رغبتى فى التشاغل عنه:

ـ كلا...

ـ أذن لماذا غادرت حجرة فولوديا؟ أننا لم نجلس للحديث معًا منذ زمن طويل، وقد تعودت هذه الأحاديث حتى أحسست أن شيئًا ينقصنى.

فزال ضيقى على الفور وعاد ديمترى فى نظرى ذلك الإنسان الرقيق الكذاب، وقلت له:

ـ لعلك تعلم لماذا انصرفت...

فأجابنى وهو يجلس بجوارى:

ـ ربما، ولكن تستطيع أنت أن تقول السبب يقينًا لا تخمينًا.

ـ سأخبرك أذن، لقد خرجت لأنى كنت ساخطًا عليك.. لا ساخطًا بالضبط، بل متضايقًا، وأقول لك بصراحة أننى أخشى أنك تضمر لى حتى الآن الاستهانة لحداثة سنى.

فأجاب على ذلك الاعتراف بابتسامة رقيقة هاشة وقال:

ـ أتعرف لماذا أصبحت قريبًا إلى نفسى؟ لماذا أحبك أكثر مما أحب من أعرفهم أكثر منك وتجمعنى بهم أمور كثيرة مشتركة؟ لقد عرفت هذا الآن، فأنت متمتع بمزية عجيبة نادرة... الصراحة.

ـ أجل، فأنا أقول دائمًا كل ما يخجلنى الإقرار به، ولكنى لا أقوله إلا لمن أثق بهم.

ـ هذا صحيح، ولكن لكى تثق بشخص يجب أن توليه مودتك وصداقتك حقًّا، ونحن لم نصبح صديقين بعد يا نقولا، أنك تتذكر ولاشك أننا تناقشنا فى الصداقة، ولكى نكون صديقين بمعنى الكلمة يجب أن يثق كل منا بالآخر.

ـ أنى أثق بأنك لن تخبر أحدًا بما أقوله لك بصفة خاصة، ولكن أهم الأفكار والخواطر هى تلك التى لا يمكن أن يكاشف أحدنا بها صاحبه.

ـ يا لها من أفكار بلهاء! أتدرى ماذا خطر لى يا نقولا؟

ونهض من مقعده وجعل يفرك يديه باسمًا.

ـ هيا نفعلها وسترى أنها ستجدى على كلينا!.. هيا نعاهد نفسينا أن يعترف كل منا لصاحبه بكل شىء فنعرف بذلك كل شىء ولا

يداخلنا الخجل، ولكيلا نخشى الغرباء، هيا نتعهد أيضًا ألا نبوح لأحد بما بيننا من أسرار.

وتم العهد، وسيتضح فيما بعد ما ترتب عليه.

ولئن قيل أن علاقة فيها السالب والموجب، فيها الشخص الذى يحب، والشخص الذى يدع الآخر يحبه، فيها الشخص الذى يقبل، والشخص الذى يقدم خده للتقبيل، فقد كنت أنا الذى قبلت، وكان ديمترى هو الذى قدم وجنته لقبلتى، ولكنه كان أيضًا على استعداد لتقبيلى.

كان حبنا متساوقًا، لأن كلًا منا كان يقدر صاحبه ويعرفه على حقيقته، بيد أن هذا لم يمنع من ممارسة نفوذه علىَّ ومن امتثالى لذلك النفوذ.

والواقع أننى بتأثير نخليودوف كنت أعتنق آراءه من غير أن أدرى، ولباب تلك الآراء عبادته المدلهة بمثل الفضيلة العليا، والإيمان بأن الإنسان ينبغى أن يطلب الكمال لنفسه طلبًا متواصلًا، ثم إيمانه بإصلاح البشرية كافة والقضاء على جميع الرذائل ووجوه الشقاء، وبدا ذلك لى أمرًا ممكنًا سهلًا، حتى اعتقدت أنه من اليسير أن يصلح المرء نفسه ويكتسب جميع الفضائل وأن يغدو سعيدًا.

والله أعلم كم كانت آمال الشباب الشامخة هذه سخيفة مضحكة أو سائغة معقولة، وهو وحده يعلم من المسئول عن حبوطها.

* * *

الربيع

كان ديمترى يؤمن بأن واجب الإنسان الأول هو السعى إلى الكمال الخلقى، وأن ذلك الكمال سهل يسير أبدى، وشرعت بتأثير تلك الآراء أرسم الخطط الرائعة لمستقبل خلقى ناشط، وفى الوقت نفسه استمرت حياتى تسير على نهجها المضطرب الكسول.

ومعنى ذلك أن أفكار صديقى المعبود ديمترى التى كنت أديرها فى رأسى وأقلبها فى أحاديثى معه لم تكن تروق لذهنى فحسب، من غير أن تعتنقها مشاعرى، ثم حان لهذه الأفكار أن تتدفق فى ذهنى بقوة وحيوية بعد أن استولت على وجدانى فروعنى ما أضعته من وقت قبل ذلك ورغبت فى تطبيق تلك الآراء على الفور، بل فى التو واللحظة، منتويًا فى عزم ألا أحيد عنها مدى العمر.

ومنذ ذلك الوقت شعرت بابتداء مرحلة الشباب عندى، وكانت سنى عندئذ ست عشرة سنة تقريبًا، والمعلمون دائبون على تلقينى الدروس توطئة لدخول الجامعة، وكان مؤدب طفولتى سان جيروم يرقب تقدمى فى الدراسة، وفيما عدا ذلك كان كل ما يشغلنى هو التفكير المفكك الحالم فى وقت وحدتى، أو التمرينات البدنية التى

كان هدفى منها أن أغدو أقوى رجل فى العالم، أو التجول بغير هدف وعلى غير هدى فى الحجرات ولا سيما فى الدهليز المؤدى إلى مخدع الخادمات، أو التطلع إلى نفسى فى المرآة، وكنت أخرج من ذلك التطلع دائمًا ضيق النفس، لا لأن مظهرى كان عاديًا فحسب بل لأن وجهى لم يكن معبرًا عن ذكاء أو نبل، فملامحى ملامح شخص عادى من الإغمار، وكانت عيناى الصغيرتان الرماديتان تنمان عن بلادة لا توقد، ولا سيما حين أنظر فى المرآة. ومع أننى كنت قويًا جدًّا بالنسبة لسنى، فقد كانت ملامحى رخوة لا تدل على بأس فسحنتى أشبه ما تكون بسحن الموزيك (الفلاحين عبيد الأرض) ولى كفان كبيرتان جدًّا وقدمان ضخمتان، وكم كان يبدو لى ذلك فى تلك السن مدعاة للهوان.

* * *

وفى عام دخولى الجامعة جاء عيد الفصح فى أواخر أبريل فتأجلت الامتحانات التى تعقد لقبول المستجدين إلى ما بعد ذلك.

وكان الجو عليلًا دافئًا مدة ثلاثة أيام بعد انقطاع الثلوج وذوبانها فلم نشاهد كتلة واحدة من الثلج فى الشوارع، ونقط الماء الأخيرة تقطر من سقوف البيوت، والبراعم تطل بواكيرها من بين فروع الشجر فى حديقتنا الأمامية، وكان الممر فى الفناء قد جف والعشب الأخضر أخذ ينبت هناك بالقرب من الحظائر ومن بين شقوق الحجارة فى الأبنية. كانت هذه الفترة من الربيع هى أشد الأوقات تأثيرًا فى نفس الإنسان، فالشمس مشرقة ولكنها ليست شديدة الحرارة، والنباتات

تتنفس فى الهواء فتشيع الجدة الحياة الوليدة، وحتى السحب التى تلوح فى تلك السماء الزرقاء الحانية كانت ذات تكوين شفاف.

وخيل إلىَّ ـ لست أدرى لماذا ـ أن تأثير هذه الأيام الأولى من الربيع أقوى وأوضح فى المدن الكبرى، وكنت واقفًا بجوار النافذة أحل مسألة جبر طويلة على السبورة، وبجوارى وقف الخادم ينزع المسامير عن النوافذ المطلة على الحديقة الأمامية فيشتت ذهنى بضجته، وكنت فى حال من الضيق سيئة، واكتشفت أنى أخطأت فى بداية الحل الطويل فيجب أن أعيده من البداية، وبحثت عن الطلاسة فلم أجدها، وكان صوت الخادم وهو ينزع المسامير يمزق أعصابى فشعرت برغبة فى الشجار مع أى إنسان، وألقيت الطباشير وكتاب الجبر من يدى ورحت أذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا، وفجأة تذكرت أننى فى هذا اليوم سأذهب للاعتراف وتناول الأسرار المقدسة فينبغى أن أتجنب مقارفة الخطايا، وعلى الفور سرت السكينة والرقة إلى نفسى، وتلاشى السخط على نيكولاى الخادم فاقتربت منه وقلت له بأرق صوت:

ـ دعنى أساعدك يا نيكولاى.

وأجدى على ذلك مزيدًا من سلام النفس، وساعدت نيكولاى فى حمل الأخشاب التى كانت تسد النوافذ إلى المخزن وبى رغبة فى إجهاد نفسى.

ولما فتحت الشبابيك دخل الهواء الطلق إلى الحجرة، حاملًا معه أصداء المدينة وزقزقة العصافير وسبح كل شىء فى النور وبدت

الحجرة أشد مرحًا، فجلست على حافة النافذة وأطللت على الحديقة ورحت أفكر، واستولت على روحى إحساسات رقيقة متناهية فى القوة وأنا أملأ عينى بمنظر الأرض الندية ببقايا الثلج الذائب وقد شقتها هنا وهناك رماح خضراء من العشب، وأشعة الشمس تنعكس فى لألاء باهر على قطرات الماء والجداول الصغيرة، وأحواض الزئبق والآس تميس بقدودها الهيفاء ورءوسها تحت أنسام الربيع، وكان ضوء الشمس موسيقا مرحة النغمات تحدثنى حديثًا يعيه وجدانى ويفقه، تحدثنى عن شىء جديد جميل رائع، لا أستطيع أن أقول ما هو لأن الألفاظ لا يمكن أن تعبر عنه.

كان كل ما أراه يحدثنى عن الجمال والسعادة والفضيلة وأنها جميعًا أمور ممكنة لا يوجد واحد منها بغير صاحبيه، فالجمال والسعادة والفضيلة شىء واحد.

وتساءلت متعجبًا كيف غاب ذلك عنى من قبل؟ وكم كنت شريرًا شقيًا حين جهلت تلك الحقيقة! وما أحرانى أن أكون سعيدًا فى مستقبل أيامى وأنا أسير فى ذلك الطريق السلطانى، طريق الجمال والسعادة والفضيلة!

ـ يجب أن أغدو بأسرع ما يمكن إنسانًا آخر! يجب أن أشرع من هذه اللحظة فى حياة جديدة تختلف تمامًا عن حياتى حتى الآن!

ولكن هذا العزم العاجل لم يدفعنى إلى مزايلة مقعدى فوق حافة النافذة ساعة طويلة غرقًا فى أحلامى مستسلما للبطالة، ثم تنبهت إلى موقفى الشائن بعد عزمى الأكيد فكأنما أشرقت على روح جديدة.

هل حدث لك فى حياتك أن تنام إلى الغروب فى أيام العمل الدافئة ثم تستيقظ فجأة لتجد النهار قد ولى وأنت غارق فى سباتك، فتشعر بالخجل من نفسك لأنك نمت غافلًا عن ذلك الجو البديع مبددًا الفرص الثمينة، وتهب على عجل لتعوض ما فاتك من اهتبال سانحات الحياة؟

أن كنت جربت هذا يومًا من الأيام، فأنت مدرك طرفًا من الشعور القوى الذى استولى على نفسى فى ذلك النهار.

حدثت نفسى قائلًا:

ـ اليوم سأذهب إلى الاعتراف وأتطهر من جميع آثامى، ولن أقارف مأثمًا بعد اليوم.

واسترجعت جميع الآثام التى كانت تقض وجدانى، ثم قلت:

ـ سأذهب إلى الكنيسة بغير تخلف كل يوم أحد، وبعد العودة سأطالع فى الإنجيل ساعة كاملة، وسأعطى العشر من الخمسة وعشرين روبلًا التى سأتقاضاها مرتبًا شهريًا عند دخولى الجامعة للفقراء، سأعطيها خلسة حتى لا يدرى بها أحد، سأعطيها لا للمتسولين، بل سأنقب عن الفقراء واليتامى والأرامل الذين يدارون فقرهم بالتجمل فلا يدرى بأمرهم أحد! وستكون لى حجرة خاصة أنظفها بنفسى وأجعلها أية فى الترتيب حتى لا أتعب الخادم فى شىء من أمرى، فالخادم إنسان مثلى، ثم سأذهب إلى الجامعة سيرًا على قدمى، فإن أعطونى مركبة صغيرة أو زحافة سأبيعها وأفرق ثمنها بين الفقراء والمعوزين، ومحاضراتى سأعدها إعدادًا كاملًا قبل

أن أذهب لتلقيها حتى أكون فى مقدمة زملائى فى الفصل الدراسى الأول، سأحرر البحوث وأبذل الجهد عسى أن ينقلونى فى الفصل الدراسى الثانى إلى الصف التالى حتى أتخرج فى سن الثامنة عشرة وقد ظفرت بوسامين ذهبيين، وانصرف للتحضير لدرجة الأستاذية (الماجستير) وبعد الحصول عليها أحضر درجة الدكتوراه وأغدو فى طليعة علماء روسيا، بل عسانى أمسى أعلم رجل فى أوربا قاطبة!

وسألت نفسى على الأثر:

ـ وماذا بعد ذلك كله؟

ثم تنبهت إلى أن هذه كلها أحلام، أحلام كبرياء وزهو، فهى آثام يجب أن أعترف بها للقسيس هذا المساء، ثم عدت إلى بداية خواطرى وسوانحى:

ـ أن الاستعداد سلفًا للمحاضرات يحتاج إلى جو خاص، سأسير إلى التلال وأختار بقعة خالية تحت شجرة وأقرأ فيها دروسى، وقد أحمل معى فى بعض الأحيان شيئًا آكله ثم أستريح وأطالع كتابًا جيدًا، أو أرسم المنظر الذى أمامى، أو أعزف على آلة موسيقية (وبهذه المناسبة لابد لى أن أتعلم العزف على المزمار!) وهى أيضًا يجب أن يخطر لها السير إلى التلال، وفى يوم من الأيام ستأتى إلىَّ وتسألنى من أكون، وسأنظر إليها فى حزن وأقول لها أنى ابن قسيس، وأننى لا أشعر بالسعادة إلا عندما أكون بمفردى، وحيدًا أتم الوحدة، فتعطينى عندئذ يدها وتقول شيئًا ثم تجلس بجوارى، وسنذهب معًا كل يوم بعد ذلك إلى تلك البقعة ونغدو صديقين فأقبلها، كلا!.. لن يكون

هذا صوابًا، فمن هذا اليوم لن أنظر إلى امرأة، ولن أذهب إلى باب حجرة نوم الخادمات، بل ولن أحاول المرور به، وبعد ثلاث سنوات سأكون بلغت سن الرشد فأتزوج بلا تردد، وسأمارس التمرينات البدنية كل يوم حتى أكون فى منتهى القوة وأنا فى العشرين، وسأتدرج فى حمل الأثقال حتى أصل إلى حمل أربعمائة رطل فأكون أقوى من أى رجل فيمن عرفتهم، حتى إذا تجاسر إنسان على إهانتى أمسكت به من تلابيبه ورفعته فوق رأسى بيد واحدة فيظل مرفوعًا فى الهواء إلى أن يعرف مبلغ قوتى ثم أطلقه، ولكن هذا أيضًا لن يكون صوابًا! ولكن لا بأس ما دمت سوف لا أؤذيه!

ولا تلومونى على أحلام شبابى وما تتسم به من طفولة، فأنا واثق أنى مهما طعنت فى السن سأجد نفسى أحلم أحلام الأطفال على ذلك النحو، سأحلم بفتاة تحبنى وأنا شيخ أدرد الفم وأنجب منها ابنًا «أبله» يرتقى فجأة منصب الوزارة، ولا يخلو الأمر أن تهبط علىَّ ثروة تقدر بالملايين من حيث لا أحتسب، ولا أظن إنسانًا مهما تقدم فى السن حرمته الطبيعة من هذه الأحلام المغرية، ولكن أحلام كل مرحلة فى العمر لها طابعها الخاص بها، وكان حب هذه المجهولة الخيالية هو الطابع المميز لأحلام مطلع الشباب عندى، وكانت أوصافها خليطًا ممن مال إليهن قلبى من القريبات وبنات المعارف والجيران والخادمات ولا سيما ماشا زوجة وسيلى الخادم حين تقف تغسل الثياب وقد مالت على «الطست» وابتلت ثيابها فالتصقت بجسدها.

والخاصة المميزة لهذا الحب أنه كان حباً للحب، فأنا أيضًا أريد بل أشتهى أن يعرفنى كل إنسان ويحبنى وأن يكون اسمى على كل لسان مقرونًا بالتقدير والإعجاب والامتنان، وكان اعتقادى راسخًا أننى سأكون قريبًا أعظم رجل فى العالم بوسيلة أجهلها ولكنها لا شك حاصلة، ولهذا عشت فى تلك الفترة وأنا أتوقع مفاجأة مجهولة رائعة سعيدة، أستطيع بعدها أن أحقق جميع أحلامى.

أن الندم على الماضى التافه وما فيه من خمود وآثام والرغبة الصادقة فى الجمال والكمال، هما الإحساس السائد على تلك الحقبة من عمرى، ومن هذا الإحساس نبتت مبادئى ونظرتى إلى نفسى وإلى الناس وإلى الدنيا التى خلقها الله، وهذا الإحساس تطامن للأسف الشديد تحت وطأة الزمن وما يحمله فى تضاعيفه من زيف وشر ورذيلة، ولكنه كان يرفع رأسه بالاحتجاج مشيرًا إلى هدفه النبيل مبشرًا بمستقبل من طلب الكمال والسعادة.

ترى هل سيكتب لهذا الإحساس الناطق فى نفسى أن يخمد يومًا ما خمود الأبد؟

* * *

محيط الأسرة

قلما رأينا أبى فى البيت ذلك الربيع، ولكنه كلما جاء كان مرحًا غاية المرح، يعزف قطعه المفضلة على البيانو وينظر إلينا نظرات معربدة ويعابثنا بالنكات، فيقول، مثلًا، لى بوجه غاية الجد أننى عينت سكرتيرًا مساعدًا لسفيرنا فى فينا، أو يخيف كاتنكا بالعناكب التى كانت تفزع منها كثيرًا.

ولكنه كان ودودًا للغاية مع صديقينا دبكوف ونخليودوف، ويخبرهما ويخبرنا أيضًا بمشروعاته للسنة التالية، ومع أن هذه المشروعات والخطط كانت تتغير كل يوم تقريبًا وكثيرًا ما يناقض بعضها البعض الآخر، إلا أنها كانت خطوة لطيفة جذابة نصغى إليها بشغف، حتى أن أختى ليوبا الصغيرة كانت تشخص بعينيها إلى فمه خشية أن تفوتها كلمة واحدة، وتارة كان مشروعه يتلخص فى تركنا موسكو للدراسة فى الجامعة، ويذهب هو مع ليوبا إلى إيطاليا لتمضية عامين، وبعد ذلك يشترى ضيعة فى شبه جزيرة القرم تطل على الساحل الجنوبى كى يذهب إلى هناك لتمضية الصيف، وفى مرة أخرى تكون خطته النقلة إلى بطرسبرج مع الأسرة كلها، وهكذا.

ولكن الذى لفت نظرى إلى جانب مرح والدى هو تغيّر آخر طرأ عليه فأدهشنى دهشة عظيمة، فقد ابتاع لنفسه ثيابًا على آخر طراز: حلة زيتونية اللون، ومعطفًا طويلًا وسراويل رشيقة، فكان يبدو فيها وجيهًا للغاية، وكثيرًا ما فاحت منه رائحة العطر الجميل عند ما يزمع الخروج إلى مكان ما، ولا سيما لزيارة سيدة معينة.

وسمعت من نيكولاى أن الحظ كان حليفه فى الميسر فى الشتاء الماضى بصورة خارقة للعادة فربح مبلغًا جسيمًا جدًّا أودعه فى المصرف وقرر ألا يقرب الميسر فى هذا الربيع، ولعل هذا هو السبب فى تلهفه على الرحيل إلى الريف كى يباعد بين نفسه وبين المائدة الخضراء فإذا به يقرر التعجل بالسفر مع أخواتى الفتيات بعد عيد الفصح مباشرة إلى بتروفسكوى غير منتظر دخولى الجامعة ونتيجة امتحان قبولى، فبقيت أنا وفولوديا على أن نلحق بالأسرة فيما بعد.

وكان فولوديا لا يفارق دبكوف طول الشتاء وأول الخريف، أما ديمترى نخليودوف ففترت علاقته به كثيرًا، وكانت صداقته بدبكوف تحتاج إلى تسلية ولهو، وكانت هذه التسلية فيما أدركت من أطراف الأحاديث التى سمعتها هى شرب الشمبانيا بلا توقف، والمرور فى زحافة صغيرة تحت نوافذ الشابات اللواتى وقعا فى غرامهن، والرقص لا فى مراقص الأطفال كما كان الحال حتى الآن بل فى مراقص حقيقية يؤمها الكبار.

وهذا الظرف الأخير باعد قليلًا بينى وبين فولوديا رغم مودتنا المتبادلة، فكلانا كان يشعر أن هناك بونًا شاسعًا بين غلام خاضع

للرقابة من مؤدبيه وبين رجل يرتاد المراقص الكبرى، وهذا الإحساس بالفرق الضخم كان يمنع كلًا منا من مكاشفة الآخر بخواطره الحميمة.

وكانت كاتنكا قد شبت عن الطوق وجعلت تقرأ الكثير جدًّا من الروايات، ولم يطلب لى التفكير فى أنها لا تلبث أن تتزوج، ومع أن فولوديا شب عن الطوق أيضًا إلا أن التفاهم بينهما كان مفقودًا، ويخيل إلىَّ أنه كانت بينهما نفرة.

والغالب أن كل هم كاتنكا حين تكون بالبيت كان منصرفًا إلى قراءة الروايات، إذ كانت تشعر بالملل فى معظم الأحيان، ولكن حين يحضر الرجال لزيارتنا كانت تتدفق حيوية ونشاطًا وخفة روح، وترشقهم بنظراتها التى لم أكن أدرك عندئذ ماذا تعنى بها، ولكن فيما بعد عرفت منها أن المغازلة بالعيون هى المغازلة الوحيدة المسموح بها للفتاة، فعرفت معنى تلك الحركات الغريبة من عينيها التى كانت لا تدهش الآخرين إطلاقًا.

والصغيرة ليوبا بدأت كذلك ترتدى الثياب الطويلة، فاختفت عن الأنظار عيوب تكوين ساقيها، بيد أنها لم تزل تبكى وتصرخ كما كانت صغيرة، وانصرف اهتمامها الأعظم إلى الموسيقى لأنها كانت تحلم فى تلك الفترة بالزواج من مغنٍ أو موسيقى.

وأما مؤدبنا سان جيروم فكان يعلم أنه سوف لا يبقى فى بيتنا بعد التحاقى بالجامعة فاتفق على الالتحاق بخدمة كونت، وصار ينظر إلى بيتنا فى زراية واستهانة، وكثيرًا ما كان يخرج وتعلم تدخين

السجائر، وكان ذلك يعتبر عندئذ قمة التبهرج، ولا يكف عن الصفير بألحان مرحة.

وعندما كنت أنزل للعشاء أجد أخواتى وحدهن مع سان جيروم فى قاعة المائدة، أما أبى فيكون قد خرج وفولوديا يستعد للامتحان مع رفيقيه فى حجرته ولذا يقدم إليه العشاء هناك، وتجلس أختى الكبرى ميمى على رأس المائدة وكنا لا نحترمها فيفقد العشاء الكثير من بهجته وهيبته، أنه لم يعد كما كان فى حياة أمى وجدتى حفلًا يوميًا يربط بأهميته بين أفراد الأسرة فى ساعة معينة مهما توزعتهم المشاغل فى ساعات النهار الأخرى.

ففيما مضى، فى بتروفسكوى كان كل منا ينزل للعشاء بعد أن يستحم ويرتدى الثياب المناسبة، وكانت المائدة مسرحًا للأحاديث اللطيفة، ويسودها النظام والترتيب والاحتفال، ما كان أبهجها من ساعة!

وفى موسكو كانت جدتنا تقوم مقام أمنا بعد أن ماتت الأم، وكان الاحتفال بتلك الوجبة لا يقل عما تعودنا عليه فى الضيعة، أما الآن فلم أعد أشعر بهذا السرور الجياش فى ساعة الطعام، والأحاديث التى تنعقد بين ميمى وسان جيروم والفتيات تدور حول أمور تافهة مثل الثياب والأحذية، ولكنى كنت أكتفى بالإصغاء فى أدب بالغ، والموافقة على رأى سان جيروم حين يأخذ رأيى أو يستشهد بى، وكان يحنقنى أن لا أجد فى هذه الضجة من يلتفت إلى محافظتى الشديدة على الأدب والرقة.

وبعد العشاء كانت ليوبا ترينى ورقة سجلت فيها جميع الخطايا التى اقترفتها فى ذلك اليوم، فكنت أثنى عليها لذلك العمل وأنبهها إلى الأفضل من تسجيل الآثام على الورق تسجيلها فى السريرة، حتى لا تعود إلى اقترافها.

وبعد ذلك أصعد إلى حجرتى لأراجع نفسى فى أفعالى استعدادًا للاعتراف وأسجل على الورق مشروعاتى المستقبلة وأهدافى والمبادئ والقواعد التى سألتزمها سائر أيام حياتى والتى سوف لا أحيد عنها.

قواعد

وبالفعل تناولت ورقة وحاولت أولًا أن أكتب قائمة بواجباتى كما افترضتها خلال السنة المقبلة، وكان لابد من تسطير جداول فى هذه الورقة، فلم أجد المسطرة فاستخدمت قاموس اللغة اللاتينية فى التسطير، وبعد أن رفعت القاموس اتضح لى أن الحبر سال على الورقة فلطخها، وكان القاموس أقصر من الورقة فخرج الخط متعرجًا، فتناولت ورقة أخرى واستطعت بعد جهد أن أخط فيها السطر المطلوب بالقلم والقاموس. ثم قسمت واجباتى إلى ثلاث فئات: واجباتى نحو نفسى، ونحو جيرانى، ونحو الله.

وشرعت أكتب واجباتى نحو نفسى فإذا بى أكتشف أنها من الكثرة والتعدد، بحيث اتضح لى أننى يجب أن أكتب قبل هذه الواجبات قواعد حياتى، وتناولت ست ورقات حكتها بالخيط حتى صارت كراسة وكتبت فى رأسها «قواعد حياتى» فخرجت لحروف متعرجة غير متناسقة حتى أنى فكرت فى كتابتها من جديد، وشعرت بحسرة بالغة وأنا أتساءل لماذا يخرج كل جميل نظيف فى سريرتى مشوهًا

قبيحًا منفرًا عند التنفيذ؟ لماذا يشوه التطبيق العملى جميع أفكارى الجميلة الرائعة؟

وسمعت نيكولاى عند الباب يقول لى:

ـ لقد حضر القسيس، فتفضل بالنزول لتسمع توجيهاته.

فأخفيت كتابى فى مكتبى ونظرت فى المرآة ومشطت شعرى إلى الخلف بصورة خُيل إلىَّ أنها تضفى علىَّ سيماء التفكير، وتوجهت إلى حجرة الجلوس حيث أعدت على منضدة مغطاة بمفرش الصور المقدسة والشموع المشتعلة، ودخل أبى من باب آخر فى اللحظة التى دخلت فيها أنا.

ومنح القسيس الأشيب الشعر الجاد الملامح المتغضن الوجه والدى بركاته، فقبل أبى يده العريضة الجافة القصيرة، وحذوت أنا حذوه، وسأل أبى عن فولوديا فقالت كاتنكا:

ـ أنه يدرس مع الأمير نخليودوف.

ثم رمقت أختى الصغيرة ليوبا فاحمر وجهها فجأة لسبب ما، ولكنها زعمت أن شيئًا آلمها ثم غادرت الحجرة، وتمهلت فى الحجرة الخارجية حيث تبعتها فرأيتها تكتب شيئًا فى ورقتها، فسألتها:

ـ هل ارتكبت خطيئة أخرى مميتة؟

فأجابتنى وقد احمر وجهها:

ـ كلا، لم أفعل شيئًا من هذا.

وفى هذه اللحظة سمعنا صوت الأمير فى الدهليز يستأذن فى الانصراف من فولوديا، ودخلت كاتنكا فقالت مخاطبة ليوبا الصغيرة:

ـ إن كل شىء يعتبر عثرة لك وغواية.

ولم أفهم ماذا حدث لأختى الصغيرة، فقد رأيتها محرجة حتى إن الدموع طفرت إلى عينيها، ثم انقلب الحرج إلى سخط وغضب على نفسها وعلى كاتنكا التى كانت تغتظها غيظًا واضحًا ثم صاحت:

ـ كيف تثيريتى قبل تناول الأسرار المقدسة بهذه الصورة؟ أنك تعلمين أن هذه المسألة لا تصلح موضوعًا للمزاح إطلاقًا.

فسألتنى كاتنكا:

ـ أتعلم ماذا كتبت يا نقولا؟ لقد كتبت...

فقاطعتها ليوبا ثائرة وهى تبتعد عنها:

ـ لم أكن أنتظر منك أن تكونى حقودًا إلى هذا الحد، أنها يا نقولا تدفعنى إلى الخطيئة عمدًا فى مثل هذه اللحظة، لماذا يا كاتنكا؟ أننى لا أغيظك ولا أنال من عواطفك وآلامك، أليس كذلك؟

* * *

وعدت وفى رأسى هذه الخواطر وما إليها إلى حجرة الجلوس فإذا شمل الجميع قد التأم هناك، ثم وقف الكاهن وتأهب للصلاة

قبل تلقى الاعتراف، وما أن رن فى الصمت السائد صوت القسيس الجاد داعيا إلى التوبة والاعتراف بلا خجل بالخطايا حتى تتطهر نفوسنا أمام الرب، مذكرًا إيانا بأن إخفاء الخطايا وكتمانها يضاعف من وزرنا، إذا بشعور التقوى يسيطر على نفسى كما كنت من قبل وأخذتنى الخشية والخشوع لتناول الأسرار المقدسة.

وكان أبى أول من تقدم للاعتراف فاختلى بالقسيس فى حجرة جدتى مدة طويلة،، ولبثنا نحن كلنا صامتين فى حجرة الجلوس ثم تناقشنا فى همس أينا يدخل بعده، ثم سمعنا من وراء الباب صوت القسيس يرتفع وهو يتلو الصلاة، وعلى الأثر ترامى إلينا وقع أقدام أبينا وانفتح الباب ثم برز الوالد وهو يسعل، رافعًا أحد كتفيه فوق مستوى الآخر، ولم يرفع عينيه إلى أحد منا، ثم قرص خد ليوبا الصغيرة وقال بمرح:

ـ ادخلى الآن يا ليوبا، وقولى كل شىء، فأنت الخاطئة الكبرى كما تعلمين!

فاحمر وجه ليوبا ثم اصفر، وأخرجت قائمة خطاياها من جيب ثوبها ثم أعادتها وغاص رأسها بين كتفيها كأنها تتوقع لطمة تهبط عليها من أعلى، ثم دلفت من الباب.

ولم يطل مكثها فى الداخل، وعندما خرجت كان كتفاها يهتزان بالنحيب، ودخلت بعدها كاتنكا التى خرجت علينا مشرقة بالابتسام، وحل دورى، فدخلت القاعة نصف المعتمة وأنا أشعر بذعر غبى ورغبة ملحة فى ازدياد هذا الذعر، فلما دخلت حوّل الكاهن وجهه نحوى.

ولم ألبث فى حجرة جدتى أكثر من خمس دقائق، ولكنى عندما خرجت كنت أشعر بالسعادة، وعلى حسب اعتقادى وقتئذ خرجت شخصًا نقيًا ولد من جديد لأن روحى تغيرت تغيرًا كليًا.

ولازمنى هذا الشعور النادر فى صفائه ونشوته إلى أن أويت إلى فراشى، وكنت على وشك الاستغراق فى النوم وأنا أعيد فى مخيلتى جميع الآثام التى تطهرت منها فصرت أبيض كالثلج، وإذا بى أتذكر فجأة خطيئة معيبة أغلفت ذكرها فى الاعتراف!

وقفزت إلى ذاكرتى كلمات الصلاة التى تلاها القسيس قبل الاعتراف وجعلت ترن فى أذنى بلا انقطاع فتلاشت غبطتى كلها.

ـ أن كتمتم خطاياكم فسيضاعف ذلك من وزرها أمام الرب!

ورأيت نفسى غارقًا فى مزيد من الخطايا بحيث لا تكفى جميع العقوبات للتكفير عن وزرى، وظللت أتقلب على الفراش منتظرًا عقاب الرب فى صورة موت مفاجئ وقد تصببت بالعرق البارد.

وأخذ رعبى من حالتى يزداد بمضى الوقت وأنا لا أدرى ماذا سيحدث لى ولا ما هو المخرج من ورطتى المهلكة.

وفجأة خطرت لى فكرة موفقة للغاية، أن أذهب على قدمى أو فى عربة إلى ذلك الراهب الذى تلقى اعترافى فى الدير الذى يقيم به متى بزغت أول أنوار النهار وهناك اعترف له اعترافًا جديدًا كاملًا غير منقوس.

وبذلك وحده عاد الهدوء إلى نفسى.

* * *

الرحلة إلى الدير

وصحوت فى هذه الليلة عدة مرات لخوفى أن أتأخر فى الاستيقاظ، وفى الساعة السادسة كنت على تمام الأهبة للخروج، والنهار لم يبزغ تمامًا بعد، ومن غير أن أغسل وجهى أو أتلو صلاتى خرجت إلى الشارع وحدى لأول مرة فى حياتى وواجهنى ضوء الفجر الأحمر الباهت وهواؤه البارد من وراء البيت المقابل لنا بسقوفه الخضراء، فأوشكت أناملى وملامح وجهى أن تتجمد من شدة البرودة.

ولم أجد حوذيًا فى الشارع، مع أنى كنت عولت على ركوب عربة أجرة فى الذهاب والإياب حرصًا على السرعة، ولم يقابلنى فى الشارع إلا نفر من عمال البناء ذاهبين إلى أشغالهم، وبعد أن مشيت على قدمى نحو ألف خطوة بدأ عدد المارة يزداد رجالًا ونساءً يحملون السلال أو الجرار ذاهبين إلى السوق أو لإحضار الماء، وسمعت نداء باعة السميط والفطائر الساخنة، وأخيرًا رأيت حوذيًا عجوزًا نائمًا فوق زحافته الزرقاء البالية وأخاله كان لم يزل تحت تأثير النعاس حين طلب منى عشرين كوبكًا كى يقلنى إلى الدير ويعود بى

منه، وما أن هممت بالركوب حتى تنبهت حواسه وضرب حصانه بطرف سوطه فأوشك أن ينطلق بالزحافة وهو يغمغم:

ـ حصانى جائع فلا أستطيع أن أوصلك يا سيدى.

ووجدت عناءً فى إقناعه بقبول أربعين كوبكًا، وعندئذ رمقنى بنظرة متفحصًا، ثم قال:

ـ ليكن، أركب يا سيدى.

واعترف أننى كنت خائفًا أن يحملنى إلى مكان مقفر ويسرقنى، فظلت أنظارى معلقة به وبعنقه النحيل المتغضن فوق ظهره المحدودب وهو يقود الزحافة فى الشوارع المتعرجة وعندما وصلنا إلى الدير كانت الشمس قد ظهرت فى السماء وانعكست أشعتها الذهبية على قباب الكنائس وأن بقيت فى الجو بقية من الضباب، وعندما دخل بنا الحصان داخل أسوار الدير سألت أول شخص رأيته عن القسيس، فأجابنى الراهب الذى سألته وهو يشير إلى بيت صغير له مدخل وعريشة.

ـ ها هى ذى صومعته.

ـ أنى شاكر لك جدًّا.

ثم بدأت أتساءل ماذا يقول الرهبان عنى فإنى رأيتهم خارجين من الكنيسة وهم ينظرون جميعًا نحوى فى استغراب، وكنت وسطًا بين الطفولة والشباب ووجهى غير مغسول وشعرى غير مرجل وثيابى غير منسقة والطين يلطخ حذائى، فلا بد أنهم كانوا يحاولون تحديد

صفتى وطبقتى بين الناس، فإن نظراتهم نحوى كانت حادة، ولكنى لم أكترث وسرت فى الاتجاه الذى دلنى عليه الراهب الشاب.

وقابلنى فى الممر الضيق المؤدى إلى الصومعة رجل مسن فى ثوب أسود ذو لحية بيضاء كثة وسألنى ماذا أريد، فراودتنى نفسى لحظة أن أقول له:

ـ لا شىء!

ثم أجرى عائدًا إلى الزحافة فأستقلها إلى البيت، لولا أن سحنة الرجل كانت توحى بالثقة والطمأنينة رغم قطوب ما بين حاجبيه، فأخبرته أنى أريد أن أقابل الكاهن، وذكرت له اسمه، فقال لى وقد أدرك فيما يلوح القصد من زيارتى هذه:

ـ تعال معى أيها السيد الصغير وسأريك الطريق، فالأب يحضر صلاة الصباح الآن وسيأتى بعد قليل.

ثم فتح الباب وأدخلنى إلى ردهة نظيفة يغطى أرضها بساط من الكتان وتؤدى إلى الصومعة، ورمقنى بنظرة حانية مطمئنة وقال لى قبل أن يخرج:

ـ انتظره هنا من فضلك.

وكانت الحجرة التى وجدت نفسى فيها صغيرة جدًّا ولكنها منسقة تنسيقًا غاية فى الأناقة، وكان كل الأثاث الموجود هنا: منضدة صغيرة عليها غطاء من المشمع وفوقها زهريتان، وعلى حافة النافذة آنيتان بهما زهور الجيرانيوم، أما الحائط فكانت تزينه أيقونة يهتز أمامها

قنديد مشتعل، وكان هناك كرسى كبير واحد مريح ومقعدان عاديان، وفى الركن ساعة زينت ميناؤها بأزهار ملونة، وهناك ساتر من القماش من ورائه فيما أظن فراش القسيس.

وكانت النافذة تطل على حائط أبيض يبعد مسافة قليلة عنها، وفى المسافة بينهما شجرة زنبق صغيرة، وكان السكون تامًا فلا تخدش الأذن همسة، ولذا كانت دقات الساعة تبدو عالية ضخمة.

وفى هذا السكون نسيت جميع خواطرى وأفكارى، ووجدتنى أنعم بهدوء نفسى غريب واسترسل فى أحلام لطيفة، وكانت الألوان الهادئة من حولى توحى إلى بحديث هامس عن حياة جديدة لم أعرفها من قبل، حياة الوحدة والصلاة والسكون وسكينة النفس والسعادة، قلت لنفسى:

ـ أن الشهور تمر والأعوام تمر وهو بمفرده هنا، هادئ على الدوام وسريرته فى جميع الأوقات نقية الصفحة طاهرة تحت أنظار الرب، تصعد إليه سبحانه صلواته الخالصة.

وظللت زهاء نصف ساعة جالسًا فى ذلك المقعد لا أتحرك، بل وأجتهد ألا أتنفس بصوت مرتفع حتى لا أكدر صفاء ذلك الصمت الذى كان يصب فى سريرتى حديثه الساحر المتصل، والساعة تتوالى دقاتها المنتظمة بغير وناء.

* * *

ونبهنى وقع أقدام القسيس من سبحاتى، وبادرنى قائلًا وهو يسوى شعره الأشيب بيده:

ـ مرحبًا بك، ماذا أستطيع لك؟

فطلبت منه أن يمنحنى بركته وقبلت يده القصيرة والصفراء باغتباط، ولما شرحت له ملتمسى لم يجب بشىء، بل وقف بجوار الأيقونة وشرع يصغى لاعترافى، حتى إذا تغلبت على حيائى وأخبرته بكل ما فى سريرتى وضع يده فوق رأسى وباركنى مستنزلًا نعمة السلام على نفسى سائلًا لى الثبات فى إيمانى، فشعرت بسعادة كاملة حتى أن الدموع ـ دموع الغبطة ـ داعبت حلقى، وقبلت أهداب ثوبه ورفعت رأسى إلى وجه الراهب العجوز فوجدته هادئ الأسارير.

وخشيت أن مكثت أكثر من ذلك أن تفتر نشوتى العاطفية فاستأذنت من القسيس على عجل ثم خرجت لا ألوى على شىء فجلست فى الزحافة التى انطلقت بى صوت البيت، بيد أن اهتزازاتها وتعاقب المناظر المختلفة من حولى وأصوات السابلة والباعة بددت ذلك الشعور الجميل، وإذا بى أعود إلى التفكير المبنى على الخيلاء، فأتصور القسيس مستغرقًا الآن فى الإعجاب بصفاء نفسى معتقدًا أنه لم ير ولن يرى فتى بهذا السمو من قبل ومن بعد!

وقر فى نفسى هذا الاعتقاد فاستولى على السرور وفاض من جوانحى بحيث كان يجب أن أفضى به إلى أحد، ولما لم يكن تحت يدى الساعة إلا الحوذى العجوز قلت له:

ـ هل ترانى مكثت طويلًا هناك؟

ـ ليس كثيرًا، ولكن كان يجب أن أطعم الحصان منذ مدة.

ـ لقد خيل إلىَّ أنى لم أمكث سوى دقيقة، أتدرى لماذا ذهبت إلى الدير فى هذه الساعة المبكرة؟

ـ ليس هذا من شأنى، فأنا أحمل الناس إلى حيث يأمروننى.

ـ ولكن ألا تستطيع التخمين؟

ـ ربما كان أحدهم مات فذهبت مبكرًا لتشترى له لحدًا يقبر فيه.

ـ كلا يا صاح! أتدرى لماذا ذهبت؟

ـ وكيف أدرى؟

وبدا لى صوته رقيقًا فقررت أن أقص عليه سبب رحلتى، بل والمشاعر التى أحسست بها، وأنى لأشعر بالخجل الآن لجميع التفاصيل التى رويتها له، وبعد أن فرغت ظل صامتًا مدة طويلة فخيل إلىَّ أنه يفكر فىَّ ـ كما فكر فى القسيس ـ بمزيد من الإعجاب حتى أننى فى نظره اسمى شاب فى العلم. بيد أنه التفت نحوى فجأة، وقال لى:

ـ أنتم دائمًا هكذا أيها السادة.

ـ ماذا تقول؟

ـ هذا دأب الأسياد من طرازك دائمًا.

فقلت فى نفسى أنه لم يستطع أن يفهمنى، وقررت ألا أحدثه بكلمة واحدة إلى أن بلغت الدار.

ومع أن شعور الاغتباط والخشوع لم يعمر فى نفسى طويلًا،

إلا أن ارتياحى لحصول تلك التجربة لى ظل عالقًا بوجدانى رغم ضجة الناس من حولى، حتى إذا وقفت الزحافة أمام البيت تلاشت جميع إحساساتى لأمر مهم، هو أننى لم أكن أملك الأربعين كوبكًا أجر الحوذى.

ورفض الساقى أن يقرضنى لكثرة ما علىَّ من الديون له، ولمح الحوذى ارتباكى فخمن السبب ونزل من الزحافة وتلاشت رقة سحنته وصوته اللتين تخيلتهما، وأخذ يصيح بصوت مرتفع عدائى مندِّدًا بالمحتالين الذين لا يملكون أجر ركوبهم!

وكان جميع من فى البيت ما زالوا نيامًا ما عدا الخدم، وأخيرًا رضخ الساقى أمام وعودى وأيمانى التى لا يثق بها وأعطانى المبلغ إكرامًا لخدماتى السابقة لأنى أنا الذى توسطت له عند أبى كى يزوجه وصيفتنا ماشا.

وصعدت إلى حجرتى فبدلت ثيابى بعد أن استحممت كى أذهب إلى الكنيسة لتناول الأسرار المقدسة، وعندما حلت لحظة التناول كان ذهنى فى حالة اضطراب وارتياب فى قيمة جميع دوافعى السامية.

الفصل الثانى

الامتحان

فى يوم الجمعة التالى لعيد الفصح سافر الجميع إلى الريف فلم يبق فى المنزل سواى وفولوديا وسان جيروم، وكانت الحالة النفسية التى استولت علىَّ فى يوم الاعتراف ويوم توجهى إلى الدير فى بكرة الصباح قد اختفت تمامًا وتركت وراءها ذكرى لطيفة سرعان ما طغت عليها إحساسات حياتى الطليقة بعد سفر الكبار والرقباء، واختفى الكتاب الذى أعددته بعنوان قواعد الحياة تحت أكداس الكراسات المهملة والمسودات.

ولم يكن ذلك لبطلان اعتقادى فى جدوى تلك القواعد الدائمة، بل لأنى نسيت فيما يلوح أن هذه القواعد ينبغى أن تطبق على الفور، فكنت أؤجل باستمرار بداية وضعها موضع التنفيذ إلى أجل غير مسمى...

وكان إحساسى بالحرية، والشعور الذى أثاره الربيع بتوقع حدوث شىء، قد أثارا وجدانى بحيث أصبحت عاجزًا فعلًا عن السيطرة على نفسى، فساء استعدادى للامتحان سوءًا شديدًا، وكثيرًا ما كنت أجلس فى حجرة الدرس فى الصباح مقدرًا ضرورة الانصراف للعمل لأن

يوم غد سأؤدى فيه امتحانًا فى مادة معينة، وهناك بابان فى هذه المادة لم أطالعهما إطلاقًا، وإذا برائحة الربيع تهب علىَّ من النافذة، فتتهاوى يداى من تلقاء نفسيهما، وتتحرك قدماى من تلقاء نفسيهما، وأظل أتمشى جيئة وذهابًا وقد خف دماغى وشاع السرور فى جوانحى وأخذت الخواطر المشرقة تفد على ذهنى بسرعة خارقة بحيث لا أدرك منها غير ما تتميز به من صفة الإشراق، وتمر على هذه الحالة الساعة والساعتان من غير أن أحس بمرورهما.

وقد أكون جالسًا فى المساء وحدى إلى ضوء شمعة فى حجرتى، وأتململ لأستريح فى جلستى فأتنبه إلى الظلام السائد والسكون المطبق، ويستغرقنى هذا الإحساس مدة طويلة فلا أستطيع العودة إلى كتابى المفتوح.

والحق أنه لولا الأساتذة الذين استمروا فى الحضور لتعليمى، ولولا سان جيروم الذى كان يستحث فى الشعور بالكرامة بين الحين والحين، ولولا رغبتى فى إظهار قيمتى أمام ناظرى صديقى نخليودوف بالتفوق فى الامتحان الذى كان يعتبره ذا أهمية بالغة، لكان الربيع والحرية كافيين كى أنسى كل ما عرفته من قبل، ولما استطعت تأدية الامتحان بأية صورة من الصور.

* * *

وفى يوم السادس عشر من أبريل دخلت قاعة الجامعة الكبرى لأول مرة تحت رعاية سان جيروم، وكانت جميع ملابسى الخارجية والداخلية جديدة ومن أحسن الأنواع، ولما خلعت معطفى الجديد

بدأت أخجل من أناقتى البراقة لولا أن الزحام فى القاعة وأرانى عن الأنظار.

ورأيت الأساتذة الأجلاء فى أقصى القاعة يتجولون بين مقاعد الطلبة، وانتقيت مقعدًا فى الطرف الآخر للقاعة جلس فيه طالب قبيح الشكل جدًّا مشعث الثياب أشيب الشعر فجلست بجواره حتى يبدو منظرى متميزًا بقدر الإمكان، وأخذت أرقب المتقدمين للامتحان وأكُون لنفسى فكرة عنهم، وما كان أكثر الوجوه وأشد تباينها هناك، ولكنها على اختلافها يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى تضم من على شاكلتى ممن حضروا لتأدية الامتحان مع مؤدبيهم الخصوصيين أو آبائهم، وجميعهم في ثياب معتنى بها، لا يقلبون فى الكتب والكراسات باضطراب، بل ينظرون إلى مقاعد الأساتذة فى حياء ظاهر.

والفئة الثانية من المتقدمين للامتحان، شبان أكبر سنًا من طلاب المدارس العامة، وكلم حليقو الذقون، يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع ويتبادلون الأسئلة والاختبارات ويرجعون إلى الكتب والكراسات أو يأكلون الشطائر التى أحضروها معهم.

والفئة الثالثة والأخيرة قليلة العدد جدًّا، وهى فئة المتقدمين فى السن، ولا تدل ثيابهم على يسر الحال، وسحنتهم لا تدل على التفاؤل، بل تراهم يجلسون منعزلين مقطبين، وكان من هذه الفئة ذلك الشخص الذى جلست بجواره، فقد انكب على كتاب يطالع فيه وهو يتخلل شعره الأشيب بأصابعه، ولم يرمقنى إلا بنظرة واحدة لم تكن

تنبئ عن مودة، وجعل مرفقه بينى وبينه حتى لا اقترب منه، وعوضنى عن هذا الإعراض إقبال طلاب الفئة الثانية إقبالًا أشبه بالتهجم، فقد دفع أحدهم فى يدى بكتاب صائحًا بغير تكليف:

ـ أعط هذا الكتاب لذلك الفتى الجالس هناك.

وجلس آخر فوق قمطرى واتكأ على كتفى كأنه المسند، فاستأت لأنى كنت أعتبر نفسى أرقى من طلبة المدارس العامة هؤلاء فلا تسوغ منهم هذه الجرأة علىَّ.

وأخيرًا بدأت تلاوة الأسماء، فكان طلاب المدارس العامة يبرزون فى إجابة النداء بجرأة ويجيبون عن الأسئلة إجابات جيدة فى الغالب ثم يعودون إلى أماكنهم فرحين، أما فئتنا ممن تلقوا تعليمًا منزليًا فكانوا يشعرون بالخجل، وإجاباتهم فيما يظهر كانت أسوأ من إجابات الفئة الأولى، أما المسنون فكانت إجابات بعضهم ممتازة حقًّا، وكانت إجابات بقيتهم سيئة جدًّا.

وعندما نودى اسم سمينوف تقدم جارى بشعره الأشيب وعينيه اللامعتين واحتك بى فى طريقه بخشونة وداس على قدمى ثم اتجه إلى مائدة الممتحنين، وكان واضحًا من وجوه الأساتذة أنه أجاب إجابة جيدة تنبئ عن ثقة، وبعد أن عاد إلى موضعه أخذ كتبه وكراساته وانصرف من غير أن ينتظر معرفة الدرجات التى حصل عليها.

ولما نودى اسمى توجهت إلى مائدة الأساتذة مع طالب نودى اسمه معى يقال له أيكونين، ولم يجب الأساتذة على تحياتنا، ونظر أحد الأساتذة الثلاثة إلى لحية أيكونين المدببة الحمراء، وشعرت

باستياء شديد لعدم ردهم التحية، ولأنهم فيما يظهر خلطوا بينى وبين طالب المدارس العامة هذا الذى بجانبى، فتناولت بطاقة امتحانى من يد أحد الأساتذة وتأهبت للإجابة عن السؤال الذى ألقاه ولكنى وجدت نظره معلقًا بأيكونين، فرحت أطالع السؤال من جديد كما هو موضح فى البطاقة ووجدتنى أعرفه جيدًا فانصرفت إلى متابعة امتحان جارى ذى اللحية الحمراء، وكان فى الواقع فتى جريئًا قرأ السؤال الذى فى بطاقته بعدم اكتراث، وفتح فمه ليتكلم، وأصغى له الأستاذ، ثم سكت الطالب قليلًا ليتذكر شيئًا وساد الصمت دقيقتين، فقال أحد الأساتذة:

ـ لست الطالب الوحيد، فهل تنوى أن تجيب أم لا؟

ولكن أيكونين لم يعره التفاتًا وظل يحملق فى البطاقة، ثم وقف وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وأجال بصره فى الأساتذة ثم أشار بيده وانصرف إلى مكانه. وتداول الأساتذة قليلًا فيما بينهم بصوت منخفض ثم التفت أحدهم إلى جهتى ودعانى للإجابة، فانطلقت أجيب بطلاقة لأن السؤال كان ينصب على تاريخ روسيا الذى أعرفه جيدًا، وبلغ من طلاقتى أننى عرضت عليهم أن أجيب على بطاقة أخرى حتى أؤكد لهم أننى لست من طراز أيكونين، ولكن الأستاذ هز رأسه وقال:

ـ هذا يكفى يا سيدى.

فقمت إلى مكانى.

* * *

وفى امتحانات المواد التالية تعرفت بزملاء كثيرين وتوثقت صلتى بأيكونين، أما سمينوف الذى كان ينوى دخول كلية الرياضيات معى فكان منطويًا جدًّا على نفسه وظل إلى نهاية الامتحان صامتًا منزويًا يعبث بأصابعه فى شعره الأشيب. وكان حقًّا تلميذًا نابهًا جاء ترتيبه فى النجاح الثانى، أما الأول فكان من طلاب المدارس العامة طويل القامة نحيلًا أسمر البشرة طويل أصابع اليدين متآكل الأظافر، يكلم كل إنسان بلا تفرقة، وأحسست أن فى سحنته جاذبية غير عادية ولاسيما فى عينيه السوداوين وحركات شفتيه.

ولما حل يوم امتحان الرياضة كنت متوجسًا من بابين فى الجبر أهملت دراستهما فجلست أطالعهما وأنا فى انتظار نداء اسمى، وإذا بفولوديا ونخليودوف يحضران لشهود الامتحان، ولما اكتشف نخليودوف الحقيقة جلس يراجع معى هذين البابين، وكان ضليعًا فى الرياضيات واضحًا فى شرحه مع الإيجاز حتى أنى إلى يومى هذا مازلت أذكره شروحه الجيدة فى ذلك اليوم.

ولم يكد يفرغ من الشرح حتى نودى اسمى، وجذبت بطاقة فإذا بالسؤال ينصب على الباب الذى لم أدرسه، ونظرت إلى بطاقة أيكونين لعلها تكون أحسن حالًا فإذا بها تنصب على الباب الآخر الذى لم أدرسه، ولكن شرح نخليودوف كان حيًا فى ذهنى فانطلقت أعيده على الأساتذة وظفرت بالدرجة النهائية.

* * *

وسار كل شىء على ما يرام إلى أن حل موعد امتحان اللغة

اللاتينية، وأنا ثالث الطلبة، يأتى ترتيبى فى الدرجات بعد سمينوف مباشرة، وكان ذلك كافيًا لإشاعة الزهو فى نفسى نظرًا لأننى أصغر منه ومن الطالب الأول بكثير.

وكان الجميع يتحدثون منذ بداية الامتحان عن قسوة أستاذ اللغة اللاتينية إلى درجة التوحش وتلذذه برسوب التلاميذ ولا سيما من درسوا فى منازلهم، وكان هذا الأستاذ لا يتكلم إلا اللاتينية أو اليونانية، بيد أن سان جيروم أخذ يشجعنى ويذكرنى أننى أترجم نصوص شيشرون، وهوراس من غير الرجوع إلى القاموس.

وكان يوم امتحان اللغة اللاتينية عبارة عن مذبحة حقيقية، لم يستطع العودة منها سالمًا سوى الطالب الأول وسمينوف، فبدأت أتوجس من كارثة تنزل بى، وإذا بى أسمع اسمى واسم أيكونين، فتوجهت إلى مائدة الأساتذة فإذا الأستاذ المرهوب جالسًا وحده.

وكان الرجل قصيرًا نحيلًا أصفر الوجه يبدو عليه الإمعان فى التفكير إلى درجة الهم، وقدم إلى أيكونين مجموعة خطب شيشرون وطلب منه أن يترجم، وأخذ أيكونين يترجم سطورًا بمساعدة الأستاذ الذى كان يسعفه حينما يتوقف، ووثقت من تفوقى على هذا الطالب الضعيف فلم أتمالك نفسى من الابتسام، وكان المفروض أن أرضى الأستاذ بتلك الابتسامة المتهكمة ولكن النتيجة كانت عكس المراد تمامًا، فالتفت الأستاذ نحوى، وقال بلغة روسية ركيكة:

ـ ما دمت تبتسم فلا شك أنك تعرف أكثر مما يعرف، أجب أنت عن هذا السؤال.

وأدركت فيما بعد أن أستاذ اللغة اللاتينية كان يعطف على أيكونين، بل أن أيكونين كان يقيم ببيته، ولكنى كنت أجهل ذلك فأجبت عن السؤال بطلاقة، وإذا بالأستاذ يشيح بوجهه ويتجه إلى أيكونين فيشرح له السؤال ثم يصرفه.

ويسجل له أمامى أربع درجات، فقلت لنفسى أنه ليس قاسيًا كما يزعمون.

وبعد انصراف أيكونين ظل الأستاذ خمس دقائق خلتها خمس ساعات يرتب أوراقه وكتبه وبطاقاته ويتمخط ثم يسترخى فى مقعده وينظر فى كل اتجاه ألا اتجاهى، بل وفتح كتابًا وتظاهر بالقراءة فيه كأنى غير موجود، فسعلت لأنبهه فقال كمن تذكر شيئًا.

ـ آه! أنت أيضًا بالطبع تريد أن تؤدى الامتحان، ترجم لنا شيئًا.

ثم قدم لى مجموعة هوراس مفتوحة على نص خيل إلىَّ أن لا أحد يقدر على ترجمته، فقلت له:

ـ أنى لم أقرأ من قبل هذا النص.

ـ وهل تريد أن تؤدى امتحانًا فيما حفظته عن ظهر قلب؟ كلا! ترجم!

وحاولت أن أدرك المعنى قدر الاستطاعة، ولكن الأستاذ ظل يهز رأسه ويتنهد أسفًا، ثم أغلق الكتاب بعصبية وألقى علىَّ سؤالًا فى قواعد النحو وغاص فى مقعده ولاذ بالصمت الخبيث، وكنت

على أهبة الإجابة فانعقد لخبث سحنته لسانى وخيل إلىَّ أن كل ما قلته خطأ، وفعلًا سمعته ينفجر بغضب:

ـ ليست هذه هى طريقة الاستعداد للتعليم العالى أيها الشاب! أن كل ما تفكر فيه هو ارتداء الزى الجامعى واختطاف أطراف من المعلومات، كلا يا سيدى يجب أن يكون استعدادك للمادة على أساس متين!

وتألمت جدًّا لأن ترتيبى سيتأخر عن الثالث، بل وخفت أن أرسب كلية، وشعرت بجرح أصاب كرامتى وبظلم جائر من هذا الرجل المغرض.

ونظر إلىَّ فوجد شفتى تختلجان غضبًا وأسى والدموع تترقرق فى مقلتى، فخيل إليه أنها دموع التوسل كى يزيد درجاتى، فقال لى:

ـ ليكن يا سيدى، سأمنحك درجة مقبول مع أنك لا تستحقها إكرامًا لصغر سنك وعلى أمل ألا تستخف بالدراسة فى الجامعة.

وكان أحد الأساتذة قد اقترب منا فسمع هذه العبارة الأخيرة فنظر إلىَّ نظرة استخفاف تمت بها شدة إحساسى بالظلم، فغامت عيناى لدرجة أننى رأيت الأستاذ الممتحن وكأنه على مسافة بعيدة، وراودتنى نفسى أن أسبه وأصارحه برأيى ولكنى لسبب ما لم أفعل، بل بالعكس انحنيت للأستاذين بطريقة آلية وفى أدب بالغ ثم غادرت المائدة مبتسمًا.

ولم أتخلص من الشعور بالظلم بسرعة، ولا سيما لأننى حرمت

المكان الثالث فى ترتيب الناجحين، فصرت أؤدى الامتحان فى بقية المواد بلا اكتراث أو اضطراب، وقررت ألا أجشم نفسى التفوق طوال دراستى الجامعية، بل أكون مثل أخى فولوديا من أوساط الطلبة.

لقد أصبح كل ما أفكر فيه هو الزى الجامعى وزحافتى الصغيرة التى سيهدينى إياها أبى وحجرتى الخاصة وتمتعى بالحرية بعد دخولى الجامعة.

* * *

الاستعداد للجامعة

وعند عودتى من الامتحان الأخير فى المعلومات الدينية فى اليوم الثامن من مايو وجدت فى البيت أحد صبيان الطرزى روزانوف، وكنت قد عرفت ذلك الطرزى المشهور وعرفت هذا الصبى لترددى على المحل أولًا، ولحضور الصبى إلى البيت من قبل لتجربة ثوبى الجديد قبل تمامه، وهو اليوم قد أحضر الثوب ملفوفًا فى الورق بعد أن رُكبت له أزرار مذهبة لامعة.

وارتديت الزى الجديد وخُيل إلىَّ أنه ممتاز، وأن كان سان جيروم يرى أنه واسع بعض الشىء فوق الظهر، ونزلت إلى الطابق الأرضى وقد أشرق وجهى بابتسامة رضى لم أستطع كتمانها ودخلت حجرة فولوديا وأنا شاعر بنظرات الخدم التى ركزت فى ثيابى من وراء الأبواب وأركان الدهليز، وتقدم الساقى فهنأنى بالثوب الجديد وبدخول الجامعة، ثم سلمنى مائة روبل هدية من أبى وأخبرنى أن الحوذى كوزما والزحافة الصغيرة والجواد البنى جميل ستكون كلها تحت تصرفى وحدى ابتداء من اليوم. وملأنى الاغتباط الشديد لهذه العلامة الأولى على بلوغى مبلغ الشبان رسميًا فلم أستطع كتمان عواطفى أمام الساقى ونفست عن

نفسى بأول كلمة خطرت ببالى وكانت ثناءً على المهر جميل وتغزلًا فى محاسنه، وعندئذ لمحت رءوس جميع الخدم تطل من وراء الأبواب محملقة فىَّ فلم أطق مغالبة شعورى الجياش وجربت مسرعًا إلى حجرة فولوديا مخترقًا البهو الكبير فى ثوبى الجديد وأزرارى اللامعة كأن ورائى من يطاردنى.

ولما دخلت حجرة فولوديا سمعت صوت دبكوف ونخليودوف اللذين حضرا خصيصًا لتهنئتى وليقترحا أن نذهب جميعًا إلى مكان ما لنتعشى ونشرب الشمبانيا احتفالًا بدخولى الجامعة. قال ديمترى نخليودوف:

ـ مع أننى لا أهتم باحتساء الشمبانيا بصفة خاصة، إلا أنى حريص على الذهاب لكى أشرب نخب بداية صداقتنا الحميمة.

وأما دبكوف فقال أنى أبدو فى الزى الجديد شبيهًا بالكولونيل، ولم يقدم لى فولوديا التهنئة بل قال بلهجة جافة للغاية أننا نستطيع الرحيل إلى الريف فى اليوم التالى ما دامت الامتحانات قد انتهت، ويبدو لى أنه رغم سروره لنجاحى كان مستاءً لأنى شببت الآن عن الطوق بصفة رسمية وأصبحت ندًا له.

أما سان جيروم الذى كان قد حضر أيضًا لتهنئتى فقال فى كبرياء واضحة:

ـ إن مهمتى الآن قد انتهت، ولست أدرى هل أديتها على ما ينبغى أم لا، إلا أنى فعلت كل ما فى وسعى وأستطيع منذ الغد أن ألتحق بعملى الجديد لدى الكونت.

ولم يسعفنى لسانى برد على كل هذه التهنئات التى وجهت لشخصى، لفرط شعورى بالسعادة، واحتلت وجهى ابتسامة عريضة بلهاء إلا أنها انتقلت كالعدوى إلى وجوه جميع من تحدثوا إلىَّ.

هأنذا أخيرًا بغير مؤدب، ولى حوذى خاص وزحافة خاصة ومهر خاص، وقد سجل اسمى بين طلاب الجامعة وثبت خنجر إلى حزامى، أنى الآن شاب، وشاب سعيد فيما أعتقد!

وقررنا أن نتعشى فى مطعم يار بعد ساعتين، ثم خرج فولوديا مع دبكوف، وانصرف ديمترى نخليودوف لقضاء بعض المهام قبل العشاء، فوجدت أمامى ساعتين أقضيهما على ما أشتهى قبل حلول موعد المأدبة، فخرجت أتجول فى جميع حجرات البيت فترة من الزمن، وأنظر إلى نفسى فى جميع مرايا البيت، مرة مزرر الثياب ومرة أخرى يدى فى جيبى ومرة ثالثة مفكوك الأزرار جميعًا، ومرة رابعة والزر الأعلى فقط هو المفكوك، ومرة خامسة والزر الأعلى فقط هو المحكم، ووجدت نفسى فى جميع هذه الأشكال والأوضاع أنيقًا.

ثم بدأت أخجل من أظهارى كل هذا السرور، فانصرفت إلى الأسطبل لألقى نظرة على مهرى جميل، والحوذى كوزما والزحافة الخاصة بى، كأنى لم أر الثلاثة من قبل، ولما فرغت من ذلك عدت إلى البيت وتجولت بين الحجرات مرة أخرى وأنا أتطلع إلى المرايا وأحصى النقود فى جيبى وقد فاض وجهى بالابتسام.

بيد أن ذلك كله لم يستغرق أكثر من ساعة ثم بدأت أشعر بالملل، أو الأسف لعدم وجود أحد كى يرانى وأنا فى أبهتى، وتشوقت الحركة

والنشاط، ولذا أمرت بتجهيز المحفة الخاصة وقررت أن أنزل إلى المدينة لأشترى بعض ما يلزمنى، وتذكرت أن فولوديا اشترى عند دخوله الجامعة طباقًا وغليونًا، وخيل إلىَّ أنه من الضرورى جدًّا أن أحذو حذوه.

وشقت بى الزحافة الطريق إلى الشوارع التجارية وقد خيل إلىَّ أن الأنظار من جميع الجوانب مركزة على أزرارى اللامعة وقبعتى وخنجرى، واقتربت الزحافة من محل لبيع الصور فاشتريت صورة بألوان الماء لوجه امرأة بعشرين روبلًا، ورأيت التاجر غير مهتم بى فأدركت أن ما اشتريته زهيد القيمة، فأردت أن أبرهن له على خطورة قدرى، فنظرت إلى مقبض قلم رصاص مصنوع من الفضة وراء الزجاج، وقد كتب عليه أن ثمنه ثمانية عشر روبلًا، فأشرت للرجل بطرف أصبعى أن يعطينى إياه ودفعت الثمن، وسألته عن أحسن محل لبيع الطباق والبيبات فقال إنه المحل المجاور، فتوجهت إلى هناك واشتريت طباقًا تركيًا وغليونًا تركيًا يسمونه الشبك مصنوعًا من خشب الورد حتى لا أتهم من أحد بتقليد فولوديا تقليدًا أعمى. ثم عدت إلى زحافتى.

ورأيت سمينوف يجتاز الشارع بخطواته السريعة وقد طأطأ رأسه فضايقنى أنه لم يفطن لوجودى، فصحت بالحوذى فى صوت مرتفع وأنا استرخى فى مقعدى:

ـ أسرع!

وسرعان ما أدركت سمينوف فقلت له:

ـ كيف حالك؟

فأجابنى وهو ماضٍ فى طريقه:

ـ تحياتى...

ـ لماذا لا أراك مرتديًا الزى الرسمى للجامعة؟

فتوقف سمينوف وضاقت عيناه قليلًا اظهارًا لعدم اكتراثه بزيى الرسمى وزحافتى وظل يحملق فىَّ برهة صامتًا واستأنف سيره فأمرت كوزما أن يوصلنى إلى حوانيت الوراقين، وبعد ذلك دخلت محلًا للفطائر، فأكلت بشراهة ما لا يقل عن ثمانى كعكات بسرعة فائقة.

ولما عدت إلى البيت شعرت بشىء من الحرقان فى معدتى ولكنى لم ألق إليه بالًا، وتشاغلت بفحص ما اشتريت، فلما وجدت الصورة قبيحة، فى نظرى، أخفيتها عن الأنظار وكذلك مقبض القلم لم يعجبنى فوضعته على المائدة وأنا أعزى نفسى بأنه مصنوع من الفضة، ولا شك فى منفعته لطالب جامعى، ولكننى استعملت أدوات التدخين على الفور.

وملأت الشبك بالطباق السلطانى ثم وضعت فوقه قطعة متقدة من الفحم وجذبت نفسًا... وكانت نكهة الطباق طيبة للغاية إلا أنها مُرة، ثم لم يلبث الدخان أن خنق أنفاسى، إلا أنى أصررت على المضى فى المحاولة، وأن أنفث الدخان فى حلقات من أنفى وفمى بأناة، فلم تلبث الحجرة أن امتلأت بسحب الدخان، وامتلأ فمى بالمرارة، وانتاب رأسى دوار.

وحاولت أن أنهض وأتطلع إلى منظرى فى المرآة وأنا أدخن بيبتى التركية، وكم كانت دهشتى حين وجدت نفسى أترنح، والحجرة تتراقص من حولى، ولم أصل إلى المرآة إلا بمشقة فإذا وجهى شديد الشحوب.

وبصعوبة استطعت أن أصل إلى الأريكة وأرتمى فوقها وخيل إلىَّ أنى على وشك الموت ففزعت فزعًا شديدًا وفكرت فى الاستغاثة كى يحضروا لى طبيبًا على وجه السرعة، بيد أن الفزع لم يعمر طويلا واكتفيت بالاستلقاء فترة مديدة وأهن الأطراف، وفى رأسى صداع موجع، ونظراتى شاخصة إلى علامة الطباق التجارية المرسومة على الصندوق، وإلى أدوات التدخين الأخرى، وأيضًا إلى فتات الفطائر التى طردتها معدتى فأغرقت البساط، وقلت لنفسى فى أسى:

ـ لا بد أنه لم يتم نموى بعد ما دمت عاجزًا عن التدخين كسائر الناس!

ولما عاد نخليودوف وجدنى فى هذه الحالة الزرية، ولكن تجرّع كوب من الماء كان كافيًا لإنعاشى فاستطعت الخروج معه وهو يقول لى:

ـ إن التدخين حماقة لا حاجة بك إلى ارتكابها وتبديد نقودك فيها، لقد آليت على نفسى ألا أدخن ماحييت، والآن أسرع فيجب أن نمر على دبكوف.

* * *

مشاغل فولوديا ودبكوف

ما أن دخل ديمترى الحجرة حتى عرفت من سحنته ومشيته ومن إشاراته التى يتميز بها عندما يكون متكدر الخاطر وأخصها أن يطرف بعينيه ويشيح برأسه إلى أحد جانبيه... عرفت أنه فى حالة ضيق صدر وسخط على نفسه.

وكنت فى المدة الأخيرة شرعت أرقب طباع صديقى، وأحكم عليها، بيد أن صداقتنا لم يلحق بها تغير من أثر تلك الملاحظات لأن الصلة التى بيننا كانت لم تزل فى باكورتها وعنفوانها بحيث إننى من أى جهة نظرت إلى ديمترى رأيت فيه صفات الكمال.

وكن فى ديمترى رجلان متميزان، كلاهما رائع فى نظرى، وأحد الرجلين كنت أحبه حبًا شديدًا، فهو مهذب طيب القلب رقيق مرح، وعندما كانت هذه الحالة تسيطر على ديمترى كانت تتأثر بها ملامحه ورنة صوته، وكأن كل حركة من حركاته تنادى على رءوس الأشهاد.

ـ أنا طيب رقيق عفيف، وسعيد برقتى وعفتى كما ترون!

أما الرجل الآخر وكنت قد بدأت أخيرًا أتبينه وأنحنى أمام عظمته، فكان بارد العاطفة صارمًا على نفسه وعلى غيره، متكبرًا متدينًا إلى

درجة التعصب ومتزمتًا فى أخلاقه... وكان ديمترى فى هذه الساعة عند دخوله الحجرة متقمصًا هذه الشخصية الأخيرة من شخصيتيه.

وبالصراحة التى كانت أساسًا لا غنى عنه وشرطًا حتميًا لعلاقاتنا قلت له ونحن فى الزحافة.

ـ يؤلمنى ويحزننى أن أراك ثقيل القلب متكدر الخاطر فى يوم من أسعد أيامى.

فسألنى:

ـ ماذا تعنى؟

ـ أنك ولا شك تشعر بضيق أو انزعاج، فلماذا لاتفضى إلىَّ بما يكدرك؟

فأجابنى بأناة وهو يشيح برأسه فى عصبية بعيدًا عنى، ووجنته تختلج.

ـ ما دمت قد وعدتك إلا أخفى عنك شيئًا، فليس لك أن ترتاب فى وفائى بذلك العهد وتتهمنى بالتكتم، وأعلم أنه من المستحيل على أى شخص أن يكون فى جميع الأحوال فى حالة نفسية واحدة لا تتغير، وبفرض أن شيئًا أزعجنى، فليس فى استطاعتى شخصيًا أن أتبين ما هو هذا الشىء.

ولم أقل له شيئًا بعدها، ولكنى قلت فى نفسى:

ـ ياله من رجل صريح شريف الخلق نبيل الطباع!

وظللنا بقية المسافة إلى دار دبكوف ملتزمين الصمت، وكان مسكن دبكوف بديعًا للغاية، أو هكذا بدا لى حينئذ، فقد كان مزدانًا بالأبسطة والصور والستائر واللوحات والمقاعد الوثيرة فى كل مكان، وقد علقت على الجدران بنادق ومسدسات وأكياس للطباق ورءوس حيوانات متوحشة، وما أن وقع نظرى على مكتبه ذاك حتى أدركت على الفور من الذى كان يقلده فولوديا فى طريقة تزيين حجرته الخاصة.

وقد وجدنا فولوديا ودبكوف يلعبان الورق، وهناك سيد ثالث لا أعرفه (ولا بد أنه كان قليل القيمة كما يدل على ذلك مسلكه المتضائل) جالسًا إلى المائدة معهما يرقب اللعب باهتمام بالغ، وكان دبكوف مرتديًا عباءة من الحرير وخفين رقيقين، أما فولوديا فكان جالسًا فى قميصه الأبيض قبالة صديقه على الأريكة، ومن منظر وجهه المحتقن ونظرته المستاءة التى حدجنا بها عندما أطللنا فى أوراقه، أدركت أنه مستغرق فى اللعب، ولما رآنى ازداد احمرار وجهه وقال لدبكوف:

ـ هيا، حان دورك فالعب.

ورأيت أنه مستاء لأنى عرفت بإقدامه على لعب الورق، ولكن نظرته كانت خالية من الخوف أو الاضطراب وكأنه يقول لى:

ـ أجل أنى ألعب الورق، وأنت لست متعجبًا لذلك إلا لأنك لم تزل صغير السن، فليس هناك ما يعاب على هذا اللعب، بل إنه ضرورى محتوم فى سننا هذه.

وقد أدركت على الفور شعوره، وفهمته.

أما دبكوف فإنه بدلًا من توزيع الورق كما هو مفروض عليه، نهض من مجلسه وصافحنا وقدم إلينا مقعدين، وغليونين للتدخين رفضناهما، وعندئذ قال دبكوف:

ـ ها هو ذا الدبلوماتى العظيم رجل اليوم! أنه وربى يشبه الكولونيل تمام الشبه!

فارتسمت على وجهى ابتسامة رضا بلهاء، ووقفت متهيبًا أمام دبكوف، تهيب فتى فى السادسة عشرة فى محضر ضابط أركان حرب فى السابعة والعشرين من عمره يقول عنه جميع رؤسائه ومن يكبرونه سنًا أنه شاب ألمعى جدًّا، يرقص ويتكلم الفرنسية بطلاقة، ومع أنه فى قرارة نفسه يحتقر حداثة سنى، إلا أنه كان يجتهد اجتهادًا واضحًا فى إخفاء تلك الحقيقة.

وعلى الرغم من احترامى الكامل له كنت دائمًا ـ الله أعلم لماذا ـ أتجنب طوال مدة تعارفنا النظر إلى عينيه لما أجد فى ذلك من مشقة وحرج، وقد لاحظت بعد ذلك أن هناك ثلاث فئات من الناس يصعب علىَّ جدًّا أن أنظر فى عيونهم، الفئة الأولى تضم من هم أسوأ منى بكثير، والفئة الثانية تضم من هم أفضل منى بكثير، والفئة الثالثة تضم من لا أستطيع مصارحتهم ببعض أمور كلانا يعرفها، ولا يجسرون هم على مفاتحتى بها.

ولست أدرى هل دبكوف أفضل منى أو أسوأ، ولكنى واثق من شىء واحد، هو أنه كثيرًا ما كان يكذب ولا يعترف مطلقًا بذلك،

وقد فطنت إلى ذلك الضعف فيه ولكنى لم أستطع التجاسر على الكلام فى ذلك.

وقال فولوديا وهو يرفع أحد كتفيه مثل والدنا.

ـ فلنلعب دورًا آخر.

فقال دبكوف:

ـ لا يستطيع الإنسان أن يفلت من هذا الشاب! سنلعب فيما بعد، أو فليكن، نلعب دورًا واحدًا، وزع أنت الورق وفيما هما يلعبان جعلت أرقب أيديهما، وكانت يد فولوديا كبيرة جميلة، وكان يبسط أبهامه بعيدًا عن سائر أصابعه المطوية وهو يمسك بأوراقه بأسلوب يشبه أسلوب أبى حتى أننى فى بعض الأحيان كان يخيل إلىَّ أن فولوديا يفعل ذلك عن قصد كى يبدو أقرب ما يمكن إلى مسلك الكبار، ولكنى عندما نظرت إلى وجهه استطعت أن أتبين أنه لم يكن يفكر فى أى شىء عدا لعبته.

أما يدا دبكوف فكانتا على العكس صغيرتين جدًّا وبدينتين وأصابعه لينة بارعة أليق ما تكون للتزين بالخواتم...

ولا بد أن فولوديا خسر الدور، لأن الشخص الثالث الذى كان يرقب اللعب وينظر فى أوراقه قال إن أخى سيئ الحظ للغاية أما دبكوف فأخرج مفكرته وسجل فيها شيئًا ثم قال لفولوديا بعد أن أطلعه على ما كتبه:

ـ مضبوط؟

فقال فولوديا وهو ينظر إلى مفكرته بشرود مصطنع:

ـ نعم، والآن هيا بنا نرقص.

وصحب فولوديا دبكوف فى محفته وأخذنى ديمترى فى فيتونه، وسألت ديمترى:

ـ ماذا كانا يلعبان؟

ـ لعبة بيكيه، وهى لعبة حمقاء، والمقامرة على كل حال كلها حماقة أيًا كان نوعها.

ـ وهل يلعبان بمبالغ كبيرة؟

ـ ليست كبيرة جدًّا، ولكنها على كل حال مقامرة سيئة فى حد ذاتها.

ـ ألا تلعب أنت القمار؟

ـ كلا، فقد آليت على نفسى ألا ألعب، أما دبكوف فلا يستطيع أن يمنع نفسه من اللعب مع أى شخص تصل يده إليه، فهو يكسب فى الغالب.

ـ ولكن هذا ليس سلوكًا شريفًا من جانبه، فقد يكون فولوديا غير كفء فى اللعب لدبكوف.

ـ أنه طبعًا سلوك غير صائب، ولكنه ليس سلوكًا بالغ السوء، قد يكون يحب لعب الورق ويحسن اللعب به، ومع ذلك فهو إنسان ممتاز.

ـ لم يخطر ببالى من قبل...

فقاطعنى ديمترى قائلًا:

ـ يجب ألا تظن به السوء، فهو فى الحقيقة شاب ممتاز جدًّا، وأنا مولع به للغاية، وسأظل مولعًا به دوامًا بالرغم من ضعفه فى بعض النواحى.

وخُيل إلىَّ لسبب ما أن حماسة ديمترى فى الدفاع عن دبكوف راجعة إلى عناده، فهو لا يريد أن يعترف بامتناعه عن محبة دبكوف واحترامه حتى لايتهمه أحد بالتذبذب فى عواطفه، فديمترى من أولئك الناس الذين يحبون أصدقاءهم مدى العمر، لا لأن أصدقاءهم يظلون على الدوام أعزاء عليهم، بل لأنهم يعتبرون التراجع عن محبة الصديق ولو لأسباب قوية أمرًا يتنافى مع الوفاء والشرف.

الاحتفال بنجاحى

كان دبكوف وفولوديا يعرفان الجميع فى مطعم يار بأسمائهم، وكان الجميع ابتداء من البواب إلى صاحب المطعم يبدون لهما احترامًا عظيمًا، وعلى الفور اقتادونا إلى مقصورة خاصة، وقدموا إلينا طعامًا فاخرًا قام بانتقائه دبكوف من القائمة الفرنسية، وأعدوا لنا قنينة من الشمبانيا المثلوجة حاولت عبثًا أن أنظر إليها فى عدم اكتراث، وكانت موضوعة فى وعاء من الفضة اللامعة.

وانقضى الطعام على أحسن حال وأسعده، مع أن دبكوف جعل على عادته الجارية يروى أغرب الحوادث التى تستعصى على التصديق، ومن بينها روى لنا كيف أن جدته قتلت بالرصاص ثلاثة من اللصوص كانوا قد هاجموها، قتلتهم برصاص طبنجة من الطراز القديم، وعندئذ أحمر وجهى وغضضت طرفى واشحت بعيدًا عنه. واستولى الفزع على فولوديا بشكل واضح عندما فتحت فمى، وكان فزعه بغير موجب لأنى لم أقل شيئًا يعاب علىَّ أو على أى إنسان فيما أذكر.

ولما قدمت الشمبانيا قام الجميع بتقديم التهنئة فشربت مع دبكوف وديمترى وبادلتهما القبلات، وصار من المسموح لى بعد ذلك أن أخاطبهما مع رفع التكليف، وأردت أن أرد التحية لأصدقائى وكنت أجهل من صاحب زجاجة الشمبانيا (وقد عرفت فيما بعد أن جميع المصروفات كانت قسمة بين ثلاثتهم) وكنت حريصًا جدًّا أن أستعمل نقودى الخاصة فى هذه المناسبة، تلك النقود التى ظللت أتحسسها فى جيبى طول الوقت، وأخيرًا أخرجت من جيبى ورقة ذات عشرة روبلات وناديت الساقى وقلت له فى همس ولكن بحيث يسمع الجميع كلماتى:

ـ من فضلك أحضر لنا نصف زجاجة شمبانيا!

فاحمر وجه فولوديا احمرارًا شديدًا وبدأ يهز كتفه هزًا عنيفًا ويرمقنى ويرمق الآخرين بفزع، حتى أيقنت أننى ارتكبت خطأ كبيرًا فاضحًا، ومع هذا أحضر الساقى الشمبانيا وشربناها بسرور عظيم.

وظلت الأمور تسير فى جو من المرح، ودبكوف يكذب بلا توقف، وفولوديا أيضًا يروى حكايات مضحكة بطريقة بارعة لم أكن أظنه يصل إلى مستواها، وجعلنا نضحك مما يرويه ضحكًا شديدًا، وألطف ما فى الأمر أن أخى كان يروى تلك النوادر بوجه جاد كل الجد مما يزيد فى قيمة الفكاهة.

ولما حاولت أنا أن أروى فكاهات على هذه الطريقة ظهر عليهم الفزع ولم يتطلعوا إلى وجهى وأنا أتكلم فماتت فكاهاتى فى مهدها، وأخذ دبكوف يسخر منى، ولكنى كنت سعيدًا جدًّا تحت

تأثير الشمبانيا التى شربتها، ومسرورًا بصحبة هؤلاء الكبار. وكنا جميعا سكارى فيما عدا ديمترى الذى ظل محتفظًا بهدوئه وجده مع أنه شرب مقدارًا مساويًا لما شربناه، فكان لاتزانه بعض التأثير الذى لطف من جموح مرحنا.

وأخيرًا قال دبكوف:

ـ والآن أسمعوا أيها السادة، يجب بعد انتهاء العشاء أن نتولى تدشين صديقنا الدبلوماتى، ما رأيكم أن نذهب جميعًا لدى العمة؟ يجب أن نوطد له مركزًا لديها.

فقال فولوديا معترضًا:

ـ أن نخليودوف لا يمكن أن يذهب إلى هناك.

ـ ياله من متزمت عفيف! أنك عفيف متزمت يا نخليودوف! تعال معنا وسترى بنفسك أن العمة سيدة فاتنة.

فقال ديمترى وقد اشتد احمرار وجهه:

ـ أنى يقينًا سوف لا أذهب، ولا يمكن أن أذهب، وأكثر من هذا أنى لن أدعه يذهب معكما إلى هناك!

فالتفت دبكوف نحوى وقال:

ـ من تعنى؟ الدبلوماتى؟ أتريد أن تذهب معنا أيها الدبلوماتى عند العمة؟ انظر إليه يا رجل كيف تدفق كيانه كله بالبشر لمجرد الإشارة إلى العمة؟

فقال ديمترى وهو ينهض من مقعده ويذرع المقصورة ذهبًا وإيابًا من غير أن ينظر نحوى:

ـ لم أقصد أننى سوف لا أدعه، بل قصدت أن أقول إنى لا أنصح له ولا أحب له أن يذهب إلى هناك، أنه لم يعد طفلًا، وأن كان راغبًا فى الذهاب إلى هناك ففى استطاعته أن يذهب بمفرده من دونكما، ولكنكما كان ينبغى أن تخجلا من نفسيكما، ولا سيما أنت يا دبكوف، فما تفعله ليس صوابًا، وأنت تريد أيضًا أن تجر الآخرين إلى فعل ما تفعل من السوء والخطأ.

فغمز دبكوف بعينه لفولوديا وقال:

ـ وما الضرر فى أن أدعوكم جميعًا إلى بيت عمتى لتناول قدح من الشاى؟ وعلى كل حال أن لم يكن هذا مستحسنًا فى نظرك، فسأذهب أنا وفولوديا، أتأتى معى يا فولوديا؟

فأوما فولوديا برأسه إيجابًا وقال:

ـ سنذهب إلى بيت عمتك ثم نعود إلى حجرتى نستأنف لعبة البيكيه.

وعندئذ اتجه ديمترى نحوى، وقال لى:

ـ وأنت؟ أتريد أن تذهب معهما أم لا؟

فأجبت وأنا أفسح لهما مكانًا فوق الأريكة ليجلسا بجوارى.

ـ كلا، سوف لا أذهب، أنا لا أريد أن أذهب إلى أى مكان، وما دمت تنصحنى ألا أذهب فسوف لا أذهب مهما كانت الأحوال.

وساد الصمت، فقلت بعد قليل:

ـ كلا، لا أستطيع أن أقول بأمانة أنى لا أريد أن أذهب معهما، ولكنى مسرور لأنى سوف لا أذهب.

فأجابنى ديمترى قائلًا:

ـ هذا أفضل، يجب أن تعيش على منوالك الخاص ولا تنقاد لأحد، فتلك هى الطريقة المثلى.

وكان هذا الخلاف ذا أثر غير منتظر، لأنه لم يكدر صفاء مرحنا، بل زاد من ذلك المرح، فظهرت على ديمترى علامات السرور لأنه تمكن من أسداء معروف، مما أرضاه عن نفسه فصفق وطلب زجاجة من الشمبانيا (وذلك أمر مناقض لمبادئه) ثم دعا شخصًا غريبًا إلى مقصورتنا وسقاه كمية كبيرة من النبيذ، وشرع يغنى بصوت مرتفع وطلب من الجميع أن ينضموا إليه فى الغناء صائحًا:

ـ أننا فى يوم احتفال، فلنعط الطرب حقه، أنى ابتهاجًا بدخوله الجامعة سأسكر للمرة الأولى فى حياتى، لا أستطيع أن أغالب نفسى!

وكان هذا المرح مناسبًا جدًّا لشخصية ديمترى لأنه كان أشبه ما يكون بأب حنون فرح بأولاده ويريد أن يدخل السرور إلى نفوسهم ويريهم مبلغ اقتداره على الطرب والسرور فى حدود الاحتشام والخلق الكريم.

ويظهر أن مرح ديمترى كان من النوع المعدى، فانتقلت العدوى إلينا جميعًا، حتى بلغ ما احتساه كُل منا أكثر من نصف زجاجة شمبانيا،

وكنت فى تلك الحالة الرائعة من الانتشاء عندما خرجت إلى قاعة المطعم العامة لأدخن سيجارة أعطانيها دبكوف، فلما نهضت من مقعدى لاحظت أن رأسى تدور قليلًا، وأن قدمى ويدى لا تكون فى حالة طبيعية إلا إذا ركزت انتباهى عليها، وإلا جنحت رجلاى إلى جانب ثم إلى الجانب الآخر ورسمت يداى فى الهواء حركات مختلفة لا ضرورة لها، فركزت انتباهى كله على أطرافى وأمرت يدى أن ترتفعا لتزررا سترتى وترجلا شعرى، فإذا مرفقاى يرتفعان إلى أعلى مما ينبغى بشكل ظاهر، ولما أمرت رجلى أن تحملانى إلى الباب فإذا بحركتهما تتراوح بين العنف الشديد والبطء الشديد وقد أصرت قدمى اليسرى على الوقوف على الكعب دون بقية القدم.

ولما رآنى فولوديا أترنح ابتسم، فابتسمت واستأنفت السير نحو الباب لأخرج إلى قاعة المطعم العامة كى أدخن.

المشاجرة

وفى القاعة العامة للمطعم جلس إلى مائدة صغيرة رجل قصير بدين فى ثياب مدنية ذو شارب أحمر منصرفًا إلى تناول طعامه، وإلى جوار جلس رجل طويل القامة أسمر اللون حليق الشارب، وكانا يتحدثان باللغة الفرنسية، وضايقتنى نظراتهما، بيد أنى صممت رغم كل شىء على إشعال سيجارتى من الشمعة الموضوعة على مائدتهما، ونظرت فيما حولى كى أتجنب نظراتهما، ثم اتجهت إلى المائدة وقربت سيجارتى من الشعلة، ولما اتقدت السيجارة تمام الاتقاد لم أتمالك نفسى من النظر إلى الرجل القصير الذى كان يأكل فوجدت عينيه الرماديتين مثبتتان علىَّ بنظرة استهجان.

وفيما أنا أستعد للابتعاد تحرك شاربه الأحمر، وقال بالفرنسية:

ـ أنا لا أحب أن يدخن الناس وأنا أتناول طعامى يا سيدى العزيز.

فغمغمت بجواب غير مفهوم، ولكن السيد ذا الشارب الأحمر استطرد يقول بحدة:

ـ كلا يا سيدى، أنا لا أحب ذلك!

ونظر إلى جليسه الحليق الشارب كأنه يدعوه إلى الإعجاب بالأسلوب الذى سيؤدبنى به ثم استطرد يقول لى:

ـ ولست أحب كذلك أن تبلغ بالناس الوقاحة يا سيدى العزيز أن ينفخوا دخان سجائرهم فى أنفى، لا أحب مثل هؤلاء الناس إطلاقًا!

فأدركت على الفور أن الرجل يوبخنى، وخيل إلىَّ لأول وهلة أنى مخطئ خطأ شديدًا جدًّا، فأسرعت أقول:

ـ لم يخطر ببالى أن ذلك سيضايقك.

فصاح الرجل:

ـ عظيم، أنت لم يخطر ببالك أنك سيئ التربية، ولكن هذا خطر ببالى!

فسألته غاضبًا، وقد شعرت أنه يتعمد إهانتى:

ـ أى حق لك فى أن تصرخ فى وجهى هكذا؟

ـ أنه حقى الكامل فى ألا أسمح لأى إنسان أن يعاملنى بوقاحة، وأنى مستعد على الدوام أن ألقن الأغرار من أمثالك مبادئ التهذيب السليم، ما اسمك يا سيدى؟ وأين تقيم؟

واستبد بى الغضب إلى الغاية، وارتجفت شفتاى وتلاحقت أنفاسى، ومع ذلك شعرت أنى مذنب على نحو ما، وربما كان سبب ذلك الشعور أنى أفرطت فى احتساء الشمبانيا، ولم أقل للرجل أية

كلمة تشتم منها رائحة الإهانة بل على العكس خرجت من شفتى الأصوات التى تدل على اسمى وعنوان مسكنى فى أروع صورة ممكنة، فأجابنى قائلًا:

ـ اسمى هو كولبيكوف، وسأحملك على أن تكون أوفر تهذيبًا فى المستقبل، وستأتيك أخبارى...

وكان هذا الحوار كله بيننا باللغة الفرنسية، ولم أزد على أن قلت له، وأنا أجتهد فى أن أجعل صوتى أثبت ما يمكن:

ـ سيسعدنى هذا جدًّا!

ثم عدت إلى مقصورتنا وفى فمى سيجارتى التى أوشكت أن تنطفئ، ولم أشر إلى ما حدث فى القاعة الخارجية لأخى أو صديقى، ولعل ذلك لأنهما كانا مشتبكين فى مناقشة حامية، ولكنى جلست بمعزل فى أحد الأركان لأفكر فى ذلك الحادث العجيب الذى وقع لى، وأخذت كلمة «التربية» ترن فى أدنى فتزيد من حدة غضبى شيئًا فشيئا، وكان سوار الخمر الذى شعشع فى رأسى قد تبخر عن آخره، وأخذت أفكر فى مسلكى، فخطر لى خاطر رهيب، وهو أنى سلكت سلوك الجبناء، وجعلت أسأل نفسى:

ـ أى حق له فى التهجم علىَّ؟ لماذا لم يقل ببساطة أنى ضايقته أو أزعجته؟ أنه هو المخطئ، ولكن لماذا أذن عندما قال لى أنى سيئ التربية لم أقل له: «أن سيئ التربية يا سيدى هو الذى يسمح لنفسه بالتهجم على الناس والإساءة إليهم» أو لماذا لم أصرخ فى وجهه بكل بساطة: «أخرس! اضبط لسانك!» أن ذلك كان حريًّا أن يبدو

رائعًا، ولكن لماذا لم أدعه إلى المبارزة؟ كلا، أنى لم أفعل شيئًا من ذلك بل ابتلعت الإهانة كما يفعل الجبان الحقير.

وأخذت ترن فى أذنى بلا توقف، وبصورة مثيرة عبارته لى:

ـ أنك سيئ التربية يا سيدى.

فقلت لنفسى:

ـ كلا، لا أستطيع أن أترك المسألة تقف عند هذا.

ونهضت وقد انعقد عزمى على العودة إلى ذلك الرجل لأقول له شيئا فظيعًا رهيبًا، أو ربما ضربته على أم رأسه بالشمعدان إذا وجدت ذلك لائقًا فى ضوء الظروف المحيطة بالمناقشة.

وأخذت أفكر فى هذه النية بسرور عظيم، ومع ذلك كم كان ذعرى شديدًا عندما دخلت القاعة العامة مرة أخرى فإذا كولبيكوف لحسن الحظ قد انصرف، ولم أجد عند المائدة إلا خادمًا ينظفها.

وأردت أن أخبر الخادم بما حدث وأثبت له بوضوح أننى لست ملومًا على الإطلاق، بيد أنى غيرت رأيى لسبب ما وعدت إلى مقصورتنا وأنا فى أشد حالات الكآبة والضيق، وفطن دبكوف إلى ذلك فسألنى:

ـ ماذا جرى لعزيزنا الدبلوماتى؟ لعله الآن يقرر مصير أوربا.

فقلت له بضيق وأنا أشيح عنه:

ـ أوه! دعنى وشأنى.

ثم أخذت أذرع الحجرة وأنا أفكر فى أن دبكوف ليس شخصًا ظريفًا على الإطلاق، فهو لا يكف عن السخرية منى فيلقبنى دائمًا بالدبلوماتى وهو لقب لا أستحسنه، وكل ما يصلح له هذا الضابط هو اقتناص نقود فولوديا فى القمار والذهاب إلى عمته الغامضة، وهذا كله ليس فيه ما يستحب، وكلامه كله أما تهكم أو أكاذيب أو ضحك على حساب شخص غائب، أنه رجل غبى وخبيث من قمة الرأس إلى أخمص القدم.

وقضيت فى هذه الأفكار نحو خمس دقائق أخذت عداوتى فيها لدبكوف تزداد، أما دبكوف نفسه فكان منصرف الذهن عنى تمامًا، مما زاد سخطى عليه حتى أننى حنقت على فولوديا وديمترى لاشتغالهما بالحديث معه.

وفجأة قال دبكوف وهو ينظر نحوى نظرة خيل إلىَّ أنها ساخرة خادعة:

ـ أتدرون ماذا يجب أن نصنع أيها الصديقان؟ يجب أن نصب شيئًا من الماء فوق رأس الدبلوماتى، فهو فى حالة سيئة!

فأجبته وأنا ابتسم ابتسامة صفراء:

ـ بل أنت الذى فى حالة سيئة!

ويظهر أن إجابتى أدهشت دبكوف، بيد أنه أشاح بوجهه عنى بلا اكتراث واستأنف حديثه مع فولوديا وديمترى.

وكان من المستطاع أن أشترك فى الحديث أو أحاول ذلك، ولكنى

شعرت أنى سوف لا أحسن الاندماج، فتراجعت إلى الركن وانزويت فيه إلى وقت انصرافنا.

وبعد أن سوى الحساب وأخذنا نرتدى معاطفنا، سمعت دبكوف يقول لديمترى بلهجة ذات مغزى:

ـ أعتقد أن الفيلسوفين سيذهبان إلى البيت للحديث فى موضوع الحب، أما نحن فيستحسن أن نذهب إلى عمتنا العزيزة، فبيتها سيكون أخف دمًا وأظرف من صداقتكما ذات الطعم اللاذع.

فانفجرت وأنا اتجه نحوه ملوحًا بيدى:

ـ كيف تجرؤ أن تتكلم بهذه الصورة عنا ساخرًا منا؟ كيف تجرؤ أن تسخر من مشاعر لا تفهمها؟ أنا لا أسمح بذلك، أمسك لسانك!

وبعد أن بلغ صوتى نهاية الارتفاع سكت فجأة وأنا لا أدرى ماذا أقول بعد ذلك، وقد لهثت أنفاسى اضطرابًا وغيظًا، وأخذ دبكوف فى أول الأمر بالمفاجأة، ثم حاول أن يبتسم ويعتبر المسألة مزاحًا، ولكنه أخيرًا أدهشنى دهشة بالغة إذ ظهر على وجهه الذعر وغض بصره وقال فى مراوغة:

ـ لم أسخر من مشاعركما على الإطلاق، وإنما هى طريقتى فى الكلام.

فصحت به:

ـ من الخير لك ألا تفعل ذلك.

وفى الوقت نفسه كنت أشعر بالخجل والأسف لحالة دبكوف الذى ارتسمت على ملامح وجهه الجميلة إمارات الأسى الحقيقى وفى صوت واحد سألنى فولوديا وديمترى:

ـ ماذا جرى لك؟ أن أحدًا لم يقصد إهانتك.

ـ بل هو قصد إهانتى!

فقال دبكوف وهو منصرف حتى لا يسمع ما يمكن أن أقوله بعد ذلك:

ـ أن شقيقك يا فولوديا لا يطاق.

ولعلنى كنت حريًا أن أجرى فى أعقابه وألقى عليه مزيدًا من الإهانات والمثالب، لولا أن الخادم الذى كان حاضرًا مشاجرتى مع كولبيكوف تقدم وأعطانى معطفى فهدأت على الفور وتصنعت من الغضب ـ فى وجود ديمترى ـ ما وجدته ضروريًا حتى لا يبدو هدوئى المفاجئ غريبًا فى نظره، وفى اليوم التالى تقابلت أنا ودبكوف فى حجرة فولوديا، ولم نشر إلى تلك المسألة، ولكن أصبح من العسير على كل منا أن ينظر فى وجه الآخر، سواء فى ذلك أنا أو دبكوف.

أما مشاجرتى مع كولبيكوف فظلت ذكراها حية فى ذاكرتى سنوات طويلة، مع أنه لم يسمعنى شيئًا من أخباره تلك الليلة أو الأيام التالية، وظللت خمس سنوات كاملة أغلى وأصرخ كلما تذكرت تلك الإهانة التى مضت من غير تعقيب أو ثأر، وكان سلوانى الوحيد كلما تذكرت ذلك الموقف الذليل هو سرورى بموقفى الحازم الحافل بالرجولة

أمام وجه دبكوف ولم أستطع أن أنظر للمسألة نظرة جديدة إلا بعد سنوات طويلة جدًّا، فبعد نموى ونضوجى صرت أذكر مشاجرتى مع كولبيكوف بتفكه، وأندم كثيرًا على التجريح المتجنى الذى نلت به من ذلك الفتى المرح الظريف دبكوف.

وعندما خلوت فى تلك الليلة بديمترى رويت له كل ما حدث بينى وبين كولبيكوف، ووصفت له ذلك الرجل وصفًا دقيقًا، فدهش دهشة بالغة وقال لى:

ـ أنى أعرف هذا الشخص، تصور! أن هذا المدعو كولبيكوف ندل معروف، غشاش فى ألعاب القمار ولكنه مشهور على الأخص بالجبن، فقد طرد من فرقته بالجيش بعد أن عرف زملاؤه أن أحدهم لطمه على وجهه فلم يبارزه وابتلع الإهانة، ترى أين استجدت له هذه البسالة؟

ونظر إلىَّ بابتسامة حانية وسألنى:

ـ أواثق أنت أنه لم يقل سوى «سيئ التربية»؟

فأجبته وقد أحمر وجهى:

ـ لم يقل سوى هذا.

فقال لى ديمترى مواسيًا:

ـ وهذا فى حد ذاته سيئ، ولكن لا بأس، ليس هناك ضرر ذو بال.

وبعد ذلك بسنوات طويلة، عندما أعدت التفكير فى المسألة

بذهن صاف ونفس هادئة، خطر ببالى أن كولبيكوف لعله انتهز هذه الفرصة ليثأر لسمعته من اللطمة المشهورة بمحضر من جليسه الأسمر الحليق الشارب.

وماذا فى ذلك؟ لقد استعملت أنا الأسلوب عينه حين ثأرت لنفسى من نعته لى بسوء التربية، فصببت حنقى وتهورى على دبكوف البرىء.

تأهبى للزيارات

وكانت أول فكرة خطرت لى عندما استيقظت فى اليوم التالى هى المغامرة التى وقعت لى مع كولبيكوف، ومرة أخرى قلت لنفسى ما كان ينبغى أن أصنع بالرجل ما صنعت، وأخذت أتمشى فى الحجرة بعصبية زائدة، ولكن دون جدوى، فلم أستطيع أن أجد للمسألة حلًا، ثم أن هذا كان آخر يوم أقضيه فى موسكو، وأوامر والدى تحتم علىَّ أن أقوم ببعض الزيارات، وكان قد أعد قائمة بتلك الزيارات بنفسه، والواقع أن اهتمام أبى بالإشراف علينا لم يكن منصبًا على نواحى التعليم أو الأخلاق مبلغ انصبابه على العلاقات الدنيوية والمجاملات الاجتماعية.

ووجدت مكتوبًا على الورقة بخط يده السريع المدبب:

«أولًا زيارة إلى الأمير إيفان أيفانتش بغير تخلف، وثانيًا زيارة إلى آل أيفين بغير تخلف، وثالثًا زيارة للأمير ميخايلو، ورابعًا زيارة للأميرة نخليودوفا والسيدة فالخينا أن أمكن، وأيضًا إلى مدير الجامعة والعميد والأساتذة».

وقد أفلح ديمترى فى إقناعى بعدم القيام بالزيارات المنصوص عليها فى البند الأخير، وبين لى أن هذه الزيارات ليست غير ضرورية فحسب بل إنها أيضًا غير لائقة، أما سائر الزيارات المشار إليها فيجب القيام بها فى ذلك النهار.

والحقيقة أن الزيارتين اللتين خصهما الوالد بكلمة بغير تخلف هما اللتان كانتا تسببان لى قلقًا وهمًا كثيرًا، فالأمير إيفان أيفانتش كان قائدًا عامًا متقدمًا فى السن واسع الثراء يعيش بمفرده، وتصور أننى أنا الطالب ذو الستة عشر ربيعًا أجد نفسى مضطرًا لمجاذبته الحديث بصفة مباشرة، أن ذلك لا يمكن أن يؤدى إلى ظهورى بمظهر أحسد عليه.

وآل أيفين كانوا أيضًا من الأثرياء، ووالدهم موظف كبير فى الحكومة المدنية بدرجة جنرال ولم يزر بيتنا إلا مرة واحدة على أيام جدتنا، أما بعد وفاة الجدة فقد أظهر لنا أصغر أبنائه أزورارًا وتظاهر بالترفع والاستعلاء علينا، أما أكبر الأبناء فقد بلغ إلى علمى أنه أتم دراسة القانون وعُين فى وظيفة بالعاصمة بطرسبرج، وأما الأوسط سيرجى الذى كانت لى به بعض المعرفة فيما مضى فيقيم أيضًا فى سان بطرسبرج، وهو ملازم ثان ضخم بدين فى حرس الياوران ويعتبر بمثابة وصيف للقيصر.

وكنت فى شبابى لا أكره الاختلاط بمن يعتبرون أنفسهم أرفع منى مقامًا فحسب، بل كان هذا الاختلاط يؤلمنى جدًّا ألمًا لا يطاق، لخوفى المستمر من وقوع إهانة لى، ويسبب توتر ملكاتى الذهنية جميعًا كى أثبت لهؤلاء الناس قيمتى واستقلالى.

ولما كنت انتويت مخالفة البند الأخير من أوامر والدى، فقد شعرت أننى يجب أن ألطف من وقع المخالفة بالتدقيق فى تنفيذ بقية الأوامر، وجعلت أذرع حجرتى وأنا أنظر إلى ثيابى المبعثرة فوق المقاعد، وإلى خنجرى وقبعتى، ثم تأهبت لارتداء تلك الثياب، وبعد قليل حضر العجوز جراب لتهنئتى ومعه إيلنكا. والأب جراب ألمانى اعتنق الجنسية الروسية، وهو رجل معسول اللسان متملق، كثيرًا ما يفرط فى الشراب وهو يحضر لدينا فى الغالب حين يحتاج إلى شىء. ومع أن والدى كان يقدم له الطعام فى مكتبة أحيانًا، إلا أنه لم يدعه البته لتناول الطعام معنا، وكان الرجل يمزج تسوله الملح بشىء من الطيبة السطحية واستغلال الألفة القديمة ببيتنا، حتى كان الجميع يعتبرون حضوره إلينا آية على تعلقه ووفائه لنا، بيد أنى كنت لسبب ما لا أحبه مطلقًا، وكلما تكلم شعرت بالخجل له.

وشعرت باستياء شديد لقدوم هذين الضيفين، ولم أبذل جهدًا يذكر لإخفاء ذلك الاستياء، وكان أيلنكا تلميذًا مثلى دخل الجامعة إلا أن ظروفه كانت تجعلنى أنظر إليه من على، وساءنى أن يصبح هذا الوضيع طالبًا مثلى، ورحبت بهما فى برود، ولم أطلب إليهما الجلوس ظنًا منى أنهما سيجلسان من تلقاء نفسيهما، وأمرت على الفور بإعداد زحافتى.

وكان أيلنكا شابًا بارعًا للغاية رقيقًا محترمًا بيد أنه ذو نزوات وتقلبات غير مفهومة، لأنها تبدو للناس بغير سبب، فهو تارة فى جو واجم باك، وفى اللحظة التالية يميل للضحك بلا مناسبة، أو

يتلمس الإحساس بالإهانة لا وهى عذر، ويبدو أنه عند قدومه كان فى الحالة الأخيرة، فلم يقل شيئًا بل جعل يرمقنى بغضب ويرمق والده بغضب كذلك، وعندما يوجه إليه أحدنا الخطاب يبتسم ابتسامة إذعان وخضوع مغتصبة كان من عادته أن يخفى تحتها مشاعره، ولا سيما الشعور بالخجل من أبيه، ذلك الشعور الذى لم تكن له يد بدفعه فى حضورنا.

وقال العجوز وهو يتعقبنى فى الحجرة وأنا أتم ارتداء ثيابى، ويقلب بين أصابعه صندوق السعوط الفضى الذى منحته المرحومة جدتى إياه، وكان تقليبه له بحركة تنم عن الاحترام والتبجيل:

ـ أننى ما أن سمعت من ابنى أنك أديت الامتحان ببراعة فائقة، وأنا أعلم أن براعتك شىء معلوم لدى الجميع، حتى أتيت على الفور لأقدم التهنئة يا ولدى العزيز، وكيف لا؟! لقد حملتك على كتفى، والله شهيد على أننى أحب آلك كما أحب أهلى، وألح أيلنكا علىَّ كى يأتى لزيارتك، لأنه يحبك كثيرًا.

وفى هذه الأثناء كان أيلنكا قد جلس صامتًا بجوار النافذة مستغرقًا فيما يظهر فى تأمل قبعتى المثلثة الأركان، وهو يغمغم لنفسه شيئًا بنبرة تدل على السخط والغضب، واستطرد العجوز فى كلامه:

ـ والآن، أردت أن أسألك أيضًا هل أدى ابنى أيلنكا الامتحان أداء مرضيًّا؟ أنه يقول لى إنه سيكون فى عين الكلية التى ستدخلها أنت، وهكذا سيتاح لك أن ترقب سلوكه وتسدى إليه النصح عند اللزوم.

فأجبت وأنا أرمق أيلنكا:

ـ لقد أبلى بلاءً حسنًا...

وشعر أيلنكا بوقع نظرتى فاحمر وجهه وتوقف عن الغمغمة ثم سأل العجوز وهو يبتسم ابتسامة تدل على الحياء وكأنه كان يخشانى، وكانت رائحة التبغ والخمر لا تنقطع عن مداعبة أنفى لأنه كان يتعقبنى عن كثب طول الوقت:

ـ وهل تسمح له أن يقضى هذا النهار معك؟

فشعرت بالحرج لأنه وضعنى فى موقف غير كريم بإزاء ابنه، وفى الوقت نفسه كان يصرف اهتمامى عن مسألة كانت غاية فى الأهمية فى نظرى وقتئذ وهى التوفيق فى ارتداء ثيابى بصورة أنيقة، فضلًا عن رائحة الكحول التى كانت تضايقنى منه، فقلت له بكل برود:

ـ أنى للأسف سوف لا أحظى بهذا السرور لأنى سأقضى اليوم كله خارج البيت.

وصاح أيلنكا باسمًا من غير أن ينظر نحوى:

ـ ولكنك كنت تنوى التوجه لزيارة شقيقتك يا أبى، وبعد ذلك ستكون لدى أعمال مهمة.

وأردت أن أخفف وقع خيبة الأمل التى سببها رفضى فبادرت أقول لهما أنى سوف لا أكون فى البيت لأنى سأتوجه لزيارة الأمير إيفان أيفانتش والأميرة كورنكوفا، وأيفين الذى يشغل منصبًا رفيعًا، ثم قد أتناول الغداء مع الأميرة نخليودوفا.

وظننت أنهما حين يعلمان مبلغ خطورة القوم الذين سأزورهم

سوف يعذراننى، ولما تأهبا للانصراف دعوت أيلنكا أن يأتى لزيارتى فى فرصة أخرى، بيد أنه ابتسم ابتسامة مغتصبة وغمغم بكلام لم أسمعه، وكان واضحًا جدًّا أن قدمه سوف لا تجتاز عتبة بيتى مرة أخرى.

وبعد انصرافهما شرعت فى أداء ما فى قائمة الزيارات، وكنت قد دعوت فولوديا فى ذلك الصباح للذهاب معى حتى لا أشعر بالوحشة والخجل وأنا بمفردى، بيد أنه رفض متعللًا بأن مظهرنا معًا فى العربة سيكون عاطفيًا مضحكًا عندما يرى الناس أخوين متحابين يركبان معًا عربة صغيرة لطيفة.

آل فالاخين

ومضيت وحدى. وأول بيت من البيوت التى سأزورها فى طريقى هو بيت آل فالاخين. ولم أكن رأيت ابنتهم سونشكا منذ ثلاث سنوات. وكنت فى ذلك العهد أحبها حبًا شديدًا. ولم تزل ذكراها تلم بخاطرى فيلمس أوتار قلبى الحنين لذلك الحب الصبيانى. وكثيرًا ما ذرفت الدموع فى تلك المناسبات حتى كان يخيل إلى أننى لم أزل أحبها. وبعد دقائق معدودات ينقشع الحنين ولا يعاودنى إلا بعد زمن طويل.

وكنت أعلم أن سونشكا رحلت إلى الخارج مع أمها وظلت هناك سنتين. وقيل أن حادثًا وقع لهما فى العربة فتشوه وجه الفتاة بجروح عنيفة من الزجاج المتطاير حتى قيل أنها فقدت ملاحتها إلى حد كبير.

وفى طريقى إلى بيت الأسرة تذكرت سونشكا كما كانت فى الأيام الخوالى وفكرت فى شكلها كما أصبح الآن. فتخيلتها وقد أمست مفرطة الطول بديعة القوام، أكسبتها الرحلة الطويلة إلى الخارج جدًّا وسمتًا وجاذبية. وأبى خيالى أن يصورها لى وقد شوهت وجهها

الندوب. بل على العكس تذكرت قصة العاشق الوفى الذى ظل مقيمًا على حب محبوبته بعد أن شوه داء الجدرى محياها. فملت إلى الاعتقاد بأنى لم أزل أحبها، حتى تكون لى مزية ذلك الوفاء النادر فى التعلق بها رغم ندوب وجهها.

والواقع أننى عندما وقفت بعربتى أمام باب آل فالاخين لم أكن عاشقًا، ولكنى كنت قد بعثت صبابتى الغابرة من مرقدها فأصبحت على أهبة الوقوع فى الحب، بل وشديد الرغبة فى ذلك. ولاسيما أن جميع صحابى من الطلاب لهم غرامياتهم الحافلة. فكيف أتخلف عن ركبهم فى هذا المضمار وأقصر عن شأوهم؟

وكان آل فالاخين يعيشون فى بيت صغير أنيق مشيد من الخشب يحيط به فناء. وفتح الباب بمجرد جذب حبل الجرس الذى كان بدعة حديثة فى موسكو يومئذ يندر وجودها فى البيوت. وكان الذى فتح الباب غلام صغير جدًّا أنيق الثياب. وأما أنه لم يفهم كلامى أو لم يشأ أن يخبرنى بوجود الأسرة فى البيت، لأنه تركنى فى الدهليز المظلم وأسرع يعدو إلى البهو وهو أشد ظلمة.

وبقيت وحدى برهة. وكان فى الدهليز باب واحد مقفل غير الباب المفتوح المفضى إلى البهو. وأدهشتنى تلك الظلمة ثم قلت لنفسى لعل هذه هى عادات من أطالوا الإقامة خارج البلاد!

وبعد فترة بلغت خمس دقائق فتح الغلام الباب وقادنى إلى حجرة جلوس أنيقة الرياش وأن لم تكن فاخرة. ولم تلبث سونشكا أن دخلت على الأثر...

وكانت سونشكا فى السابعة عشرة. فرأيتها قصيرة القامة نحيلة الجسم، وجهها مصفر لا يدل على العافية. ولم أجد فى وجهها ندوبًا ظاهرة. ولكن عينيها الكبيرتين الساحرتين وابتسامتها المشرقة الطروب كانت هى بعينها كما عرفتها واحببتها فى طفولتى. ولم أكن أتوقع أن أجدها على هذه الصورة إطلاقًا. ولذا لم أوفق فى إظهار المشاعر التى أعددتها طول الطريق فى أول وهلة.

وبسطت إلى يدها على الطريقة الإنجليزية التى كانت فى موسكو وقتئذ بدعة نادرة جدًّا مثل بدعة أجراس الأبواب. وهزت يدى بحرارة ودعتنى للجلوس بجوارها على الأريكة التى جلست فوقها. ثم قالت لى وهى تحملق فى وجهى بسرور واضح عبرت عنه لهجتها وكلماتها الصريحة.

ـ كم أنا سعيدة برؤياك يا عزيزى نقولا...

ولاحظت أن قولها يا عزيزى نقولا كان ينم عن مودة لا عن أشراف وتعال. وأدهشنى أنها كانت أبسط وأحلى وأكثر انطلاقًا على السجية فى حركاتها وأقوالها مما كانت قبل الرحلة إلى الخارج. وفطنت إلى ندبتين صغيرتين بالقرب من أنفها وعلى جبهتها. ولكن إشراق عينيها الرائعتين كان كعهدى به لم يتغير.

وقال لى:

ـ كم تغيرت يا نقولا! لقد أصبحت شابًا الآن! وكيف ترانى؟

ـ كدت لا أعرفك!

ولكنى أدركت على الفور أنى كنت سأعرفها ولا شك على كل حال. وشعرت بانطلاق نفسى كما حدث لى وأنا طفل عندما راقصتها فى الحفلة التى أقامتها جدتى. وسمعتها تسألنى وهى تهز رأسها:

ـ هل ترانى أصبحت قبيحة جدًّا إلى هذا الحد؟

فأسرعت أجيبها.

ـ بالعكس. بل كبرت قليل. ولكنك أكثر...

فقاطعتنى قائلة:

ـ لا عليك! أتذكر رقصاتنا القديمة وألعابنا. أتذكر سان جيروم؟ يالها من أيام ساحرة...

وأشرق وجهها بتلك الابتسامة العذبة التى وهبتها الطبيعة إياها. بل إن ابتسامتها الآن أعذب وأشد فتنة من الابتسامة التى أدخرتها ذاكرتى. وومضت عيناها كوميضهما فى الأيام الخوالى. فجزمت بأننى عدت إلى حبها.

وبمجرد أن قر قرارى على ذلك وتأكدت منه، زايلنى شعور الشرور وخلو البال، وكأن حجابًا من الضباب أسدل بيننا فغطى شيئًا ما عينيها وابتسامتها. واستولى على الحياء لأمر ما، وانعقد لسانى، واحمر وجهى.

أما هى فاستطردت تقول وهى تتنهد رافعة حاجبيها قليلًا:

ـ لقد تغيرت الأيام تغير بينًا. أن كل شىء يبدو الآن أسوأ مما كان. ونحن أنفسنا أصبحنا أسوأ ما كنا. ألسنا كذلك يا نقولا؟

ولم أستطع أن أجيبها وحملقت فيها صامتًا. فاستطردت وهى تنظر إلى احمرار وجهى المرتاع بشىء من الدهشة والاستطلاع:

ـ أين الآن كل من كنا نعرفهم من آل إيفين وآل كورنكوف؟ أتذكرهم؟ لقد كانت أيامًا رائعة...

ولم أستطع جوابًا أيضًا...

وأنقذنى دخول السيدة فالاخينا بصفة مؤقتة. فنهضت وانحنيت واستعدت قدرتى على الكلام. وفى الوقت نفسه اعترى سونشكا تغير غريب بمجرد دخول أمها. فإذا كل ما كان باديًا عليها من المرح والغبطة والمودة قد تلاشى فجأة. بل إن ابتسامتها نفسها تغيرت. وعلى الفور أصبحت تبدو أمام عينى كما تخيلتها، فهى فيما عدا طول القامة كانت صورة لشابة عائدة من إقامة طويلة خارج البلاد.

وخيل إلى أن هذا التغير ليس له مبرر. لأن أمها كانت تبتسم بكل رقة وظرف. وحركاتها جميعًا كانت تنبئ عن رقتها المعروفة فيها من قديم. وقد جلست الأم فى مقعد وثير كبير وأشارت أن أجلس بالقرب منها. وقالت لابنتها شيئًا باللغة الإنجليزية فغادرت سونشكا الحجرة على الفور. وأتاح لى هذا شيئًا من الراحة.

وسألتنى فالاخينا عن أقاربى وأخى وأبى. ثم حدثتنى عن أحزانها لفقد زوجها... وأخيرًا أحسست أنه لم يعد لديها ما تقوله لى فنظرت صامتة وكأنها تقول لى بلسان حالها:

ـ أن نهضت الآن يا فتى وانصرفت تكون قد أحسنت صنعًا.

ولكن شيئًا غريبًا حدث لى، وكانت سونشكا قد عادت بأشغال التطريز وجلست فى ركن الحجرة بحيث شعرت بوقع نظرتها على ظهرى. وفيما كانت فالاخينا تحدثنى عن فقد زوجها وخسارتها فيه تذكرت أننى أحب. وأن الأم ربما كانت فطنت إلى شىء من هذا، فاجتاحتنى نوبة أخرى من الخجل العاتى. حتى أصبحت عاجزًا عن تحريك أى عضو من أعضائى بصورة طبيعية.

وكنت أعلم أننى لكى أنهض وأستأذن فى الانصراف يجب أن أفكر أين أضع قدمى. وكيف أحرك رأسى وكيف أحرك يدى. وقصارى القول أنى شعرت بما شعرت به بالأمس بعد شرب الشمبانيا. إذ أحسست بعجزى عن السيطرة على سلوكى وحركات أعضاء جسمى. فلم أستطع النهوض.

ولعل فالاخينا دهشت عندما رأت احتقان وجهى وجمودى التام فى مكانى. ولكنى قررت أن الجلوس بهذه البلاهة أفضل على كل حال من النهوض بصورة سخيفة والاستئذان بحركات مضحكة!

وجلست بهذا الشكل فترة طويلة على أمل أن تخلصنى صدفة غير منتظرة من ورطتى هذه. وسنحت هذه الفرصة على شكل شاب لا يدل منظره على شىء ذى بال دخل الحجرة دخول ألاف البيت وانحنى لى بأدب. فنهضت فالاخينا واعتذرت لى بأنها يجب أن تتحدث إلى وكيل أعمالها. ونظرت إلىَّ بدهشة نظرة من تقول لى:

ـ أن كنت تنوى البقاء فى مجلسك هكذا فأنت حر... فسوف لا أطردك عنوة.

فبذلت جهدًا كبيرًا. ولكنى لم أتمكن من الانحناء كما ينبغى. وعندما سلكت طريقى إلى الباب مشيعًا بنظرات الأم والابنة ارتطمت بمقعد لم يكن فى طريقى المفروض إطلاقًا، ولكنى ارتطمت به لأنى انحرفت عن الطريق تفاديا من التعثر بالبساط الذى تحت قدمى.

وما أن خرجت إلى الهواء الطلق حتى اختفى هذا الدوار وشرعت أفكر بهدوء فى مسألة حبى لسونشكا. وسلوكها أمام أمها الذى أدهشنى كثيرًا. ولما أفضيت فيما بعد بملاحظاتى تلك إلى أبى وأبديت دهشتى من سوء العلاقات بين الابنة والأم قال:

ـ أنها فى الواقع تسىء معاملة ابنتها ببخلها. مع أنها كانت فيما مضى امرأة لطيفة للغاية. ولا أدرى ماذا غيرها هكذا. أرأيت سكرتيرها؟ ما هذه البدعة التى تجعل سيدة روسية تتخذ سكرتيرا؟

ـ نعم رأيته.

ـ أهو وسيم على الأقل؟

ـ كلا على الإطلاق!

ـ هذا شىء غير مفهوم!

وهز أبى كتفيه فى غضب وسعل فى عصبية وغادر الحجرة..

وقلت لنفسى وأنا أركب عربتى «أنى أصبحت عاشقًا مثل غيرى..».

آل كورنكوف

وكان ثانى بيت من البيوت التى أزورها فى طريقى هو بيت آل كورنكوف. وهم يقيمون فى الطابق الأول من بيت كبير. وسلم البيت فخم جدًّا ونظيف، ومفروش ببساط مثبت بقضبان من النحاس، ولكن لا تزينه الأزهار أو المرايا. وكان البهو الذى مررت فوق أرضه اللامعة البراقة كى أصل إلى حجرة الجلوس نظيفًا باردًا، وأثاثه مرتب بأناقة، وكل شىء فيه يبدو لامعًا متينًا وأن لم يكن جديدًا على الإطلاق. ولكن لا وجود للصور أو الستائر أو أية حلية من أى نوع.

وفى حجرة الجلوس وجدت بعضًا من أميرات تلك الأسرة. وكن جالسات فى احتشام وأناقة وتراخ. ولكن كان واضحًا جدًّا أنهن لا يجلسن هكذا حينما لا يكون حضور الضيوف أمرًا مرتقبًا.

وقالت لى كبراهن وهى تدنو وتجلس بالقرب منى:

ـ ستحضر والدتى فى الحال.

ثم قضت هذه الأميرة ربع ساعة تجاذبنى أطراف حديث هين.

وكانت لها فى ذلك الأسلوب من الحديث براعة فائقة، حتى أنه لم يعتوره الفتور لحظة واحدة. بيد أنه كان واضحًا غاية الوضوح أنها كانت تتعمد تسليتى. ولذا لم ترق لى!

وقد قالت لى فيما قالته إن شقيقها ستيفان الذى كن يلقبنه «أتين» ـ وكان قد دخل المدرسة الحربية ـ تخرج أخيرًا وعين ضابطًا. وعندما تحدثت عن شقيقها، ولاسيما عندما ذكرت أنه دخل فرقة الفرسان مخالفًا بذلك إرادة أمه، جعلت على محياها نظرة ارتياع. وعلى الفور وضعت الأميرات الآخريات الجالسات فى صمت مثل ذلك الارتياع على وجوههن.

وكذلك عندما تحدثت عن وفاة جدتها اتخذت سحنة تدل على الأسى الشديد، وفى الحال فعلت الأميرات الصغريات مثلما فعلت. وأيضًا عندما تذكرت هى حادثًا مضحكًا من حوادث طفولتنا مع سان جيروم، ضحكت حتى أظهرت أسنانها المصفرة، فضحكت الأميرات الصغريات وأبدين أسنانهن المصفرة!

ودخلت الأميرة كورنكوفا. وكان قد اعتراها شىء هين من النحول، بيد أنها كانت كالعهد بها ضئيلة ذات عينين قلقتين لا تستقران، ومن عادتها أن تنظر إلى شخص آخر وهى تكلمك أنت.

وتناولت الأميرة يدى فرفعت يدها إلى شفتى لأقبلها، وهو ما لم أكن أفعله لولا أنها صافحتنى، لاعتقادى أن تقبيل اليد ليس ضربة لازب. وقالت تحدثنى بطلاقتها المعهودة لى وهى تنظر فى الوقت نفسه إلى بناتها:

ـ كم أنا سعيدة أن أراك! وكم أصبحت تشبه أمك رحمة الله عليها! أليس يشبهها جدًّا يا ليزا؟

فأكدت ليزا أنى أشبه أمى جدًّا. مع أنى كنت أعرف يقينًا أنه ليس بينى وبين أمى أدنى شبه... واستطردت هى:

ـ ويا لله كم نموت! أن ابنى أتين كما تعلم هو ابن عمك الثالث، وهو الآن ضابط. هل علمت هذا؟ ولكنه لا يعجبنى من بعض الوجوه، فلديه حرية أكثر مما ينبغى، مع أنكم أيها الشبان فى حاجة شديدة إلى الرقابة الحازمة. كلا، لا تغضب من عمتك العجوز لأنها تقول لك الحق الصراح. لقد ربيت أتين تربية صارمة. وأظن أن هذا هو ما كان ينبغى أن يكون... آه! ها قد اكتشفت أخيرًا قرابتك لنا على وجه الدقة! الأمير إيفان أيفانتش خالى، وهو أيضًا عم أمك، وعلى هذا أكون أنا وأمك أولاد عمومة. هذا وجه القرابة تمامًا. والآن خبرنى: هل توجهت لزيارة خالى الأمير إيفان أيفانتش؟

ـ لم أذهب إليه بعد. ولكنى أنوى أن أزوره اليوم.

ـ ويحك! أن هذا كان ينبغى أن يكون أول ما تقوم به من زياراتك. فأنت تعلم ولا ريب أن الأمير إيفان بمثابة أبيك. وليس له أولاد. فأنت وأولادى ورثته الوحيدون. وهو غنى جدًّا. ويجب أن توقره وتجله للغاية بالنظر إلى سنه المتقدمة ومكانته فى المجتمع وثروته وغير ذلك. وأنا أعرف فيكم يا شبان الجيل الحاضر أنكم لا تقيمون وزنًا كبيرًا لأواصر القرابة ولا تحبون المتقدمين فى السن. ولكن أسمع كلام عمتك العجوز. فأنا أحبك كثيرًا. وكنت أحب أمك حبًا شديدًا،

وكذلك جدتك. وكنت أحترمها كثيرًا جدًّا جدًّا. يجب أن تذهب بغير تخلف أو إبطاء لزيارة عمك الأمير إيفان.

ـ أنى يقينًا سأذهب لزيارته بلا إبطاء.

ولما كانت الزيارة قد بلغت أقصى مداها فى نظرى، نهضت وأبديت رغبة بالإشارة تدل على الانصراف. ولكنها احتجزتنى صائحة.

ـ كلا. انتظر دقيقة. أين أبوك يا ليزا؟ ناديه هنا. فسوف يسره كثيرًا أن يراك يا عزيزى الصغير.

وبعد دقيقتين دخل علينا الأمير ميخايلو. وكان رجلًا قصيرًا بدينًا بادى الإهمال فى زيه غير حليق. وعلى غبائه مسحة من عدم الاكتراث. ولم يظهر عليه السرور لرؤياى على الإطلاق. وهو على الأقل لم يقل لى ما يفهم منه ذلك السرور. ولكن الأميرة زوجته ـ التى كان جليًا غاية الجلاء خوفه الشديد منها ـ قالت له:

ـ أن المحروس (وكان واضحا أنها نسيت اسمى) يشبه أمه كثيرًا. أليس كذلك؟

وأومأت إليه بعينيها إيماءة لابد أن الأمير أدرك مغزاها لأنه تقدم نحوى، ثم قدم لى فى استياء وعلى مضض خده غير الحليق فاضطررت لتقبيله. وعندئذ قالت له الأميرة فجأة بلهجة تدل على الغضب، هى ولا شك اللهجة التى تستخدمها غالبًا مع آل بيتها:

ـ أنك لم ترتد ثيابك بعد. مع أنك يجب أن تخرج حالًا. كأنى

بك تريد أن تجعل الناس يسيئون بك الظن مرة أخرى، فيعودوا للغضب منك.

فقال الأمير ميخايلو بسرعة.

ـ حالًا يا عزيزى حالًا!

وخرج من الحجرة. فانحنيت وخرجت أنا أيضًا.

وهكذا سمعت لأول مرة فى حياتى أنى من بين ورثة الأمير إيفان أيفانتش وكان هذا النبأ مفاجأة غير سارة لى.

آل أيفين

وكان البيت التالى فى طريقى هو بيت آل أيفين. وهو بيت كبير جدًّا جميل البنيان. وتقدمت فى شىء من التوتر والعصبى نحو المدخل. فإذا بواب واقف وفى يده عصا، فسألته:

ـ هل الأسرة فى البيت؟

ـ من الذى ترغب فى مقابلته يا سيدى؟ أن ابن الجنرال فى البيت.

ـ والجنرال نفسه؟

ـ سأرى يا سيدى أن كان فى البيت. من السيد؟

ورن جرس الباب بنفسه فظهر حاجب عند السلم. واعترانى توتر عصبى جائح حتى أننى قلت للحاجب ألا يستأذن لى على الجنرال، لأنى أريد أن أقابل ابن الجنرال أولًا. ولما ارتقيت السلم الفخم الضخم خيل إلى أننى أصبحت ضئيل الحجم جدًّا بالمعنى المادى للضآلة. وكنت قد شعرت بذلك عندما وقفت زحافتى الصغيرة عند البوابة الضخمة. فقد خيل لى أن الزحافة والسائق والحصان قد انكمش حجمها جميعًا.

وكان ابن الجنرال راقدًا مستغرقًا فى النوم فوق أريكة وأمامه كتاب مفتوح عندما دخلت عليه الحجرة. وتبعنى مؤدبه الهرفروست الذى لم يزل مقيمًا بالبيت للإشراف على تعليمه ودخل الحجرة بخطواته المنتظمة وأيقظ تلميذه.

ولم يظهر أيفين ابتهاجًا خاصًا لمرآى. ولاحظت أنه كان ينظر إلى حاجبى وهو يتكلم. ومع أنه كان مهذبًا جدًّا، إلا أنه بدا لى أنه يتكلف تسليتى بالكلام كما فعلت الأميرة بالضبط. وأنه فى حقيقة الأمر لا يشعر بأى ميل أو انجذاب نحوى وليست به حاجة إلى توطيد معرفته بى. ولعل له دائرة خاصة من الأصدقاء من غير طرازى. وقد خطر لى هذا كله لأنه كان يحملق فى حاجبى على الخصوص. وكان سلوكه نحوى شبيهًا (وأن كان الاعتراف بهذا مؤلمًا لى جدًّا) بسلوكى نحو أيلنكا. فبدأت أشعر بالضيق والاستياء وأسىء الظن بكل نظرة من نظرات أيفين. وعندما التقت عيناه بعينى فروست ترجمت نظرتهما بأنه يسأله:

ـ ولكن لماذا جاء هذا الفتى لزيارتنا؟

وبعد أن تحدثنا برهة قصيرة قال أيفين.

ـ أن والدى ووالدتى فى البيت. ألا تحب أن أصحبك لمقابلتهما؟

ـ بكل سرور.

ـ سأرتدى ثيابى على الفور أذن.

ودخل حجرة مجاورة لتبديل ثيابه مع أنه كان مرتديًا ثيابًا لائقة جدًّا

فى نظرى: بذلة جديدة وصدارًا أبيض اللون. وبعد دقائق معدودات عاد فى زيه الرسمى العسكرى، ونزل معى إلى الطابق الأسفل.

وكانت حجرات الاستقبال التى اخترقناها فسيحة للغاية ومؤثثة بأفخم الأثاث. ولفتت نظرى تماثيل المرمر والطنافس المذهبة وستائر الحرير الموصلى والمرايا الضخمة. وجلسنا فى صالون صغير من داخل قاعة.

ودخلت السيدة أيفينا من باب آخر على الفور واستقبلتنى بمودة بالغة استقبال ذوى القربى واجلستنى بجوارها وسألت باهتمام عن جميع أفراد أسرتنا. ولما ملأت منها نظرى (ولم أكن رأيتها من قبل ألا لماما) راقت لى كثيرًا، فهى طويلة القامة، تبدو على الدوام رازحة تحت أعباء يستنفد قواها.

وكانت نظرتها حزينة بيد أنها تفيض رقة وحنانًا. وكانت عيناها كبيرتين، جذابتين. وكانت حركاتها جميعًا تنم عن التعب. فتبدو فى جلستها كأنما هى منحنية إلى الأمام. وفى صوتها المتداعى ولثغتها ما يحببها إلى النفس. وأيقنت أنها لم تكن تحدثنى لتسليتى فقط. لأنها كانت تتلقى أخبار أسرتى باهتمام وشرود كأنها تتذكر أيامًا خالية كانت أسعد من هذه الأيام.

وخرج ابنها لشأن له من الحجرة. فظلت ترمقنى صامتة مدة دقيقتين. وفجأة بدأت تبكى. وكنت جالسًا أمامها فجمدت فى مكانى ولم يهدنى عقلى إلى كلمة أقولها. واستمرت هى تنتحب ولا تنظر نحوى إطلاقًا. وشعرت فى البداية بالأسف الشديد لها. ثم قلت فى نفسى:

ـ ألا ينبغى أن أسرى عنها؟ ولكن كيف؟

وشعرت بالحرج الشديد والاضطراب لأنها وضعتنى فى هذا المأزق. هل منظرى هو الذى جعلها تبكى؟ أمنظرى مثير للرثاء إلى هذا الحد؟ أم عساها تفعل هذا عمدًا لترى كيف يكون تصرفى؟ ليس من اللائق أن أنهض الآن وأستأذن فى الانصراف. فقد يكون معنى هذا أننى أفر من دموعها.

وتململت فى مقعدى كى أذكرها بوجودى فنظرت إلىَّ وحاولت أن تبتسم قائلة:

ـ ما أحمقنى! هناك أيام يبكى فيها الإنسان هكذا من غير سبب على الإطلاق.

وأخذت تفتش عن منديلها بجوارها على الأريكة. وفجأة انفجرت باكية أكثر من ذى قبل:

ـ آه يا عزيزى! ما أسخف أن أبكى هكذا! لقد كنت شديدة التعلق بوالدتك. كنا صديقتين حميمتين جدًّا و...

ووجدت منديلها فغطت به وجهها وأنشأت تبكى. وأصبح موقفى حرجًا مرة أخرى. واستمر الحال هكذا فترة من الزمن وأنا نهب للإشفاق عليها. فإن دموعها بدت لى صادقة. وخيل إلىَّ أنها لا تبكى بالأكثر لذكرى أمى بل لشقاء عيشها. ولأنها عرفت أيامًا أسعد من أيامها الراهنة فيما مضى.

ولا أدرى كيف كان سينتهى الموقف لو لم يدخل أيفين الصغير

ليقول لها أن أباه أيفين الكبير يسأل عنها. فنهضت وهمت بالخروج وإذا بنفسه يدخل الحجرة. وكان قصيرًا بدينًا أشيب الشعر ذا حاجبين كثين سوداوين، وشعر رأسه الأبيض الخالص البياض حليق مما أضفى عليه صرامة شديدة.

ونهضت وانحنيت له. بيد أن أيفين الذى كانت تزين سترته الخضراء ثلاثة نجوم لم يجب على تحيتى، وأكاد أقول لم يعرنى التفاتًا، حتى شعرت على الفور أنى لست آدميًا، بل شيئًا تافهًا ليس أهلا للالتفات، من قبيل الكراسى أو النوافذ أو ما هو بهذه الدرجة من الهوان بين أصناف البشر. وقال لزوجته بالفرنسية فى حزم:

ـ أنك لم تكتبى إلى الكونتس بعد يا عزيزتى.

وردت مدام أيفينا على تحيتى بهزة من رأسها تحمل طابع الكبرياء فجأة، وهى تنظر إلى حاجبى كما كان يفعل ابنها. وانحنيت مرة أخرى لها ولزوجها. فوقعت تحيتى على وجدانه وقع فتح نافذة أو إغلاقها! بيد أن أيفين الصغير صحبنى حتى الباب وأخبرنى فى الطريق أنه سيحول إلى جامعة بطرسبرج لأن أباه عين فى وظيفة هناك. وذكر لى منصبًا خطيرًا جدًّا من مناصب الدولة.

وقلت لنفسى وأنا أجلس فى زحافتى.

ـ سواء رضى أبى أم سخط لن تطأ قدمى أرض هذا البيت مرة أخرى. فهذه البكاءة تنتحب عندما ترانى ونحن وحدنا ثم تنظر إلىَّ كأنى حشرة تافهة حين يدخل زوجها. وهذا الخنزير أيفين لا ينحنى لى... سأريه!

أما كيف سأريه، فذلك ما لم يكن لى به علم. إلا أن هذه الكلمة هى التى خطرت ببالى وقتئذ. ولما علم أبى بسخطى ألح علىَّ فى تكرار الزيارة قائلًا أن من مصلحتى توثيق معرفتى بهذا الرجل ذى الجاه. وأنه ليس من الطبيعى أن أطالب رجلًا فى مكانة أيفين أن يعير غلاما مثلى اهتمامًا خاصًا. ولكنى صممت على رأيى مدة طويلة من الزمن.

إيفان أيفانتش

وقلت للحوذى كوزما ونحن نسرع إلى بيت الأمير إيفان أيفانتش:

ـ والآن ها هى ذى آخر زيارة فى هذا الحى.

وكنت بعد الزيارات السابقة قد اكتسبت شيئًا من الثقة بنفسى بالتمرين. ولذا وجدت نفسى أقدم على زيارة الأمير الجليل بهدوء نسبى. وإذا بى فجأة أتذكر كلمات الأميرة كورنكوفا عن ثروة الأمير الابتر وأننى من أهم ورثته. وفى الوقت نفسه لمحت عند مدخل البيت عربتين كبيرتين فى الانتظار، فاستولى علىَّ الخجل مرة أخرى.

وخُيل إلىَّ أن البواب المسن الذى فتح لى الباب، والحاجب الذى خلع عنى معطفى، والسيدات الثلاث والسيدين الذين رأيتهم فى قاعة الاستقبال، بل والأمير إيفان أيفانتش نفسه على وجه الخصوص (وكان جالسًا على الأريكة فى حلة لا تحمل أى علامة من علامات الزينة أو المنصب) كانوا ينظرون جميعًا إلىَّ باعتبارى الوارث للأمير، ومن ثم كانت نظرتهم تضمر لى سوء الظن.

وقبلنى الأمير، إذا سمينا وضع شفتيه الناعمتين الجافتين الباردتين على وجنتى قبلة. وسألنى فى مودة ظاهرة عن أعمالى ومشروعات المستقبل. وضاحكنى ثم سألنى هل ما زلت أكتب أشعارًا كالتى كتبتها منذ سنوات فى عيد ميلاد جدتى. ثم دعانى للغداء على مائدته فى ذلك النهار.

ولكن أفراطه فى التلطف معى زاد من ظنى أنه يبالغ فى إكرامى كى يذود عن ذهنى التفكير فى مبلغ نفوره منى لأنى وريثه. وكان من عادته أن يرفع شفته العليا نحو أنفه بعد أن يتم عبارته كأنه يريد إدخال تلك الشفة فى منخريه. وهى عادة اكتسبها من استخدامه للأسنان الصناعية التى تملأ فمه. ولكنى وقتئذ ترجمتها بأنه يقول فى نفسه:

ـ أيها الشاب لا حاجة بى إلى أن تذكرنى بأنك وريثى. نعم أنا أعلم هذا!

وكنا فى طفولتنا ننادى الأمير إيفان أيفانتش يا جدى. أما الآن وأنا أعلم أنى وريثه فلا أستطيع أن أجرى هذه الكلمة على لسانى. وفى الوقت نفسه شعرت بالهوان لأنى أناديه «يا صاحب السعادة» كأى زائر من الزوار الغرباء. ولذا اجتهدت طوال الحديث ألا أناديه على الإطلاق!

ولكنى كنت أشد ما أكون ضيقًا بالأميرة العجوز التى كانت أيضًا من ورثة الأمير وتقيم معه فى بيته. وكنت جالسًا بجوارها على مائدة الغداء فخيل إلى أنها لم تكلمنى طول الوقت لأنها تكره منى أن أكون من ورثة الأمير مثلها. وخيل إلى أيضًا أن الأمير لا

يعير الجانب الذى جلس كلانا فيه التفاتًا، لأننا وريثاه، ولذا فنحن سواء فى نفوره منا.

وفى تلك الليلة قلت لصديقى ديمترى معلقًا على الموقف ولكى أخرج من ذهنه أية شبهة فى طمعى فى ثروة الأمير.

ـ أنك لا يمكن أن تصدق مدى استيائي وضيقى لقضاء ساعتين كاملتين فى بيت الأمير اليوم. أنه رجل ظريف جدًّا وكان مهذبًا للغاية معى. ولكنى أظنهم كانوا ينظرون إلى نظرتهم إلى الأميرة التى تعيش فى بيته وتعامله بتذلل بالغ. أنه شيخ لطيف للغاية. بل أنه رائع ودافق الحنان ورقيق فى معاملته للجميع. ولهذا فمن المؤلم حقًّا أن نرى سوء معاملته لتلك الأميرة. أن النقود تفسد بدنسها جميع العلاقات! ويخطر ببالى أنه من الأفضل توضيح موقفى للأمير بأن أخبره أنى أجله بوصفه رجلًا. ولا أفكر إطلاقًا فى ميراثه. ولذا أرجوه ألا يترك لى من ثروته أدنى نصيب. وأننى بغير ذلك الشرط لا أستطيع أن أدخل بيته أو أتردد على زيارته.

ولم يضحك ديمترى حين قلت له ذلك. بل على العكس استغرق فى التفكير. وبعد سكون دام بضع دقائق قال لى:

ـ أسمع. أنك لست على صواب فى ذلك. فأما أن لا تظن بالناس أنهم ينظرون إليك نظرتهم إلى تلك الأميرة. وأما أن تسير فى فروضك عن أفكارهم إلى نهاية الشوط، فتضرب بتلك الأفكار عرض الحائط وتتجاهلها مع علمك بسوئها وتتصرف غير ناظر إلى شيء من أفكارهم.

وكان صديقى على حق. ولم أدرك، ألا بعد ذلك بزمن طويل جدًّا، أنه من الخير إخفاء العواطف النبيلة فى سريرة الإنسان. وعلمتنى تجارب الحياة أن الأقوال النبيلة قلما تتمشى مع نبل الفعال. بدليل أننى بعد أن قلت لصديقى ديمترى بدقائق أن المال يفسد صلات الناس بعضهم ببعض، اقترضت منه على الفور خمسة وعشرين روبلًا أعطانيها فى الصباح قبل سفرى إلى الريف، لأنى اكتشفت نفاد ما معى من المال فى شراء الصور والغلايين. وظللت مدينًا له بالنقود وقتًا طويلًا حقًّا.

الفصل الثالث

صديقى ديمترى

ودار حديث بينى وبين ديمترى فى العربة ونحن فى طريقنا إلى كنتسيفو. لأنه كان قد ثنانى عن زيارة والدته الأميرة نخليودوفا فى الصباح. ثم جاء بعد الغداء ليأخذنى كى أمضى طوال بعد الظهر، وأقضى الليل فى البيت الريفى الذى تعيش فيه أسرته.

وبعد أن انفلتنا من المدينة، اختفت من تحت أنظارنا الشوارع القذرة، وتلاشت من أسماعنا ضجتها الهادرة، وتبدلنا بذلك كله المنظر الفسيح الطلق الذى تختال فيه الحقول والمروج. ولا تقطع علينا صمتها إلا أصوات العجلات على الأرض المتربة فى خفوت. فإذا بنظرتى إلى الأمور تتغير، وإذا بى ـ فى جو من حريتى الجديدة ـ استرد حواسى وصوابى من دوامة الأحداث التى أحاطت بى فى اليومين الماضيين.

وكان ديمترى لطيفًا رقيقًا لا يبدى أية حركة من حركاته العصبية فلم يطرف بعينيه ولم يعبث برباط عنقه. وقدرت له أنه نسى تمامًا حادثتى المخجلة مع كولبيكوف. ولم يكرهنى بسببها أو يزدرينى.

وأخذنا نتحدث بصورة ودية عن أمور كثيرة دقيقة ليس من عادة الأصدقاء أن يتحدثوا عنها فى جميع الأوقات. وحدثنى ديمترى عن أسرته التى لم أتعرف عليها بعد: حدثنى عن أمه وخالته وشقيقته وعن الشخصية التى يكنى عنها فولوديا ودبكوف باسم ذات الشعر الأحمر ويعتبرونها معبودة صديقى.

وكان حديثه عن أمه مزيجًا من الثناء والفتور. وكأنما أراد أن يدفع عن نفسه تهمة برود العاطفة فتحدث بحماسة عن خالته، وبحنان عن أخته ولكن فى اقتضاب شديد كأنما يخجله أن يحدثنى عنها. أما ذات الشعر الأحمر فاسمها الحقيقى ليوبوف سيرجيفنا، وهى عانس عجوز تعيش فى بيت آل نخليودوف على أساس صلة قربى بعيدة تربطها بهم، فكن حديثه لى عنها بالغًا حد الحماسة والحرارة.

واحمر وجهه احمرارًا شديدًا بيد أنه كان ينظر فى عينى بثبات وهو يقول:

ـ أجل. أنها فتاة رائعة. وأن لم تعد فى مقتبل العمر. بل لعلها عجوز. وليست جميلة على الإطلاق. ولكن ما أحمق الناس وأغباهم إذ يحبون الجمال! هذا شىء لا أستطيع أن أفهمه! أنه غباء مطلق. (وكان يتحدث وكأنه قد اكتشف حقيقة بارعة لم تظهر لأحد من قبل) أن لها روحًا ما أروعها! وقلبًا ما أروعه! ومبادئ ما أروعها! وأنى على يقين أنك لن تجد فتاة تضارعها فى أيامنا هذه. لن تجد مثيلة لها على الإطلاق!

ولست أدرى ما الذى جعل ديمترى يدرج فى المدة الأخيرة على

عادة الاعتقاد والمناداة بأن كل شيء طيب قد أصبح نادرًا فى أيامنا هذه. فهو مولع بتكرير هذه العبارة.

واستطرد ديمترى بهدوء بعد أن صب جام غضبه على من تسول لهم غباوتهم حب الجمال:

ـ ولكنى خائف. نعم خائف. أخشى أنك ستستغرق زمنًا حتى تفهمها وتتعلم كيف تعرفها على وجهها الصحيح. فهى متواضعة، بل ومنطوية. وليست مولعة بعرض محاسنها ومزاياها السامية الرائعة! أن والدتى مثلًا وهى كما سترى ذات فطنة وذكاء ثاقب، قد عرفت ليوبوف سيرجيفنا عدة سنوات. ومع ذلك لم يتسن لها ولن يتسنى لها أن تفهمها حق الفهم. ففى الليلة الماضية مثلًا كنت فى حالة نفسية سيئة كما لاحظت أنت. وسأخبرك لماذا، فأول أمس رغبت إلى ليوبوف سيرجيفنا أن أظهر معها إلى إيفان ياكوفلفتش. الذى يقال أنه مخبول ـ ولا شك أنك سمعت به ـ ولكنه فى الواقع رجل ممتاز. وليوبوف سيرجيفنا متدينة جدًّا، وتفهم أيفان ياكوفلفتش تمام الفهم. وكثيرًا ما ذهبت لزيارته، والتحدث إليه، ثم تعطيه نقودًا ليفرقها على الفقراء. وهى نقود من كسبها الخاص لأنها كما سترى امرأة رائعة. وذهبت معها إلى إيفان ياكوفلفتش وحمدت لها بمزيد من الامتنان أنها حملتنى على زيارة ذلك الرجل الممتاز. ولكن والدتى لم تستطع أن تهضم هذا أو تفهمه ورأت فيه تعلقًا بالخرافات. وهذا هو السبب فى أننى فى الليل الماضية تشاحنت مع أمى لأول مرة فى حياتى. وكانت مشاحنة حامية الوطيس جدًّا.

وهز رقبته وهو يمطها إلى الأمام كأنما يستعيد بمخيلته ما شعر به من العناد والأسف معًا وقت المشاحنة. وسألته لكى أنحيه عن هذا الخاطر الأليم.

ـ ولكن ما هى مشروعاتك بالنسبة لها؟ هل فاتحتها فى مستقبل حبك وصداقتك وكيف يجب أن تنتهى بينكما الأمور؟

فسألنى وقد احمر وجهه مرة أخرى، وقد تحول لينظر فى عينى بثبات:

ـ أتعنى هل أنوى أو أفكر فى الزواج منها؟

ـ أننا كبرنا، ولا بأس من التفكير فى المستقبل بصورة جدية. أن هذا بالضبط ما أردت أن أسالك عنه.

ـ ولم لا؟ أن هذا هو مرامى، وهو بعينه هدف كل رجل مستقيم. فالتفكير السليم يجعل كل رجل منا يفكر فى السعادة والخير ما وسعه ذلك. وأنا واثق أننى سأكون سعيدًا جدًّا معها لو أنها استجابت لرغبتى. بل سأكون عندئذ أسعد وأفضل مما لو تزوجت أجمل حسان العالم. وأنوى أن أمضى فى ذلك متى تمت لى الحياة المستقلة!

وكان الحديث قد استغرقنا فلم نلاحظ أننا وصلنا إلى كنتسيفو. وأن السماء قد تلبدت بالغيوم وهمت أن تمطر. وقرص الشمس الأحمر المتوهج قد مال عن كبد السماء إلى يميننا فوق أشجار حديقة كنتسيفو العتيقة، وقد حجبت نصف القرص الأرجوانى سحب خفيفة انطلقت منها حزم من الأشعة النارية أضفت على رءوس الأشجار

لمعانا وتوهجًا رائعين. وكان اشراق ذلك الجانب من السماء على نقيض اكفهرار الجانب الآخر منها بالسحب الداكنة.

وعلى مبعدة، من جهة اليمين، من وراء الأشجار العالية والشجيرات القصيرة، تراءت لنا سقوف البيوت الصيفية المتعددة الألوان، يعكس بعضها أرجوان الشمس الغاربة، ويعكس بعضها الآخر قتام السماء المكفهرة. وعن يسار كانت مياه البحيرة تبدو زرقاء باهرة تكتنفها مروج خضراء وتنعكس على صفحتها صور السحب المربدة. ومن وراء البحيرة تل صاعد يمتد إلى منتصف سفحه حقول مترامية داكنة الخضرة.

وكان الهواء ساكنًا يوحى بالطلاقة من غير أن نلمس لتلك الطلاقة أثرًا محسوسًا. وضوء الشمس وخضرة الشجر كانت توحى جميعًا بالطمأنينة والصفاء. فكأنما كل ورقة شجر، وكل عشبة خضراء، وكل نسمة هواء، تعيش حياتها الحرة المستقلة سعيدة فى فرديتها وأن كانت تنتمى أكمل انتماء إلى المجموعة المترامية الآفاق.

وعلى الرغم من صداقتى العظيمة لديمترى واغتباطى بصراحته معى، لم أرد أن أعرف المزيد عن مشاعره ونواياه بإزاء ليوبوف سيرجيفنا. إلا أنى فى الوقت نفسه أحسست أنه يجب أن يعرف موضوع حبى لسونشكا، لأن حبى لها تراءى لى من طبقة أعلى بكثير من حبه لصاحبته ذات الشعر الأحمر. بيد أنى لسبب ما لم أستطع أن أحمل نفسى على مكاشفته فورًا بخواطرى فى تلك اللحظة، تلك الخواطر التى دارت حول روعة الإقامة فى الريف عندما أتزوج

من سونشكا. وكيف سيكون لى أطفال صغار يحبُون على الأرض وينادوننى «بابا» «بابا». وكم سيسرنى جدًّا عندما يحضر هو وزوجته ليوبوف سيرجيفنا لزيارتنا فى ثياب السفر.

وبدلًا من هذا كله وجدت نفسى أشير نحو الشمس الجانحة إلى الغروب وأقول له:

ـ انظر يا ديمترى! ياله من منظر ساحر!

ولم يقل ديمترى شيئًا. ولعله استاء لأن جوابى على اعترافه الصريح بعواطفه الكامنة، ذلك الاعتراف الذى لعله كلفه جهدًا كبيرًا، فكان نصيبه توجيه انتابهه إلى منظر طبيعى لم يكن يعنى لديه شيئًا.

والحق أن الطبيعة كان تأثيرها على ديمترى مختلفًا جدًّا عن أسلوب تأثيرها فى نفسى. فهى تؤثر فيه لا بسحر جمالها بل بطرافتها. ولذا فهو يحب الطبيعة بعقله أكثر مما يحبها بإحساسه.

وتجاهلت انشغاله الواضح بخواطره، وعدم اكتراثه لأى أمر أحدثه عنه، وقلت له:

ـ أنى سعيد جدًّا. وأظننى حدثتك فيما مضى عن فتاة أغرمت بها وأنا طفل ثم تقطعت بيننا الأسباب حين ارتحلت إلى الخارج مع أمها. لقد رأيت هذه الفتاة اليوم...

واستطردت بحماسة بالغة.

ـ وأنا الآن متيم بها هيمان!

ولم تمنعنى أمارات عدم الاكتراث المرتسمة على وجهه من الأفضاء إليه بجميع تفاصيل حبى وجميع خططى عن المستقبل وكيف سأحتوى بين ذراعى لذاذات الدنيا كلها حين اقترن بها ومن عجب أننى ما أن وصفت له قوة عواطفى المشبوبة بدقة تامة حتى بدأت تلك العواطف تتضاءل فى وجدانى وتنكمش!

وفاجأنا المطر بعد أن عرجنا على الطريق الجانبى المؤدى إلى الفيلا. ولكنى لم أشعر به إلا حينما سقطت على أنفى ويدى نقط منه.

ثم هبطنا من العربة واجتزنا طريقًا قصيرًا ضيقًا بين الأشجار إلى مدخل البيت حيث وجدنا أربع سيدات. وكانت اثنتان منهما تطرزان. والثالثة فى يدها كتاب. أما الرابعة فأقبلت من بعيد ومعها كلب صغير. وقدمنى ديمترى على الفور إلى أمه وأخته وخالته وليوبوف سيرجيفنا. وقالت الأم، أو من حسبتها الأم.

ـ هيا نذهب إلى الشرفة لنتقى المطر. وقدمه إلينا هناك مرة أخرى بأناة حتى يتم التعارف كما ينبغى...

آل نخليودوف

ولأول وهلة جذبت انتباهى بينهن جميعًا ليوبوف سيرجيفنا التى كانت تحمل جروًا صغيرًا وحذاؤها من الصوف المغزول ملفت للنظر لا يسمع له وقع وهى تصعد السلم مسرعة، وتوقفت مرتين فى طريقها لتنظر إلى نظرة ثاقبة، ثم تقبل جروها الصغير!

ويمكن أن يقال عنها أى وصف سوى أنها جميلة، فشعرها الأحمر خفيف قصير، وقد صففته فى جانب واحد من رأسها فزاد ذلك فى المباعدة بينها وبين الجمال، وعلى شدة اجتهادى فى أرضاء صديقى لم أستطع أن أكتشف لمحة واحدة جميلة فيها، فحتى عيناها البنيتان لا تشفع طيبتهما فى صغر حجمهما وبلادة نظرتهما، ويداها ليستا كبيرتين ولا قبيحتين، بيد أنهما حمراوان خشنتان.

ولما تبعت مجموعة السيدات إلى الشرفة قالت لى كل واحدة منهن بضع كلمات قبل أن تنهمك فى عملها، ما عدا فارنكا شقيقة ديمترى التى رمقتنى فى اهتمام بعينيها الواسعتين الرماديتين، فإنها لم تتكلم بل فتحت كتابها وأخذت تقرأ فيه بصوت مرتفع والكتاب على ركبتيها وسبابتها تتابع بها السطور.

والأميرة ماريا إيفانوفنا نخليودوفا سيدة طويلة القامة مهيبة الطلعة فى نحو الأربعين، وأن كان الشيب الذى دب إلى شعرها حثيثًا يوحى بأثر من سنها الحقيقة، إلا أن وجهها الصبيح الرقيق كان خاليا من الغضون تمامًا، واشراق عينيها الرماديتين الواسعتين المتوهجتين كان يضفى عليها مسحة من الشباب أقل من سنها الحقيقية.

ولها شفتان نحيلتان جدًّا توحيان بالصرامة، وأنف مستقيم يميل إلى اليمين قليلًا، ويداها الشبيهتان بأيدى الرجال لا تزينهما الخواتم، وكانت ترتدى ثوبًا أزرق قاتمًا بسيط الطراز يناسبها ويبرز أناقتها، وكانت ذات أنفة واضحة، تجلس معتدلة وتحيك ثوبًا لها.

وأول ما دخلنا الشرفة تناولت يدى وقربتنى منها كأنها تريد أن تنظر إلىَّ عن قرب، ثم حملقت فى بنظرتها الهادئة الصريحة التى تشبه نظرة ولدها، وكانت قد عرفتنى جيدًا من روايات ديمترى عنى، ولذا دعتنى لقضاء ذلك اليوم كى تزيد معرفتها بى.

وبعد أن أعربت لى عن ترحيبها قالت:

ـ أفعل ما يحلو لك ولا تجعل بالك إلينا إطلاقًا، ونحن أيضًا سوف لا نجعل بالنا إليكما، تنزها أو أقرأ أو استمعا أو ناما، ما حلال لكما فافعلاه.

أما صوفيا إيفانوفنا فعانس عجوز إلى حد ما، لأنها أصغر قليلًا فى السن من شقيقتها الأميرة وأن كانت تبدو أسن منها كثيرًا، وكانت ذات بنية قوية توحى بالصلابة، تلك الصلابة التى لا نلفاها إلا لدى العوانس القصيرات البدينات المسنات اللواتى يرتدين المشدات!

وكأنما صعد دمها كله إلى نصفها الأعلى فهى مهددة بالانفجار أو الاختناق فى أية لحظة، وكفاها الصغيران السمينان لا يكادان يلتقيان لشدة بروز واجهتها الأمامية وضغط المشد على جانبيها!

وكان الشبه بين الشقيقتين عظيمًا بالرغم من أن ماريا أيفانوفنا سوداء الشعر، وصوفيا أيفانوفنا شقراء ذات عينين زرقاوين هادئتين، فللشقيقتين طراز واحد من السحنة والأنف والشفتين، وأن كانت شفتا صوفيا العانس أغلظ شيئًا ما من شفتى الأميرة، وتجنحان إلى اليمين عندما تبتسم، أما أختها الأميرة فينحرف فمها إلى اليسار عند الابتسام.

وكان واضحًا أن صوفيا تبذل جهدًا عظيمًا للاحتفاظ ببقية شبابها، كما يدل على ذلك هندامها وتصفيف شعرها وصبغته.

وكانت نظراتها وحركاتها معى شديدة التعالى فى البداية فضايقنى ذلك، ولكنى شعرت بارتياح عظيم نحو الأميرة، وربما كنت مخطئًا، ولعل بدانتها وشبهها من بعض الوجوه بالقيصرة كاترين العظمى هو الذى جعلنى أظن بها التعالى، ولم أستعد طمأنينتى إلا عندما ثبتت عينيها فى وجهى برهة طويلة ثم أدهشتنى بقولها:

ـ أن أصدقاء أصدقائنا أصدقاؤنا.

فتغيرت فكرتى عنها تغيرًا تامًا، ولا سيما لما رأيتها بعد هذه العبارة تزفر زفرة عميقة كأنها بذلت مجهودًا فائقًا فى الكلام، فلا شك أن بدانتها وضغط المشد على جسمها يجعلان قدرتها على الكلام محدودة جدًّا، وهذا هو سبب ظنى أنها متعالية، والواقع أن

هذه الزفرة العميقة كانت سببًا فى ضياع كل أثر للخوف منها فى نفسى، وأصبحت راضيًا عنها جدًّا، فاكتشفت فى عينيها سحرًا وفى صوتها رخامة، بل خيل إلى فى تلك الفترة من يفاعتى أن أعطافها المستديرة، لا تفتقر إلى الملاحة كل الافتقار!

أما ليوبوف سيرجيفنا، فكنت أتوقع منها أن تكون أكثر طلاقة معى مما كانت، ولكنى وجدتها تلتزم الصمت طويلا، وكأنها تفكر، وهى تنظر إلى بإمعان، ما هى اللهجة المناسبة لتستعملها فى خطابى، وبعد طول مراجعة فتحت فمها وقطعت الصمت بيننا بقولها:

ـ فى أية كلية أنت؟

ولما أجبتها نظرت إلىَّ طويلًا بإمعان مرة أخرى قبل أن يستقر رأيها على توجيه كلمة أخرى إلىَّ فيها شىء من المودة، وفطنت إلى ذلك الريب يساورها، فابتسمت كى أشجعها على الكلام بحرية وكأنى أقول لها أنى أهل لثقتها، فقالت:

ـ يقولون إن الاهتمام بالعلم أصبح قليلًا جدًّا بالجامعات فى هذه الأيام... تعالى هنا يا سوزيت!

وسوزيت هو اسم جروها الصغير!

وظلت ليوبوف سيرجيفنا طوال تلك الأمسية تتكلم بعبارات متناثرة لا آصرة بينها ولا تنم عن شىء ذى بال، بيد أنى كنت وطيد الثقة بصديقى ديمترى، الذى ظل طوال السهرة ينظر بقلق إليها تارة وإلىَّ تارة أخرى، وكأن نظرته تسألنى بإلحاح:

ـ هيه؟ ما رأيك؟

ومع ذلك لم أستطع أن أكتشف فى ليوبوف سيرجيفنا أية ميزة خاصة، إلا أننى لم أصارح بذلك حتى نفسى إكرامًا لصديقى وثقة به:

والشخص الرابع فى أسرة صديقى هو فارنكا شقيقة ديمترى، وهى فتاة أميل إلى البدانة فى السادسة عشرة من عمرها، والسمة الوحيدة الجميلة فيها هى شعرها وعيناها ويداها، فأما عيناها فواسعتان رماديتان داكنتان تمتزج فى نظرتيهما الفطنة والبهجة والحبور، وهما شبيهتان بعينى خالتها، وأما شعرها فكان غزيرًا أشقر اللون، وأما يداها فبضتان جدًّا وجميلتان.

وبعد أن أتمت فارنكا القراءة قالت لى وهى تتناول ثوبًا لتحيكه:

ـ أظنك شعرت بملل يا سيدى لأنك لم تسمع الرواية من بدايتها، أو لعلك قرأتها من قبل؟ أنها رواية بوب روى، للسير والتر سكوت؟

وكنت فى ذلك العهد أتحرى أن تكون إجاباتى متسمة بالبراعة والأصالة مهما كان السؤال بسيطًا عاديًا، أو كان السائل غريبًا عنى، وكنت أعتبر الإجابات الموجزة مثل نعم ولا تدل على غباء وبلاهة يخجلنى أن أنطق بها، ولذا نظرت قليلًا إلى بنطلونى الجديد وأزرار سترتى اللامعة، ثم قلت:

ـ أنى لم أقرأ من قبل بوب روى، ولكنى سررت جدًّا بالاستماع إلى هذه الصفحات منها، لأنى أفضل دائمًا أن أقرأ الكتب من منتصفها لا من بدايتها! ولهذا كانت لذتى مضاعفة، لأن القراءة من المنتصف

تطلق العنان للخيال فى تخمين الصورة التى كانت عليها البداية، ثم كيف تنتهى أخيرًا هذه المقدمات المجهولة إلى ختام مجهول!

وابتسمت ابتسامة الرضا عن نفسى، فأخذت الأميرة والدة ديمترى تضحك ضحكة غريبة غير طبيعية، ثم اكتشفت بعد ذلك أنها لا تضحك غير هذه الضحكة، وقالت لى:

ـ ربما كان هذا صحيحًا، وهل تنوى أن تبقى هنا طويلًا يا نقولا؟ لا يضيرك طبعًا إلا أناديك بالسيد؟ متى تنوى السفر؟

ـ لا أدرى، ربما غدًا، أو ربما بقينا فى موسكو فترة طويلة من الزمن.

قلت هذا مع أننى كنت أعلم وقتئذ علم اليقين أننا سنسافر إلى ضيعتنا فى اليوم التالى، فقالت الأميرة وهى تنظر إلى بعيد:

ـ كنت أتمنى أن تبقى مدة أطول، فإن ديمترى يحبك كثيرًا، والصداقة شىء رائع حقًّا فى عمركما هذا.

وشعرت عندئذ أن الجميع ينظرن إلىَّ فى انتظار ما أتفوه به، مع أن فارنكا كانت تتظاهر بالانشغال فى فحص تطريز خالتها، وأحسست أنهن يختبرننى، ولذا ينبغى أن أبلى بلاءً حسنًا ما وسعنى ذلك، فقلت:

ـ هذا صحيح إلى حد ما، فصداقة ديمترى نافعة لى، ولكن صداقتى لا يمكن أن تكون نافعة له من أية وجهة، فهو أفضل منى ألف مرة.

وكان ديمترى قد نهض لبعض شأنه فلم يسمع ما قلت، وإلا لخشيت أن يكتشف نفاقي!

وضحكت الأميرة ضحكتها غير الطبيعية التى كانت ضحكتها الطبيعية، وقالت:

ـ أن من يسمعك تتكلم يجزم بأنك كامل الكمال كله ثم خفضت صوتها لتقول لى همسًا:

ـ ولكن ابنى بارع فى اكتشاف المواهب الخارقة، وهذا طبعًا من غير مقارنة بك... فقد اكتشف فى خالتنا المسكينة هذه (وأومأت نحو ليوبوف سيرجيفنا) التى أعرفها هى وسوزيت منذ عشرين عامًا، مواهب كثيرة لم تخطر لى ببال.

ونظرت إلى ابنتها ثم حملقت فى الفضاء مرة أخرى وقالت:

ـ مريهم أن يأتونى بكوب ماء يا فاريا، بل اجلسى أنت واستأنفى القراءة، واذهب أنت أيها الصديق الصغير من هذا الباب، سر نحو خمس عشرة خطوة فى الدهليز وصح: «أحضر يا بيوتر كوب ماء مثلج لماريا أيفانوفنا» فليس لديك ما يشغلك!

فأدركت على الفور أنها تريد أن تتناقش مع بقية المجموعة فى أمرى ويتبادلن التعليقات وقلت فى نفسى:

ـ لابد أنها ستقول عنى أنها وجدتنى شابًا ذكيًا جدًّا، للغاية!

ولكنى لم أتم الخمس عشرة خطوة حتى لحقت بى صوفيا أيفانوفنا بخطواتها السريعة الخفيفة وقالت لى:

ـ شكرًا لك يا عزيزى، أنى ذاهبة إلى هناك بنفسى وسأخبرهم، لا تتعب نفسك!

الحب

وعلمت فيما بعد أن صوفيا أيفانوفنا من أولئك النساء المسنات اللواتى ولدن مطبوعات على حياة الأسرة، ولكن الأقدار ضنت عليهن بتلك السعادة الطبيعية، فعولن عند التحقق من ذلك الفوات على توجيه كنوز حبهن الدفينة المتضخمة النامية فى قلوبهن إلى مخلوق يصطفينه لأنفسهن، وكنز المحبة لدى العوانس اللواتى من هذا الطراز معين لا ينضب حقًّا مهما كانت المخلوقات اللواتى يصطفينها لذلك الحب كثيرة العدد، فلديهن على الدوام من الحب ما يكفى للاغداق على جميع ما حولهن، وعلى جميع ما يلقين فى حياتهن من أهل الصلاح أو أهل الفساد من الناس.

وهناك فى الواقع ثلاثة أنواع من الحب:

١ ـ حب الجمال.

٢ ـ حب التضحية.

٣ ـ الحب الفعال أو الإيجابى.

ولست أتحدث عن حب شاب لفتاة، أو عن حب فتاة لشاب، فقد كان حظى فى الحياة عاثرًا فلم ألتق فى عمرى كله مرة واحدة بشرارة صدق تضىء ذلك النوع من الحب، ولم يتكشف لى حب الفتيان للفتيات ألا عن أكذوبة أو خدعة تتغلب فيها الشهوة أو العلاقات الجسدية أو شهوة المال أو حب الاستيلاء أو الرغبة فى إطلاق اليد والاستهتار، فتطغى على شعور المحب نفسه حتى لا يستطيع أن يصل فى أمر نفسه إلى قرار، وأنما مرادى بالكلام هنا من الحب حب البشرية عامة الذى يضيق أو يتسع نطاقه على حسب قوة الروح، فينصب على مخلوق واحد أو جملة مخلوقات، أو كثرة منها، ومن هذا القبيل حب الأم وحب الأب وحب الأخ والأولاد، وحب الزميل والأصدقاء، أو يبلغ ذلك الحب مداه فيكون حبًا لبنى الوطن أجمعين، أو يربى على ذلك إلى غاية الغايات فيكون حبًا لبنى البشر كافة.

وحب الجمال أن هو ألا حب جمال الإحساس والشعور فى ذاته وفى جميع الصور المعبرة عنه، وأولئك الذين يعرفون ذلك الحب لا يكون موضوع حبهم حبيبًا إلى أنفسهم ألا بمقدار ما يستثير ذلك الإحساس اللطيف فى وجدانهم فيجدون فى التعبير عن ذلك الإحساس لذة واغتباطًا.

أن الذين يحبون المال لا يأبهون إلا قليلًا بتبادل العاطفة بينهم وبين محبوبيهم، لأن هذا التبادل ليس له أدنى أثر على جمال شعورهم بالحب ولذتهم التى يحسونها لقيام ذلك الشعور فى سرائرهم.

وهؤلاء قلما تتغير موضوعات حبهم، لأن هدفهم الأصيل أنما

هو استبقاء جذوة شعورهم اللطيف بالمحبة متقدة لا تخمد، ولكى يستبقوا هذا الشعور فى جوانحهم حيًا، لا يكفون عن الكلام حول ذلك الحب والتعبير عن عاطفتهم تلك بأجمل الألفاظ، وعندهم على السواء أن يكون حديثهم موجهًا إلى آذان المحبوب أو آذان أى إنسان ليس له أدنى اهتمام بذلك الحب.

وقد لاحظت أن الناس فى بلادنا الروسيا، ولا سيما من الطبقة العالية، يؤثرون التحدث عن حبهم، أن كانوا من عباد الجمال، باللغة الفرنسية، وذلك أمر من الأعاجيب، ولكنه يرجع فى نظرى إلى أن الكثيرين من أبناء تلك الطبقة ومن سيداتها على الخصوص يحبون أصدقاءهم وأزواجهم وبنيهم من قبيل ذلك الحب الجمالى، وأكاد أقطع بأنهن لو منعن من التكلم عن حبهن بالفرنسية لاختنقن ومتن كمدًا!

* * *

أما الطراز الثانى من الحب وهو حب التضحية فهو ينصب على تعذيب النفس فى سبيل المحبوب، بصرف النظر عن افادة المحبوب من هذه التضحية وهذا العذاب، أو ذهابهما هدرًا من غير منفعة للمحبوب.

وكأنى بشعار ذلك الحب هو:

ـ ما من شىء يعز على الأقدام عليه لأقيم الدليل على ولائى لحبيبى هذا، أو لحبيبتى تلك!

ومن يحبون على هذه الشاكلة لا يؤمنون بتبادل العاطفة بينهم وبين محبوبيهم، لأن مما يزيد فضل التضحية وجمالها أن تكون فى سبيل شخص لا يفهم شعور المضحى أو يكترث له!

وأنك لتراهم دائمًا من ذوى الأبدان العليلة، لأن اصفرار الوجه ونحول الجسد مما يشهد بشدة الوجد وقلة الجلد، وأنهم مع ذلك لمن أهل الصبر والثبات لا يحولهم عن محبوبيهم شىء مهما اشتد، بل إنهم على استعداد دائمًا للإقدام على الموت راضين كى يثبتوا للحبيب أو الحبيبة أنهم على العهد مقيمون وبجلال التضحية جديرون، لا يثنيهم ضنى ولا ترهبهم المنون!

ولكن حذار! لا تظنهم يكترثون فتيلًا بحالة المحبوب، فليس يعنيهم هل نام أم أرق، وهل جاع أم طعم، وهل ابتهج أم حزن واكتأب، فلن يفعلون شيئًا فى سبيل رفاهية المحبوب، فى الوقت الذى يعرضون فيه صدورهم للرصاص التماسًا لإقامة الدليل على حبهم!

أنهم فى المقام الأول يلتمسون الفخر بذلك الحب، وهم فى الوقت نفسه ذوو غيرة شديدة وشك لا يهدأ، والكثيرون منهم يتمنون للمحبوب المخاطر والمعاطب كى تسنح لهم الفرصة لإنقاذه معرضين أنفسهم للهلاك المحقق فى ذلك السبيل، بل إن منهم من يتمنون للمحبوب السقوط فى حمأة الرذيلة وتلويث الشرف، كى يتسنى لهم فخر إصلاحه وإقامته من عثاره!

قد تكون مقيمًا فى الريف مع زوجتك التى تحبك حب التضحية،

وقد تكون فى خير حال وعافية، مشغولًا بما تحب من الأعمال والملاهى. وقد تكون زوجتك مريضة أو ضعيفة الصحة حتى أنها لا تستطيع النهوض بإدارة البيت، فتعهد بتلك الإدارة إلى الخدم، وتعهد بالأطفال إلى المراضع، فزوجتك التى تحبك حب التضحية لا تستطيع أن تقوم بشىء من ذلك كله، ولكنها تحبك، فلا تشعرك بأوجاعها وأمراضها حتى لا تؤلمك، وهى تشعر بالسأم والملل فى هذا الريف، بيد أنها لا تعرب لك عن ذلك وتبالغ فى كتمانه عنك لأنها على استعداد أن تحتمل الملالة طول عمرها كى لا تزعجك فى معيشتك التى تستريح إليها، ومع ذلك فإن استمتاعك بحياتك فى الريف يكاد يقتلها. ولكنك متى مرضت نسيت مرضها وأوجاعها وسهرت عليك غير مكترثة لتوسلاتك أن ترحم نفسها من السهر والجهد فليس بك إلا صداع عارض أو برد طارئ لا يستحق كل هذا العناء!

ومتى تحسنت صحتك فى اليوم التالى ستجد أن طعامك الذى أمر به الطبيب لم يعد، وأن الدواء لم يجهز، فهى لا تهتم بذلك، بل كل اهتمامها فى الجلوس بجوارك لتفيض عليك الحنان من نظراتها، وإذا تحركت فعلى أطراف أصابعها، وتزفر بين الحين والحين إظهارًا لأساها وشجنها لأنك مريض! وإذا أردت أن تنهض إلى دورة المياه توسلت إليك أن تبقى حيث أنت، وإذا أردت التحدث إلى صديق زائر توسلت إليك ألا تجهد نفسك بالكلام! وإذا أردت أن تنفرد بنفسك أبت عليك الوحدة، وجلست قبالتك فى مقعد وتنهدت أسفًا وحسرة والشحوب يقطر من وجهها! وإذا

أحضر لك الطبيب ممرضة أبت عليها خدمتك ولا سيما فى أمور التمريض القذرة كالتبرز وأصرت أن تقوم على ذلك بنفسها، مع أن هذا عمل الممرضة وعليه تؤجر.

ومتى شفيت أتم الشفاء، وجدت زوجتك قد أضناها المجهود وزادت صحتها سوءًا وجعلت تكرر عليك ألف مرة أنها لا تهتم بالحياة وأنها ترحب بالموت ما دمت أنت قد شفيت! وهذا دليل على أنها تهوى العذاب فى سبيلك أكثر مما تهواك! أنها تعشق التضحية أكثر مما تعشقك، فهى لا تحبك إلا لأنك موضوع لتضحيتها!

* * *

وأما النمط الثالث من الحب وهو الحب الفعال أو الإيجابى فيقوم على الرغبة فى إرضاء المحبوب بجميع الوسائل، وتحقيق رغباته ونزواته، بل ورذائله وشهواته!

ومن يحبون على هذا المنوال يدوم حبهم مدى الحياة، لأنهم على طول الزمن يشعرون بمتعة وراحة لتحقيق رغبات المحبوب أو المحبوبة، وقلما يعرب هؤلاء المحبون عن حبهم بالألفاظ، وأن فعلوا فلا تلمس فى تعبيرهم الرضى عن أنفسهم بل هم على العكس يتحدثون عن حبهم فى خجل واستحياء لأنهم يخشون دائمًا ألا يكون حبهم كما ينبغى، وبذلهم فيه كفاية وغناء.

هؤلاء المحبون يحبون عيوب محبوبينهم لأن هذه العيوب أو الرذائل تتيح لهم الفرصة لإرضاء رغبات جديدة للمحبوب، وهم يطلبون دائمًا تبادل العاطفة والهوى مع المحبوب، ولو كلفهم

ذلك خداع أنفسهم فى مبلغ إخلاص المحبوب لهم، أنهم يؤمنون بإخلاصه فى حبه لهم ولو كذبت ذلك الظواهر والدلائل.

وحتى إذا تقطعت سبل ذلك الإيمان بإخلاص المحبوب بالدليل الثابت الملموس، لم يؤثر ذلك فى حبهم، وتمنوا السعادة للمحبوب، بل سعوا لتحقيق السعادة له على حساب أنفسهم ماديًا ومعنويًا ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا...

وكانت صوفيا إيفانوفنا تحب ابن أختها ديمترى ذلك الحب الإيجابى، وتحب كذلك شقيقتها، وليوبوف سيرجيفنا، بل وتحبنى لأن ديمترى يحبنى، وكان هذا الحب الإيجابى الفعال هو الذى يشع من عينيها ومن كل كلمة من كلماتها وحركة من حركاتها.

ولم أقدر صوفيا إيفانوفنا حق قدرها إلا بعد ذلك بزمن طويل، ولكنى حتى فى تلك الفترة من العمر كنت اسأل نفسى فى حيرة:

ـ إذا كان ديمترى يجتهد حقًّا أن يفهم الحب بأسلوب يختلف تمامًا عما ألفه الشبان، فلماذا انصرف عن تقدير كنز الحب الدافق العذب الذى يتمثل أمام عينيه فى صوفيا إيفانوفنا، ليتجه بكليته إلى تلك الغامضة ليوبوف سيرجيفنا، ولا يزيد على أن يقول إن خالته أيضًا ذات مزايا لا بأس بها؟ أن هذا لديل على أنه «لا كرامة لنبى فى وطنه!» ويزيد الأمر غموضًا أن ديمترى لم يعرف ليوبوف طويلًا، أما حب خالته فكان يغمره منذ ميلاده.

توثق المعرفة

وعندما عدت إلى الشرفة وجدتهن لا يتحدثن عنى إطلاقا كما خطر لى، ولم تكن فارنكا تقرأ، بل أنها كانت قد وضعت كتابها جانبًا واشتبكت فى جدل عنيف مع ديمترى الذى جعل يتمشى جيئة وذهابًا، وهو يطرف بعينيه. وكان موضوع الجدل كما فهمت شخصًا اسمه أيفان ياكوفلفتش وما يتصل بشخصه من خرافات، ولكن عنف المناقشة أوحى إلى وأدخل فى روعى أن وراءها عنصرًا خافيًا يجعل للمناقشة صلة وثيقة بالأسرة.

ولزمت الأميرة الصمت هى وليوبوف سيرجيفنا، ولكنهما كانتا تصغيان لكل كلمة تقال، وتشعران بالرغبة أحيانًا فى الاشتراك فى المناقشة، بيد أنهما كانتا تتمالكان نفسيهما، وتتركان للطرفين المتناقشين الإعراب عن وجهتى نظريهما، الأم تعبر ابنتها فارنكا عن وجهة نظرها، وليوبوف يعبر ديمترى عن وجهة نظره.

ولما دخلت الشرفة رمقتنى فارنكا بنظرة تدل على منتهى عدم الاكتراث، مما دلنى على استغراقها الكامل فى الجدل، بحيث يستوى

لديها أن أسمع ما تقول أو لا أسمعه، وكانت الأميرة ـ التى لاشك فى أنها على رأى ابنتها ـ تبدى نفس الاستغراق فى المناقشة بحيث صرفها عن الاكتراث لوجودى، أما ديمترى فزادت حدته فى المناقشة بسبب حضورى، وظهر على ليوبوف سيرجيفنا الفزع لدخولى، وقالت غير موجهة كلامها إلى أحد بالذات:

ـ لقد صدق الأقدمون عندما قالوا: آه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب!

ولكن هذا المثل الذى قالته بالفرنسية لم يضع حدًّا للنقاش، ولكنه جعلنى أعتقد أن ليوبوف سيرجيفنا وديمترى فى الكفة الخاسرة، وشعرت بكثير من الحرج لحضور مثل ذلك الخلاف العائلى الدقيق، ولكننى مع ذلك شعرت بسرور عظيم لأن العلاقات الحقيقية فى تلك الأسرة تكشفت لى، ولأن وجودى لا يمنع أفراد الأسرة من التحدث فى خصوصياتهم بصراحة.

وقد يحدث أن ترى أسرة سنوات طويلة، وتظل الأسرة محتفظة بقناع الاحتشام وحسن التظاهر فتبقى العلاقات الحقيقية بين أفرادها سرًا مغلقًا عليك، وقد لاحظت أن سمك القناع وزينته وزخرفته تتناسب دائمًا مع اضطراب وخشونة العلاقات الخافية تحته عن عينيك، ثم يأتى يوم على غير انتظار تثور فيه المناقشة حول موضوع فى محيط الأسرة، وقد يبدو هذا الموضوع تافهًا، ينصب على سيدة شقراء أو حصان الزوج، وإذا بالمناقشة تحتدم من غير سبب ظاهر، حتى يصبح من المستحيل تصفية الخلاف الذى ثار مع الاحتفاظ

بالقناع التقليدى فى موضعه، فإذا القناع يسقط أو يتمزق، وإذا العلاقات الحقيقية بين أفراد الأسرة تتكشف سافرة شوهاء، تكشفا يزعج أطراف المناقشة، ويدهش الغرباء الحاضرين، ويجعلك تدرك إلى أى مدى كنت مخدوعًا بالظواهر.

وكثيرًا ما يكون من المؤلم أن تلمس عفوًا وترًا حساسًا، فإذا البركان يثور لتلك الكلمة، وإذا بك ترى الحقيقة الكامنة وراء مظهر العلاقات السليم، وما من أسرة تقريبًا إلا وفيها وتر حساس وبركان دفين.

وفى آل نخليودوف كان هذا الوتر الحساس وحب ديمترى العجيب لليوبوف سيرجيفنا، ذلك الحب الذى كان يثير لدى أمه وأخته الغيظ والحزن والكبرياء الجريحة. وهذا هو السر فى أن المناقشة حول إيفان ياكوفلفتش وما يتصل به من خرافات على درجة قصوى من الأهمية فى نظر الجميع.

وسمعت فارنكا تقول بصوتها الرخيم وهى تفرق بين الحروف:

ـ أنك مغرم دائمًا بكل ما يعرض عنه الناس أو يستخفون به ويستسخفونه، وتجتهد أن تكتشف فيه شيئًا رائعًا.

فأجاب ديمترى وهو يشيح عن أخته بعصبية:

ـ أولًا وقبل كل شىء لا يجسر على رمى رجل مثل إيفان ياكوفلفتش بالسخف والزراية إلا شخص طائش، وثانيًا أنك أنت التى تتعمدين ألا تدركى المزايا الواضحة التى تحت سمعك وبصرك.

وعندئذ عادت صوفيا إيفانوفنا إلى الشرفة، وحدقت فى ارتياع المرة بعد المرة نحو ابن أختها، ثم بنت أختها، ثم نحوى، وفتحت فمها مرتين كأنها تريد أن تتكلم، وتنهدت ثم قالت لبنت أختها وهى تقدم إليها الكتاب وتربت على يدها فى حنان:

ـ أرجوك يا فارنكا أن تستأنفى القراءة فإنى متلهفة على أن أعرف هل عثر عليها أم لا...؟

والواقع أن الكتاب لم تكن فيه كلمة واحدة تدل على بحث أحد عن أحد، ولكنها حيلة ابتدعتها، واستطردت قائلة لديمترى:

ـ وأنت يا ميتيا، أيها العزيز، يحسن بك أن تدثر خدك لأن الهواء رطب وأخشى أن تصاب بوجع الأسنان مرة أخرى!

ولم تأبه صوفيا لنظرة الغضب والحنق التى رماها بها ابن أختها لأنها قطعت عليه تيار أفكاره وسلسلة حججه، واستأنفت فارنكا القراءة، وقد أعجبنى أن هذه المشاجرة الصغيرة لم تؤثر فى صفاء الأسرة، وأن السلام والوئام كانا يسودان ذلك المجتمع النسائى رغم كل شىء.

وكان واضحًا أن الأميرة ماريا إيفانوفنا هى التى تسيطر على المجموعة، وكانت طريقتها فى الكلام فى نظرى، ذات طابع منطقى واضح، ولكنها فى الوقت نفسه تتسم بالبساطة والأناقة.

وكانت شخصيتها مرتبطة ومقترنة عندى بجمال وطهارة كل شىء حولها رغم البساطة المتناهية، فالجرس وتجليد الكتاب وقماش

المقعد ومفرش المائدة كلها متناسقة مع جلسة الأميرة المعتدلة القامة، وغدائر شعرها الأشيب الظاهرة من تحت قبعتها.

ولم يكن غريبًا عن أسباب تلك الفتنة، أن النساء الثلاث يتحدثن الفرنسية والروسية مباعدات بين الحروف، متخيرات الألفاظ بدقة مسرفة، وأنهن كن يعاملننى كما لو كنت رجلًا راشدًا، ويأخذننى مأخذ الجد، ويحدثننى بخواطرهن ويصغين إلى آرائى، وهو أمر لم آلفه، فكان له وقع عظيم فى نفسى، أنا الذى لم أزل أخشى أن أسمع أحدًا ينتهرنى فجأة ليقول لى:

ـ أذهب أيها الفتى واستذكر دروسك! أتظن أن الناس مستعدون لأخذك وأخذ أقوالك مأخذ الجد؟

وكانت هذه البقية من القلق تدفعنى إلى تغيير مقعدى بين الحين والحين، وكنت أكلم الجميع بحرية، فيما عدا فارنكا التى لم أزل أرى من غير المستحب، بل ومن غير اللائق لسبب ما أن أبدأها بالكلام.

وبينما هى تقرأ، وأنا أصغى لصوتها الرخيم، كنت أنظر إليها حينًا، وإلى فضاء الحديقة حينًا آخر، فإن آثار المطر المتجمعة بين الشجر هى كل ما يشغلنى، وأقول لنفسى:

ـ من المؤسف أننى مرتبط بالحب، وأن فارنكا ليست سونشكا، فإنه لشىء جميل أن يغدو الإنسان عضوًا فى أسرة رائعة كهذه، أذن لصارت لى أم وخالة وزوجة بعملية واحدة!

وجعلت وأنا أراجع هذه الخواطر وأجيلها فى نفسى أنظر إلى

فارنكا وهى تقرأ وأفكر فى أننى أستطيع التأثير عليها بحيث أجعلها تنظر إلىَّ نتيجة لقوة إيحائى، ورفعت فارنكا رأسها عن كتابها، ونظرت نحوى، ولما ألتقت عيناها بعينى حولتهما إلى بعيد وقالت:

ـ أن المطر لم ينقطع بعد.

وعندئذ شعرت بشعور عجيب، وجعلت أسأل نفسى:

ـ أتراها هى فتاة أحلامى؟

ثم سرعان ما قررت أنها ليست هى، لأنها ليست جميلة وليس فيها ما يميزها، فهى فتاة عادية تعرفت بها بوسيلة عادية، أما فتاة أحلامى فيجب أن تكون رائعة خارقة للمعتاد.

نزهة

وحان وقت تناول الشاى، فوضع حدًا للقراءة، ودار بين السيدات حديث عن أشخاص وأمور ليست لى بها دراية، وخيل إلى إن ذلك متعمد كى أشعر على الرغم من الاستقبال الودى بفارق السن وبالمكانة بينى وبينهن.

ولكنى عندما أتجه الحديث إلى موضوعات عامة عوضت فترة الصمت التى مرت بى، وحاولت أن أستعرض ذكائى الوقاد وأصالتى، مدركًا أن ثوبى الرسمى يطالبنى بالبلاء بلاءً حسنًا فى هذا المجال.

وعندما جرى فى الحديث ذكر البيوت الصيفية، قلت فجأة أن الأمير إيفان أيفانتش لديه فيلا بالقرب من موسكو بلغ من جمالها أن الناس يأتون من لندن وباريس لمشاهدتها، وأن سياج الحديقة مصنوع من القضبان، وقد تكلف صنعه أكثر من ثلثمائة وثمانين ألف «روبل»، ولم يفتنى أن أردف بهذا القول مباشرة أن الأمير إيفان أيفانتش من أقرب أقربائى، وأنى تناولت الغداء معه فى ذلك اليوم، وأنه شدد فى دعوتى لقضاء الصيف بطوله معه فى تلك الفيلا، بيد أننى رفضت

معتذرًا، لأنى أعرف تلك الفيلا معرفة جيدة جدًّا، إذ سبق لى أن زرتها مرات كثيرة، وأن البساتين والمناظر الطبيعية لا تعنينى كثيرًا، فأنا لا أطيق الترف والبذخ، ولا سيما فى الريف. فما معنى أن يكون الريف مثقلًا بالزخارف التى تخرجه عن جوه الفطرى؟

وما أن فرغت من إلقاء هذه الأكذوبة المعقدة البشعة حتى أدركنى الاضطراب على الفور، وأحمر وجهى احمرارًا شديدًا، حتى أن جميع الحاضرات أدركن ولا شك أنى كذبت عليهن.

ولاحظت أن فارنكا التى مدت إلى يدها بفنجان الشاى فى تلك اللحظة، وأن صوفيا أيفانوفنا التى ظلت تحدث فى وجهى وأنا أتكلم، أشاحتا كلتاهما بعيدًا عنى وأخذتا تتكلمان فى موضوع آخر، وعلى وجهيهما سمة أعرفها جيدًا، وكثيرًا ما لاحظتها على كرام الناس بعد ذلك عندما يأخذ شاب من الشبان فى إلقاء الأكاذيب السافرة أمامهم بلا تورع، وتكاد تلك السمة أن تقول:

ـ أننا طبعًا نعرف أنه يكذب، ونعرف أيضًا لماذا يكذب هذا المسكين!

والواقع أن السبب الذى دفعنى إلى القول أو الادعاء بأن الأمير إيفان أيفانتش يمتلك تلك الفيلا المزعومة، أننى لم أجد وسيلة أفضل من هذه لإبلاغهن مدى قرابتى للأمير إيفان أيفانتش، وأننى حظيت بتناول الغداء معه على مائدته ذلك اليوم.

ولكن ما الذى حدا بى أن أقول أن سياج بستانه يساوى ثلثمائة وثمانين ألف «روبل»، ولماذا قلت أننى كثيرًا ما زرته فى تلك الفيلا

مع أنى لم أزرها مرة واحدة، ولم يكن فى استطاعتى أن أزورها إطلاقًا، لأن الأمير إيفان أيفانتش يقيم بصفة مستمرة أما فى موسكو أو نابلى، وذلك أمر يعرفه آل نخليودوف تمام المعرفة. ما الذى حدا بى إلى ذلك الكذب المفضوح؟

لا أستطيع أن أجد لهذا السؤال تفسيرًا واضحًا، وأننى حين أراجع طفولتى، وسائر مراحل عمرى التالية لا أعثر على أثر لرذيلة الكذب عندى، بل أنى على العكس كنت معروفًا بفرط الصراحة وفرط الاستقامة والصدق، غير أن هذه الفترة الأولى من المراهقة كانت تستبد بها رغبة غريبة فى الكذب بأجلى معانيه، ومن غير ظاهر على الإطلاق.

أقول الكذب بأجلى معانيه، وأنا أقصد هذا التعبير، لأنى كنت حينئذ أكذب فى أمور كان من اليسير جدًّا افتضاح كذبى فيها بغاية الجلاء، ويخيل إلىَّ أن ذلك يرجع إلى رغبة فى الأبهة الكاذبة تجعلنى أحاول إظهار نفسى فى صورة مخالفة تمام المخالفة لحقيقتى، مع أمل وهمى فى الحياة، ورجاء خرافى إلا تفتضح أكاذيبى، وهكذا كنت أتورط فى ذلك السراب الخادع.

* * *

وبعد الانتهاء من تناول الشاى، كان المطر قد انقطع عن التساقط، وأصبح المساء صافى السماء هادئًا لا تشوب هدأته شائبة، فاقترحت الأميرة أن نذهب للنزهة فى الحديقة السفلى لكى نشاهد البقعة المحببة لديها.

وإيثارًا للخطة التى اتخذتها لنفسى أن ألزم جانب الأصالة والتفرد على الدوام، وعلى افتراض أن ذوى الفهم والفطنة من الناس ممن على شاكلة الأميرة وشاكلتى ينبغى أن يرتفعوا بأنفسهم فوق تفاهات المجاملة وما يسمى بالسلوك المهذب، أجبت عن تلك الدعوة بأنى أكره السير على غير هدى، أو السير للسير، وزدت على ذلك أننى إذا عن لى أن أسير يومًا ما، فإنى سأوثر أن يكون سيرى بمفردى تمامًا!

ولم يخطر ببالى أن هذا الجواب فيه فظاظة صريحة، وكنت أعتقد فى ذلك الوقت أنه ما من شىء أنفى للفظاظة من المجاملة السطحية، وما من شىء أقرب إلى القلب وأخف على النفس وأدل على الأصالة من الصراحة التى لا تخلو من جلافة!

ومع كل هذا، فقد مضيت للنزهة على الأقدام مع بقية الجماعة وأنا راض أشد الرضى عن نفسى!

وكانت البقعة الأثيرة لدى الأميرة فى أقصى أطراف الحديقة المترامية، فوق معبر صغير مقام على بركة صغيرة، وكان المنظر هناك محدودًا للغاية، بيد أنه يثير الآسى الشاعرى الذى تطيب له النفس.

وقد بلغ من تعودنا الخلط بين الفن والطبيعة أننا كثيرًا جدًّا ما يلتبس علينا الأمر، فحين نرى من مظاهر الطبيعة ما لم نشاهد مثله فى الصور لا يخطر ببالنا أننا إزاء منظر طبيعى حقيقى ونخال جماله مصنوعًا، والعكس صحيح، أى أننا عندما نشاهد منظرًا مصنوعًا قد يخيل إلينا أنه طبيعى صرف لمجرد أننا شاهدنا له مصداقًا فى الصور المألوفة لدينا.

وكان المنظر الذى تراءى لنا من فوق المعبر ينتمى لذلك الطراز، فهناك بركة صغيرة تنمو فوق شطآنها الأعشاب الكثيفة، ومن ورائها مباشرة تل مغطى بالأشجار المتسلقة والشجيرات ذات الألوان المتعددة، وعند سفح التل شجرة سرو عتيقة تبدو جذورها المسيكة ضاربة فى شاطئ البركة، وتتدلى فروعها المهيبة فوق سطح البحيرة الأملس، فتنعكس هناك تلك الخضرة الفيحاء.

وصاحت الأميرة وهى تهز رأسها غير موجهة خطابها إلى أحد بالذات.

ـ يا له من جمال ساحر!

فقلت وأنا أهدف إلى إظهار أصالة تفكيرى واستقلال رأيى فى كل شىء:

ـ منظر جميل فعلًا، ولكنه يبدو على صورة ما وكأنه منظر مسرحى! أن يد الصنعة ظاهرة فيه بجلاء!

ولبثت الأميرة تبدى إعجابها بالمنظر كأنها لم تسمع تعليقى هذا، ثم التفتت إلى شقيقتها وليوبوف سيرجيفنا وراحت تشير لهما بيديها إلى تفاصيل بديعة متفرقة كانت تستثير أعجابها بوجه خاص، فقالت صوفيا أيفانوفنا أن المنظر كله غاية فى الجمال، حتى أن شقيقتها كثيرًا ما تمضى ساعات متوالية فى هذا الموضع لا تسأم ولا تمل.

وكان واضحًا أن صوفيا تقول ذلك لمجرد الرغبة فى أرضاء شقيقتها الأميرة، فقد لاحظت أن أولئك الناس الذين وهبتهم الطبيعة

تلك الملكة الخاصة التى أسميها أنا الحب الإيجابى قلما يكترثون لنواحى الجمال فى الطبيعة الصامتة.

أما ليوبوف سيرجيفنا فكانت تبدو مبهورة بما ترى، تعلق على هذا الغصن وذاك اللون، وتنظر بين الحين والحين إلى سوزيت جروها الصغير الذى جعل يقطع المعبر ذهابًا وإيابًا بقوائمه القصيرة المعوجة وهو يهز ذيله هزًا عصبيًا قلقًا، كأنما هذه أول مرة ينطلق فيها الجرو الصغير من أسار الحجرات.

أما ديمترى فشرع فى مناقشة منطقية مع أمه، زاعمًا أنه ما من منظر يمكن أن يكون تام الجمال وهو محدود الأفق، وظلت فارنكا صامتة لا تقول شيئًا، ولما نظرت لى جهتها رأيتها واقفة متكئة على سياج المعبر وصفحة وجهها إلى جهتى، تحدق أمامها مباشرة.

ولعل شيئًا ما كان يشغل بالها انشغالًا تامًا، أو يستأثر بوجدانها، فقد كان واضحًا لدى عينين أنها مستغرقة فى حلم من أحلام اليقظة، فلم تكن تشعر بنفسها أو يخطر لها أن أحدًا يتطلع إليها.

وكانت عيناها الواسعتان تنمان عن صفاء شديد وتركيز وتفكير صادق، ومظهرها فى وقفتها كان خاليًا من التصنع، وعلى الرغم من قصر قامتها كانت المهابة بادية عليها، حتى أننى أخذت أخذًا شديدًا وراجعت نفسى مرة أخرى متسائلًا:

ـ أليست هذه هى فتاة أحلامى؟ أليس هذا هو بداية الحب الموعود؟

ومرة أخرى أجبت نفسى أنى مرتبط فعلًا بحب سونشكا، وأن فارنكا أن هى إلا فتاة من الفتيات وشقيقة صديقى، ولكنى أحببتها فى هذه اللحظة، ولذا شعرت برغبة غامضة فى أن أفعل أو أقول شيئًا يضايقها إلى حد ما، فقلت لصديقى وأنا أقترب من فارنكا حتى تسمع ما سأتفوه به:

ـ أنك تعلم يا ديمترى رأيى فى المناظر الطبيعية، فحتى لو كان هذا المكان خاليًا من البعوض لما وجدت فى هذا المنظر جمالًا، أما هذا البعوض الكثير فيجعله موضعًا فظيعًا حقًّا.

فقالت فارنكا لى من غير أن تدير نحوى رأسها:

ـ أنت أذن لا تهتم بالطبيعة؟

فأجبتها وأنا شديد السرور لنجاحى فى أثارة استيائها ولفت نظرها إلى أصالتى:

ـ أن الإعجاب بالطبيعة نوع من تشاغل الفارغين والكسالى وأهل البطالة!

فرفعت فارنكا حاجبيها شيئًا ما برهة قصيرة فى أشفاق، وواصلت التحديق أمامها بعد ذلك فى هدوئها السابق.

وشعرت بالاضطراب بالقرب منها، ولكنى ظللت بعد ذلك أذكر فى أوقات كثيرة منظرها وهى تطل من فوق سياج المعبر على البحيرة التى انعكست فيها أضواء المساء وظلال شجرة السرو، ونظرتها الصافية وطلعتها المهيبة، ولذعات البعوض التى أصابت جبينى.

فى الريف

وفى اليوم التالى توجهت أنا وفولوديا فى عربة من عربات البريد إلى الريف، وتواترت على ذهنى وأنا فى المركبة جميع ذكرياتى التى تربطنى بمدينة موسكو، وتذكرت سونشكا فالاخينا، بيد أنى لم أتذكرها إلا قرب المساء بعد أن قطعنا خمس مراحل، وقلت لنفسى:

ـ ما أعجب أمرى! أنه لغريب حقًّا أن أكون عاشقًا وامقًا، ومع هذا أجدنى قد نسيت أمر حبى ومحبوبتى تمامًا، ينبغى أن أفكر فيها!

وشرعت فعلًا أفكر فيها بناء على ذلك التصميم، على نحو ما يفكر المسافرون عادة، أعنى تفكيرًا غير متماسك بيد أنه يتسم بالحيوية والتوقد، وهكذا بلغت بى الحالة تحت وطأة هذا التفكير أننى رأيت مما لا مناص منه أن أبدو حزينًا نهبًا للتفكير العميق مدى يومين على الأقل بعد وصولنا إلى الريف، حتى يرى الجميع من أهل البيت حقيقة حالى، ولا سيما كاتنكا التى كنت اعتبرها خبيرة عظيمة عارفة بهذه الشئون، وكنت قد لمحت لها عن الحالة التى صار إليها فؤادى.

ولكن على الرغم من جميع المحاولات المتعمدة لتقمص

إمارات التوله والوجد التى سبقت لى ملاحظتها على المتيمين والعاشقين، لم أفلح فى مدى اليومين فى تذكر غايتى والدور الذى أقوم به طول الوقت، بل كنت أتذكر دورى فى المساء غالبًا، بعد أن يكون النهار قد انقضى وأنا خلى الباب تحت أنظار الجميع! وأخيرًا استوعبتنى دوامة الحياة الريفية بمشاغلها استيعابًا سريعًا حتى لم يعد يخطر ببالى أمر حبى لسونشكا!

وكان وصولنا إلى بتروفسكوى ليلًا، وكنت غارقًا عندئذ فى النعاس فلم أر البيت ولا الممشى المحفوف بأشجار السرو، ولا أحدًا من آل البيت الذين كانوا قد أووا إلى مضاجعهم منذ وقت طويل واستسلموا للنوم، وفتح لنا الخادم العجوز فوكا الباب وفى يده شمعة، حافى القدمين، مقوس الظهر، وقد التف بزى نسائى قديم.

وارتعد الرجل العجوز من فرط السرور عندما رآنى أنا وأخى، وقبلنا على عادة الفلاحين فى التحية والتكريم فوق اكتافنا ثم أسرع يرتدى ثيابه، ودخلنا إلى دهليز به سلم البيت من غير أن أفيق من نعاسى تمام الأفاقة، حتى إذا دخلنا حجرة الجلوس الأولى نبهتنى مناظرها المألوفة وأثاثها وشمعدانها القديم ومدفأتها الحافلة بالرماد الخابى، فأفلحت هذه المشاهد المأنوسة فى تنبيه وجدانى وكأنها موسيقى عذبة تهدهد أيامنا الخوالى، فقلت لنفسى:

ـ كيف استطعت أن أعيش كل ذلك الزمن بعيدًا عن هذا البيت العزيز العتيق؟ وكيف أستطاع البيت أن يطيق بعادى عنه فلا تتداعى دعائمه؟ أنها لعجيبة لا أستطيع أن أصدقها!

وبالفعل أسرعت أجرى هنا وهناك لأرى بعينى رأسى هل لم تزل حجرات الدار العتيقة كالعهد بها أم غيرتها يد العفاء بعد أن افتقدتنى طويلًا؟!

ووجدت كل شىء على حاله القديم، ما خلا أمرًا واحدًا، أن كل شىء صار أصغر حجمًا وأقل ارتفاعًا، فى حين صرت أنا أطول قامة وأثقل وزنًا وأضخم جثة! ومع ذلك فإن البيت العتيق العزيز تلقانى رغم تغيره وتغيرى بسرور مفرط بين أحضانه كأننى لم أزل فى مهاد الطفولة لم أشب عن الطوق ولم تفارقنى البراءة والوسامة! تلقانى كما أنا على علاتى!

وإذا كل رقعة من خشب الأرض، وكل نافذة أو شرفة، وكل درجة من درج السلم، وكل صوت، وكل نأمة، توقظ فى أغوار وجدانى عالمًا بأسره من الرؤى والمشاعر والذكر التى تقترن بأحداث ذلك الماضى السعيد الذى هيهات أن يعود!

وذهبنا إلى مخدع طفولتنا الأولى، فإذا هناك جميع مخاوف الطفولة بتهاويلها الساذجة لم تزل رابضة تتلكأ فى ظلمات أركانها وأبوابها وخلف ستائرها... ودخلنا إلى حجرة الاستقبال، فإذا ـ لهف نفسى! ـ حنان الأمومة القديم على عهده لم يزل عالقًا بكل آثار تلك الحجرة التى تضمها بين جدرانها الأربعة فى حدب وحفاظ.

* * *

وخرجنا إلى البهو، فخيل إلىَّ أن عبث الطفولة اللاهية اللاغية وأصداء ضحكاتها الصاخبة المدوية لم تزل تتردد بين السقف

والجدران، لا تنتظر إلا إشارة لتنفض عنها الوسن وتهب إلى سابق عربدتها، التى ـ ويح نفسى! ـ هيهات هيهات أن تعود!

وانتقلنا إلى حجرة جلوس داخلية قادنا إليها فوكا حيث أعد لنا فراشين، فكأنما كل شىء: من المرآة الكبيرة والستائر والإيقونة الخشبية العتيقة وكل بروز فى الحائط المكسو بالورق الأبيض، وقد أصبح لسانًا انبرى يحدثنا حديثا طويلًا وجيعًا مؤسيًا عن العذاب، وعن الموت، وعن أولئك الذين هيهات هيهات أن يعاد لهم غدو بيننا ورواح!

واستلقينا على الفراش، وغادرنا فوكا بعد أن تمنى لنا ليلة سعيدة، وساد الحجرة الكبيرة صمت واجم، إلى أن قال فولوديا:

ـ أليست فى هذه الحجرة ماتت أمنا؟

ولم أحر جوابًا، وتصنعت النوم، فلو أنى فتحت فمى لأقول له حرفًا واحدًا لانفجرت باكيًا.

* * *

ولما استيقظت فى الصباح رأيت والدى لم يزل فى ثياب النوم وفى قدميه خفه المزخرف، جالسًا على فراش فولوديا يحادثه ويضاحكه، فلما رآنى استيقظت وثب وثبة طروبًا وأقبل نحوى فضربنى على ظهرى بيده الضخمة مازحًا، ثم قدم إلى خده وضغط به شفتى، وقال لى بصوته المنغم وهو يرمقنى بعينيه الصغيرتين المتوقدتين:

ـ بورك فيك أيها الدبلوماتى وشكرًا لك وهنيئًا، أخبرنى فولوديا

أنك أبليت بلاءً حسنًا فى الامتحان، وهذا شىء عظيم، والحقيقة أنك فتى رائع عندما تتعمد ألا تكون غبيًا! شكرًا لك يا ولدى العزيز! والآن سنقضى وقتًا جميلًا لطيفًا هنا، وربما انتقلنا فى الشتاء إلى سان بطرسبرج، وكم يؤسفنى أن موسم الصيد هنا قد انقضى، فإنى كنت أحب أن أمتعك بشىء من مسرات الصيد، هل تحسن الرماية أيها العزيز؟ أن الصيد هنا لا حصر له، ويومًا ما سأخرج معك بنفسى، سننتقل بمشيئة الله إلى سان بطرسبرج فى الشتاء، وهناك ستتعرف بالناس وتنشئ العلاقات معهم، أنك كبرت الآن يا ابنى، وكنت منذ قليل أخبر أخاك أننى والحمد لله قد أتممت رسالتى، وفى وسعكما الآن أن تقوما على قدميكما وحدكما وتنهضا بأمركما من دونى، وطبعًا سأكون دائمًا تحت أمركما كلما عن لأحدكما أن يستنصحنى، ولكنى سوف لا أكون بعد اليوم والدكما الذى كنته حتى اليوم، بل صديقكما ورفيقكما ومستشاركما ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولا زيادة! فما وقع هذا العزم فى ميزان فلسفتك أيها الدبلوماتى الصغير؟ أخيرًا تراه أم شرًا؟

وقد أجبت بالطبع أنى أرى فى هذا العزم الخير كل الخير، وكان هذا هو رأيى حقًّا... والواقع أن والدنا كان فى ذلك اليوم يبدو جذابًا ساحرًا مرحًا سعيدًا، وكانت هذه العلاقة الجديدة بيننا وبينه، على أساس المساواة والزمالة والصداقة تجعله أحب إلى نفسى من أى يوم مضى.

واستطرد أبى بعد ذلك يسألنى:

ـ والآن خبرنى، هل قمت بزيارة جميع أقاربنا، وزيارة آل أيفين؟ وهل قابلت الشيخ؟ وماذا قال لك؟ وهل زرت الأمير إيفان أيفانتش؟

وأخذنا بعد ذلك نتجاذب الحديث الهين أمدًا طويلًا قبل أن نرتدى ثيابنا، حتى أن أشعة الشمس بدأت تنجاب عن نوافذ الحجرة، ودخل علينا العجوز ياكوف وأصابعه ترتجف خلف ظهره كسالف العهد وقال لأبى أن العربة قد جهزت كما أمرت، فسألت أبى:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

فقال أبى وهو يهز كتفه ويتنحنح شأنه حين يحرج:

ـ آه، نسيت هذا الأمر... الواقع أنى كنت قد وعدت بالذهاب لزيارة أبيفانوفا اليوم، هل تذكران أبيفانوفا الفلمنكية الحسناء؟ أنها كانت دائمًا تزور أمكما، وأهلها قوم ظرفاء للغاية.

ثم هز كتفه هزة أخرى تدل على الارتباك ـ فيما خيل إلىَّ ـ وغادر الحجرة، وكانت ليوبا قد ترددت على الباب جملة مرات، وتصرخ فى كل مرة:

ـ هل أستطيع أن أدخل؟

وفى كل مرة كان أبى يصرخ:

ـ طبعا لا، فإننا لم نرتد ثيابنا بعد.

فتصرخ ليوبا من الخارج معترضة:

ـ وما الضرر؟ لقد رأيتك فى ثياب النوم من قبل يا أبى؟

فيصرخ أبى محتجًا:

ـ ولكن أخويك ليس فى وسعك أن تريهما فى ثيابهما الداخلية، هل يمكنك أن تأذنى لهما بدخول حجرتك وأنت فى الفراش؟ من غير اللائق أن يحدثاك وهما بهذه الملابس.

فترد عليه ليوبا من الخارج محنقة:

ـ أنت حقًّا لا تطاق! هيا اسرعوا وانزلوا إلى حجرة الاستقبال فإن ميمى تريد أن تراكم بفارغ الصبر.

فما أن غادر والدى الحجرة حتى اسرعت ارتدى ثوبى الجامعى الجديد ونزلت إلى حجرة الاستقبال، أما فولوديا فلم يكن فى عجلة من أمره بل قضى وقتًا طويلًا يتحدث إلى ياكوف العجوز عن أحسن المواضيع لصيد الطيور البرية، فإن أخى لم يكن يكره شيئًا فى الدنيا كراهته لإظهار العواطف فى محيط الأسرة، سواء مع أبيه أو أخيه أو أخته، ويحتمى من اظهار عواطفه الطبيعية نحوهم بتصنع النقيض، وهو البرود التام الذى يؤذى فى أحيان كثيرة شعور من لا يفهمون دوافعه الحقيقية.

وفى حجرة الجلوس الخارجية قابلت أبى متجها إلى العربة بخطوات قصيرة متوثبة، وقد ارتدى حلته الأنيقة الجديدة التى صنعت على أحدث زى فى موسكو، والعطر يفوح من أردانه.

وما أن وقع بصره علىَّ حتى أومأ برأسه فى مرح كأنه يقول:

ـ ألا ترانى فاتنا وقد تأنقت وتعطرت؟

ومرة أخرى استلفت نظرى وميض السعادة فى عينيه، ذلك الوميض الذى استلفت نظرى أول ما تنبهت من نومى فى الصباح.

ودخلت حجرة الاستقبال فإذا بها كالعهد بها تلك الحجرة الفخمة العالية الجدران وبها ذلك البيانو الضخم المصفر اللون على الطراز الإنجليزى، والنوافذ الضخمة التى تتراءى من خلالها الأشجار الخضراء وممرات الحديقة ذات الرمال الصفراء المحمرة، وبعد أن قبلت ميمى وليوبا توجهت نحو كاتنكا، وفجأة تذكرت أنه لم يعد من المناسب تقبيلها فوقفت أمامها متضرج الوجه، ولم ترتبك كاتنكا إطلاقًا بل مدت إلىَّ يدها وهنأتنى بنجاحى ودخولى الجامعة.

وعندما دخل فولوديا تكرر الحرج حينما رأى كاتنكا، فمن الصعب أن يحدد الإنسان علاقته بها وقد تربينا معًا ثم افترقنا أمدًا طويلًا لأول مرة، واحمر وجه كاتنكا، أما فولوديا فلم يظهر عليه الارتباك بل انحنى لها انحناء يسيرًا، ثم سار نحو ليوبا وتحدث معها برهة حديثًا غير جدى، وخرج بعد ذلك ليتنزه فى مكان ما من الضيعة، فهو لا يستحسن أن يطيل المكث مع الفتيات، ويرى ذلك من علامات الطفولة والصغار.

نحن والفتيات

كانت نظرة فولوديا إلى الفتيات غريبة حقًّا، حتى إنه كان بوسعه أن يشغل نفسه بصددهن من نواح عجيبة مثل: هل هن جائعات؟ هل نمن مدة كافية؟ هل ملابسهن لائقة؟ هل ارتكبن أخطاء فى التحدث باللغة الفرنسية من شأنها أن تجلله بالعار أو الخجل أمام الغرباء؟

وفى الوقت نفسه لم يكن يجول بفكره أى احتمال لكونهن يستطعن التفكير أو لهن القدرة على الشعور الإنسانى بمعنى الكلمة، ومن باب أولى كان فولوديا لا يمكن أن يصدق أنه من المستطاع مناقشتهن فى أى موضوع جدى فعندما يتفق أحيانًا أن يذهبن إليه لمحادثته فى مسألة جدية ـ مع أنهن كن يتحاشين التوجه إليه فى تلك الأمور غالبًا ـ كان يسألنه عن رأيه فى رواية من الروايات أو يستوضحنه أمرًا من أمور دراساته الجامعية، كان عندئذ يقطب وجهه ويشيح عنهن وينصرف فى صمت، أو يجيب بعبارة تهكمية فرنسية مثل:

ـ شىء لطيف جدًّا!

أو يكسو وجهه بقناع جامد من الغباء المتعمد والجد التهكمى

ثم يقول كلمة لا معنى لها، أو لا علاقة لها إطلاقًا بموضوع السؤال مثل:

ـ كرنب! يتدحرج! زمارة!

أو غير ذلك من الألفاظ، وعندما يتفق أن أسرد على مسامعه ألفاظه تلك قائلًا أن ليوبا أو كاتنكا سألتنى عن معناها، كان يقول دائمًا:

ـ هيه! أنت أذن لم تزل تناقش الفتيات وتأخذهن مأخذ الجد فى الكلام؟ معلوم! فأنت كما أرى لم تزل فتى غفلًا!

ولا بد أن يسمعه الإنسان وهو يقول هذا الكلام كى يدرك مدى ازدرائه الراسخ العميق الذى يضمنه كل تعليق له على جنس الفتيات!

وكان فولوديا قد أصبح شابًا بالغًا أشده منذ سنتين، ولم يزل طيلة هاتين السنتين يتردى فى غرام كل امرأة مليحة يلتقى بها، ومع أنه ظل يرى كاتنكا كل يوم (ولها الآن سنتان ترتدى الثياب النسوية الطويلة وتزداد ملاحة يومًا بعد يوم) إلا أن احتمال ترديه فى هواها لم يجل بخاطره إطلاقًا.

ولعل ذلك راجع إلى ذكريات الطفولة التى جمعهما معًا، وما فى تلك الذكريات من ألفة عادية تصل فى نظره إلى حد الابتذال الذى يتنافى مع روعة الشعور بالحب، أو قد يكون عزوفه عن حبها ما يشعر به بعض الأحداث من الشبان من نفور وتقزز نحو كل ما هو بيتى أو له صلة بالأسرة، أو لعلها غرور الشباب اليافع حينما يعتقد فى حسن

طالعه وثراء مستقبله، فكلما رأى شيئًا جميلًا غاية الجمال منى نفسه أنه ليس شيئًا مذكورًا بالقياس إلى ما سوف يتكشف له عند الغد من روائع الحسن ومفاتن الجمال الخلاب!

ومهما يكن من أمر، فالواقع الذى لا مرية فيه أن أخى فولوديا لم ينظر إلى كاتنكا حتى ذلك اليوم نظرة رجل إلى امرأة.

ومما لا شك فيه أيضًا أن فولوديا كان نهبًا للسأم والملالة طيلة ذلك الصيف فى الضيعة، وكان المصدر الأكبر لضجره أنه كان يزدرى صحبتنا ويضيق بها، ولم يكن يعنى نفسه بإخفاء تلك الزراية أو ذلك الضيق، فكانت سحنته تنطق على الدوام بعبارة لا تتغير:

ـ ما أشد هذه الوحدة على نفسى! فلست أرى أحدًا أحدثه ويحدثنى! هل خلا العالم من الناس؟ ألا من أنيس؟

وفى كل صباح كان يذهب للرماية فى الخلاء أو فى الغابة، أو يقبع فى حجرته يطالع كتابًا ويظل إلى الظهر بثياب النوم لا تنازعه نفسه إلى ارتداء ملابسه والخروج إلينا، وعندما يغيب والدنا عن البيت، كان يأتى بكتابه فى يده إلى مائدة الطعام، ويظل يطالع فيه من غير أن يوجه إلينا الخطاب أو يبادلنا كلمة واحدة على سبيل المجاملة، أن بالإيجاز وأن بالإسهاب! وكان ذلك يشعرنا بشىء من التأثم إزاءه على نحو ما.

وفى المساء كان يستلقى على الأريكة فى حجرة الاستقبال، وأما أن ينام متوسدًا ذراعه، أو يقص على مسامعنا قصصًا لا يليق سردها، بل إنها أحيانًا كانت تصل إلى حد التفحش، فتغضب أختى ميمى ويحتقن وجهها احمرارًا وينفجر بقيتنا ضاحكين!

ومجمل الكلام أن فولوديا كان لا يتنازل باتخاذ الجد فى حديثه أو مناقشاته مع أحد فى البيت سوى والدنا، وأحيانًا قليلة معى شخصيًا، وأنى أقر أننى كنت ـ من غير وعى منى أو تعمد ـ أقلد شقيقى فى محاكاة فردية من حيث نظرته إلى الفتيات وسلوكه معهن، مع أنى لم أكن أخشى إظهار عواطفى كما يخشاه هو، ومع أن ازدرائى للفتيات لم يكن عميقًا موغل الجذور راسخ الدعائم كازدرائه لهن.

وقد حاولت جملة مرات خلال ذلك الصيف ـ افتقادًا للمسليات ـ أن أنشئ علاقات وثيقة مع ليوبا وكاتنكا بحيث تتسم أحاديثنا بشىء من الجد والتقدير المتبادل، ولكننى فى كل مرة من هذه المرات كنت أكتشف افتقارهن الشديد إلى التفكير المنطقى وجهلهن بأبسط المعلومات الدنيوية مثل قيمة النقود، ومعنى الحرب، ومواد الدراسة فى الجامعة، وما إلى ذلك واكتشف أيضًا عدم اكتراثهن بما أدلى به من شروح وتوضيحات حول هذه الأمور، فكنت أعود مضطرًا إلى سوء الرأى فى الفتيات.

وأنى لأذكر أن ليوبا ظلت ذات ليلة تكرر على البيانو عزف مقطوعة سخيفة، وكان فولوديا راقدًا على الأريكة فى حجرة الاستقبال يهوم للنوم، فجعل يعلق على عزفها بتعليقات ساخرة لاذعة، وهو يخاطب نفسه غير متجه بالكلام إلى أحد بالذات.

وكنت جالسًا مع كاتنكا إلى مائدة الشاى لم نتم تناوله بعد، ولا أدرى كيف حولت كاتنكا الحديث إلى موضوعها المفضل: الحب. وكنت عندئذ فى حالة عقلية أميل إلى التفلسف، فبدأت بتعريف الحب قائلًا:

ـ الحب هو رغبة المرء فى الحصول على شىء لا يملكه أو كلامًا من ذلك القبيل، بيد أن كاتنكا أجابتنى معترضة بأن الحب لا يمكن أن يكون حبًا حقًّا حينما تتمنى الفتاة الزواج من رجل بسبب ثرائه، وأكدت لى رأيها الراسخ أن الملكية أتفه وأسخف ما فى الوجود، وأن الحب الحقيقى أنما هو الحب الذى يصمد للفراق، فأدركت من قولها هذا أنها تلمح إلى حبها لدبكوف:

ويظهر أن فولوديا سمع طرفًا من هذا الحديث، فقد نهض جالسًا وصاح يسأل كاتنكا عن مسألة لا علاقة لها أبدًا بما نحن فيه.

وبصرف النظر عن الصفات العامة كالذكاء والفطنة والإحساس الفنى، هناك صفة خاصة يتفاوت حظها من النمو فى الأوساط المختلفة من المجتمع، ولا سيما فى الأوساط العائلية، وهذه المزية الخاصة هى ما أسميه الفهم أو التفاهم، وجوهر هذه المزية هو الإحساس بما يليق وما يناسب هذا الوسط المعين.

وبفضل هذه المزية يستطيع أى اثنين من أفراد عائلة معينة أن يتفاهما من غير حاجة إلى استخدام الألفاظ للتعبير عن مرادهما كله، فيدرك كل منهما الحد الفاصل في كلام الآخر بين الإطراء والاستهزاء، وبين الحماسة والادعاء، فالتفاهم نوع خاص من الفطنة تصلح لغة محدودة بين أفراد معينين، بل قد تنشأ على أساسها لغة خاصة فعلًا بمثابة نوع من الشفرة يستعمله المتفاهمون عليها.

وفى أسرتنا كانت هذه اللغة الاصطلاحية ذات المفهوم

الخصوصى محدودة بأطراف ثلاثة هم: أبى وأخى وأنا، ثم أضيف إلينا شخص رابع هو دبكوف، أما ديمترى فمع أنه كان أشد ذكاء من دبكوف بكثير إلا أنه لم يندمج فى هذا المحيط الخاص، ولم تصل هذه اللغة الخاصة إلى ذروة مرونتها كما وصلت إليه بينى وبين أخى فولوديا لأننا تربينا فى ظروف واحدة تمامًا، وصارت الشقة بعيدة شيئًا ما بيننا وبين والدنا وأصبح من المتفق عليه مثلًا فيما بينى وبين فولوديا استعمال مصطلحات مثل العنب، وسلة المهملات، والتفاح، للدلالة على معان مختلفة تمامًا عن هذه المسميات، مثل النقود والتحيز والاستنكار والغمز، وكان لابد من الربط بين نغمة الصوت وتعبير الوجه لإدراك المعنى المحدد للفظ الاصطلاحى.

وكانت الفتيات جاهلات تمامًا بهذه اللغة الخصوصية التى هى سرنا الخاص، فأصبحت هذه اللغة الشفرية رباطًا وثيقًا بينى وبين أخى يزيد من شعورنا بالتعالى على الفتيات.

ولعلهن كن يتفاهمن بلغة مثل لغتنا فيما بينهن، ولكنها كانت لغة تختلف عن لغتنا تمامًا ولا نستطيع فهمها، وكانت حداثة سنى تحول بينى وبين حسن تقدير عقلياتهن ونوع ذكائهن الخاص وطيبة قلوبهن، ولذا كنت ازدريهن.

وكنت أضحك فى نفسى استخفافًا عندما أرى ليوبا ترسم فوق أبى علامة الصليب كل ليلة، أو أراها تبكى هى وكاتنكا كلما أقمنا فى الكنيسة قداسًا على روح أمى، وكنت أظن ذلك تمويها أو تمثيلًا

سخيفًا، وكذلك كنت أعتبر من السخافة الهازلة ما يرتسم على وجه كاتنكا من تعبيرات الوجد وهى تعزف البيانو.

وجعلت أسأل نفسى متى ينضجن ويتحكمن فى سلوكهن والتعبير عن مشاعرهن كما يفعل الكبار، ويقلعن عن هذه الصبيانيات أو الطفليات المضحكة التى تكسوهن بالسخافة المخجلة؟

مشاغلى

ورغم كل شىء استطاعت مدة هذا الصيف أن تقرب بين الفتيات وبينى أكثر مما حدث فى السنوات السابقة، وذلك راجع إلى الشغف الذى استجد عندى بالموسيقى والعزف، ولذلك قصة طريفة.

فى ذلك الربيع حضر شاب من أبناء الجيرة لزيارتنا، وما أن دخل حجرة الاستقبال حتى جعل يحملق فى البيانو، وظل يقرب مقعده منه شيئًا فشيئًا بينما هو يتحدث أحاديث عرضية مع ميمى وكاتنكا، وبعد أن طرق موضوعات الجو ومسرات الحياة الريفية برهة من الوقت، وجه الحديث بلباقة إلى المعزوفات، والموسيقى والبيانو، ثم تطرق من ذلك إلى القول بأنه يمارس العزف على البيانو شخصيًا.

وبطبيعة الحال دعى الضيف الشاب إلى تشنيف آذاننا بالعزف، فبادر إلى البيانو وعزف عليه ثلاث رقصات من نوع الفالس، ووقفت ليوبا وميمى وكاتنكا حول البيانو يرقبن يديه وهو يعزف.

وانصرف هذا الشاب ثم لم يعد بعدها لزيارتنا بيد أن عزفه أعجبنى كثيرًا، وأعجبنى كذلك أسلوب جلوسه إلى المعزف، وكيفية هز

رأسه لتطويح شعره إلى الوراء، وطريقة مد إبهامه وخنصره لعزف ثمن النغمة بيده اليسرى فى رشاقة بالغة، ثم ضم هذين الأصبعين لينشرهما من جديد فجأة.

كل تلك المظهريات، والاهتمام الذى حظى به من الفتيات لبراعته، جعلنى أتقد رغبة فى إتقان العزف على البيانو، وأقنعت نفسى على هذا الأساس بأن لدى الموهبة والشغف بالموسيقى، وشرعت أتعلم العزف.

وكان سلوكى فى التعلم هو سلوك الملايين من الذكور، ومن الأناث على وجه الخصوص حين يدرسون الموسيقى غير مستعينين بإرشاد معلم جيد، ومن غير ولوع حقيقى بذلك الفن، بل ومن غير الفهم السليم لأصول الفن، فالموسيقى أو على الأصح عزف البيانو لم يكن فى نظرى عندئذ غير وسيلة للاستيلاء على إعجاب الفتيات عن طريق مشاعرهن.

واستعنت بكاتنكا التى جعلت تعلمنى النوتة الموسيقية، وتشدد على فى ثنى أصابعى الغليظة للداخل قليلًا، وأقبلت على ذلك بهمة عظيمة مدة شهرين، لدرجة أننى كنت أدرب أصبعى البنصر المتمرد على الإنثناء، بأن أثنيه فوق ركبتى وأنا على المائدة، وفوق الوسادة وأنا فى الفراش، وأخذت بعد ذلك أعزف مقطوعات، وكنت أعزفها بروحى وأعصابى، ولكنى فشلت فشلًا ذريعًا فى حفظ التوقيت بين الأنغام.

وكان اختيار المقطوعات من بين المعزوفات المألوفة، مثل

الفالس وأغانى الحب وما إلى ذلك، وجميعها من تأليف موسيقيين ذوى رقة وعذوبة وخفة بحيث يستطيع أى إنسان ذى ذوق أن يختار كومة كبيرة من هذه المقطوعات الجميلة لدى أى بائع للأدوار الموسيقية، لا ليوصيك بعزفها بل ليقول لك فى عزم وإخلاص:

ـ هذا هو النمط الذى ينبغى ألا تعزفه، لأنه ما من شىء يفسد أذواق فتياتنا وشباننا مثل هذه الرقة السطحية المريضة والعذوبة المظهرية القائمة على الانحلال لا التحليل، وعلى الهزال لا القوة!

ولعل هذه الأسباب عينها التى تجعل تلك الموسيقى الرخيصة شيئًا ممقوتًا فى نظر أهل الذوق، هى بعينها الأسباب التى تجعل تلك المعزوفات بعينها أثيرة لدى فتياتنا، يحتفظن بأكوام منها.

وللأسف الشديد أن بناتنا الروسيات مصرات على الاحتفاظ إلى جانب تلك المعزوفات الهزيلة بمعزوفتين للموسيقى العظيم بيتهوفن، ونراهن على الدوام يمثلن بهاتين المعزوفتين تمثيلًا سمجًا مؤذيًا بسوء عزفهن، وكانت ليوبا أختى تعزفهما دائمًا تحية لذكرى أمنا، وكان أستاذ ليوبا وهو من أحسن معلمى الموسيقى فى موسكو قد علمها عزفهما، كما علمها مقطوعات أخرى من تأليفه، فكانت تعزف السمين مع الغث بنفس الأسلوب الذى يدل على سوء الفهم وسوء التقدير.

وكنت أنا وكاتنكا لا نحب المعزوفات الجدية، ونفضل المقطوعات الخفيفة السريعة التى كانت كاتنكا تعزفها بسرعة فائقة بحيث لا ترى الأصابع وهى تجرى فوق المعزف، فكنت أجعل ذلك هو هدفى عندما أجلس إلى البيانو، وسرعان ما أحكمت تقليد جلسة

جارنا الشاب إلى البيانو، وصرت أتحسر لأن البيت خال من الضيوف الذين كنت أحب أن يرونى فى هوايتى الجديدة.

وبعد قليل أيقنت أن «ليست» فوق مستواى ولن أستطيع مجاراة كاتنكا فى عزف ذلك المستوى من المعزوفات، وقام برأسى أن الموسيقى الكلاسيكية أسهل، أو لعل ما فى تلك الموسيقى من أصالة قد استهوانى، فقررت على الفور أنى من هواة الموسيقى الألمانية العميقة، وانصرفت إلى عزف المقطوعتين اللتين تعزفهما ليوبا من تأليف بتهوفن.

وقد تكون موهبتى الموسيقية قليلة أو معدومة ولكن إحساسى بالمعانى الموسيقية الرفيعة كان مرهفًا، فكانت الدموع تطفر إلى عينى من شدة التأثر فى بعض الأحيان، ولذلك أعتقد أننى لو وجدت فى تلك الفترة من العمر من يفهمنى جيدًا أن الموسيقى غاية فى حد ذاتها وليست مجرد وسيلة لإغواء الفتيات واكتساب إعجابهن، لكان من المحتمل أن أصبح موسيقيًا لا بأس به.

* * *

وكانت الروايات الفرنسية ملهاة أخرى انصرفت إليها فى ذلك الصيف فكانت من أهم مشاغلى، وهذه الروايات كانت مما جلبه معه شقيقى فولوديا.

وفى ذلك الوقت كانت روايات مونت كريستو للمؤلف إسكندر ديما، قد بدأت فى الظهور فقرأتها باستغراق، ثم غصت فى روايات أخرى لمؤلفين فرنسيين مثل بول ديكوك، وأدمون سو، فكانت أغرب

الشخصيات وأبعدها عن المعقول والواقع، وأعجب الحوادث وأشدها أمعانًا فى الغرابة وبعدًا عن التصديق، تبدو لى حية حقيقة واقعية.

ولست أعنى أنى لم أكن أناقش صدق المؤلف أو يخالجنى الريب أنه كاذب، أنما أعنى أن المؤلف نفسه لم يكن له فى نظرى وجود، وأنما الموجود فعلًا والحى فعلًا فى كتاباته هو شخوصه التى خلقها خلقا، فكانت الحوادث والمغامرات والأقوال والأفعال تخرج إلى الحياة بين سمعى وبصرى من بين سطور الصفحات المطبوعة، ومع أنى لم ألتق فى حياتى بأشخاص يسلكون ذلك السلوك أو يقولون ذلك الكلام، إلا أنى لم أفكر لحظة واحدة فى أنهم موجودون حقًّا، أو على الأقل يمكن أن يوجدوا فى يوم من الأيام!

واكتشفت فى نفسى جميع الانفعالات والعواطف التى وصفها هؤلاء الكتاب فى أبطالهم، واكتشفت كذلك شبهًا فى طبعى بين هؤلاء الأشخاص وبينى، على تناقض طباعهم ومسالكهم، سواء منهم الأبطال أو الأنذال، ومثلى فى ذلك مثل الرجل الحساس الذى يخال لديه أعراض جميع الأمراض الممكنة حين يطالع كتابًا من كتب الطب!

وما أعجبنى فى هذه الروايات الفرنسية هو تطرفها غير المعقول فى رسم أخلاق أبطالها، فالطيب منهم طيب إلى أقصى حد، والفاسد منهم سافل إلى ما لا نهاية، وكان ذلك يطابق تصورى للناس فى باكورة شبابى.

وأسعدنى كثيرًا جدًّا أن تكون جميع هذه المؤلفات باللغة الفرنسية، مما يتيح لى أن أحفظ عن ظهر قلب الألفاظ الرنانة التى يتشدق بها أبطالها النبلاء، كى أتشدق بها أنا أيضًا يومًا من الأيام عندما تتيح لى الظروف القيام بعمل مجيد، وادخرت كمية من هذه الألفاظ والتعبيرات لاستخدمها فى مخاطبة كولبيكوف إذا شاءت الظروف أن ألتقى به يومًا ما!

واستظهرت طائفة أخرى من التعبيرات الفرنسية الرنانة لأخاطب بها فتاة أحلامى حينما تنشق عنها أستار الغيب قريبًا وأجثو أمامها لأصارحها بحبى! وحفظت طائفة ثالثة أقولها لضحايا سيفى الذين سأجندلهم صرعى فى التو واللحظة.

وأخطر تأثير لهذه الروايات الفرنسية على ذهنى أنها رسمت إلى حد كبير المثل الأعلى الذى سوف أحتذيه فى حياتى مستقبلًا، فقد قررت على ضوء هذه الروايات أن أكون نبيلًا فى جميع أعمالى وتصرفاتى، ثم يجب أيضًا أن أكون شديد الحماسة حاضر الانفعال فى جميع أقوالى وأعمالى.

ولم أزل أذكر من بين مئات الشخصيات التى التقيت بها فى تلك الروايات الفرنسية ذلك الصيف شخصية بطل غزير الحاجبين تمنيت أن أحاكيه فى مظهرى، أما فى مخبرى فقد كنت مقتنعًا تمام الاقتناع أنى أشبه ذلك البطل من غير حاجة إلى محاكاة، ولذا راودتنى نفسى يومًا وأنا أتطلع إلى حاجبى فى المرآة أن أحلقهما كى تزداد غزارة شعرهما، وتناولت المقص وبدأت أقصقص، وإذا بى أجور على

موضع دون موضع، فاضطررت إلى التسوية بين المواضع المختلفة، ولما فرغت من ذلك هالنى أن أتطلع إلى المرآة فأرى نفسى وقد خلا وجهى من الحاجبين تمام الخلاء!

وأفزعتنى صورتى القبيحة، بيد أنى عزيت نفسى بأن حاجبى سرعان ما ينبتان بصورة أغزر وأشبه ببطلى المحبوب، ولكن أقلقنى فى الوقت نفسه ما سيعلق به أفراد أسرتى على منظرى المضحك، فوضعت شيئًا من البارود على ما تبقى من شعر حاجبى وقربتهما من شمعة ومع أن البارود لم يشتعل إلا أن منظرى حمل آثارًا معقولة من الحريق.

ولم يفطن أحد إلى حقيقة فعلتى، ونما حاجباى حالًا فصارا أغزر كثيرًا من ذى قبل، ولكن بعد أن كنت قد نسيت كل شىء تقريبًا عن بطلى الهمام!

كما ينبغى

أن الجنس البشرى يمكن أن ينقسم إلى أكثر من فئة وعلى أكثر من أساس واحد، فهناك الأغنياء والفقراء، والصالحون والطالحون، والعسكريون والمدنيون، والأذكياء والأغبياء، وهلم جرا.

وكل إنسان فى الدنيا له مبدأ خاص به فى تقسيم الناس إلى فئات بحيث يضع كل شخص يلتقى به فى فئة معينة بطريقة آلية منذ أول وهلة.

وكانت وسيلتى المفضلة فى تقسيم الناس إلى فئات فى تلك الفترة من باكورة الشباب، هى تقسيمهم إلى طائفتين: من هم كما ينبغى، ومن ليسوا كما ينبغى.

أما من هم كما ينبغى، فأولئك من اعتبرهم أندادًا لى، وأما من ليسوا كما ينبغى فكنت أزدريهم فى الظاهر، وأما فى الباطن فكنت أكرههم وأحقد عليهم وأضمر لهم السوء والإهانة كان بينى وبينهم ترة شخصية.

وأحط طبقة بين من ليسوا كما ينبغى هم العامة والغوغاء فأولئك لم يكن لهم فى نظرى وجود فى عداد الأحياء.

وآية من هم كما ينبغى تتجلى على الخصوص فى المعرفة الفائقة باللغة الفرنسية، واتقان النطق بها على الخصوص إتقانًا لا تأتيه اللكنة، فمن لا يستطيع الكلام باللغة الفرنسية بطلاقة كان يثير فى نفسى على الفور شعور الكراهية فانظر إليه وكأنى أقول له:

ـ يا هذا! لماذا تريد الكلام على منوالنا وأنت لا تدرى كيف يكون الكلام بلغة السادة؟

ويأتى بعد ذلك إتقان النطق باللغة الفرنسية والحديث بها شرط ثان له أهميته وخطره، وهو أن تكون للشخص أظافر طويلة نظيفة لامعة!

وأما الشرط الثالث فإن يعرف ذلك الشخص كيف ينحنى، وكيف يرقص، وكيف يجاذب الناس أطراف الحديث السهل!

وأما الشرط الرابع الذى يأتى أخيرًا وأن لم يكن آخرًا، فعدم الاكتراث بكل شىء، وتمثيل الملل بصورة مستمرة فى رشاقة وظرف.

وإلى جانب هذه الشروط الأربعة كانت هناك علامات أخرى أستطيع بها أن أحدد فئة الرجل من غير أن أجاذبه الحديث، ومنها طبعًا خطه حين يكتب، وشكل عربته وجياده حين يركب، ونوع سجائره حين يدخن، ولكن أهم من ذلك كله منظر قدميه!

فحينما يكون الحذاء بالى الكعبين أو بارز المقدمين، كنت أعتبر الشخص من الدهماء المغضوب عليهم!

ومن الغريب حقًّا أن تلك الفكرة العجيبة سيطرت على تفكيرى ونظرتى إلى الناس وأنا فى تلك الفترة الخطيرة من عمرى، ولعل السبب فى اهتمامى بتلك المظاهر، أننى شخصيًا كنت أجد نصبًا شديدًا فى المحافظة عليها كى أبدو كما ينبغى، وأنى لأفزع الآن كلما تذكرت الوقت الثمين الذى أنفقته فى ذلك العمر لتحصيل تلك المزايا المزعومة التى كانت تبدو فى نظرى هينة، تتأتى ارتجالًا عفو الخاطر لكثيرين ممن أعرفهم وأكبرهم وأحاكيهم، مثل فولوديا ودبكوف والغالبية الكبرى من معارفنا.

كنت أتطلع إلى هؤلاء بحسد شديد وأنا أراهم ينطقون الفرنسية كما ينطقها أبناء السين، ومتى خلوت إلى نفسى رحت أجرب وأجتهد أن أحاكيهم أمام المرآة، وأقلد طريقتهم الرشيقة فى الانحناء من غير النظر إلى الشخص الذى أنحنى له، وأقلد كذلك نظرات وحركات الملل التى تدل على الدلال أكثر مما تدل على الأنفة.

وكم من وقت أنفقته فى تقليم أظافرى وتنظيفها وتلميعها، حتى أنى كثيرًا ما اقتطعت من لحمى بالمقص وأنا منهمك فى تلك العملية.

وأما عربتى وجيادى فكنت لا أدرى ماذا أصنع كى تبدو كما ينبغى حقًّا، وكان يزعجنى أن أرى تلك الغاية تتحقق لسواى من غير مجهود ظاهر.

وفى ذات مرة تغلبت على حيائى وسألت دبكوف لأنى كنت أرى أظافره على الدوام نظيفة أنيقة لامعة رغم طولها المفرط، وأقدمت على سؤاله بعد أن أعيتنى الحيل فى أظافرى العنيدة.

ـ ماذا تفعل كى تحتفظ بمظهر أظافرك أنيقًا هكذا؟

فأجابنى دبكوف ببرود:

ـ أنى لم أحاول على ما أذكر فى أى يوم من الأيام أن أعتنى بأظافرى كى أجعلها تبدو بهذا الشكل، ولم يخطر ببالى يومًا أن أظافر أى سيد يمكن أن تبدو بطبيعتها على غير هذا النحو!

وأصابتنى هذه الإجابة بجرح عميق، لأنى لم أكن أعلم وقتئذ أن الصفة الأولى من صفات من كان كما ينبغى أن يتكتم الفرد منهم مجهوداته المضنية للمحافظة على مظهره كما ينبغى!

وأضنى ما كان يضنينى أن كونى كما ينبغى لم يكن مستوى للحياة فحسب، بل شرطًا لا غنى عنه للسعادة والمجد وكل طيبات الحياة الدنيا، فكان من المستحيل أن أحترم فنانًا مشهورًا، أو عالمًا، أو محسنًا إلى الجنس البشرى ما لم يكن كما ينبغى، ومن كان كما ينبغى يتقدم عندى على الفنان والعالم والمحسن إلى البشر حتى ولو لم يكن وراء مظهره مخبر ذو خطر!

أن من كما ينبغى قد يترك لأولئك الأفذاذ رسم الصور وشفاء المرضى وتأليف الكتب وهداية الناس، وقد يثنى على عملهم ويقدره حق قدره، ولكن فى شىء من التغاضى عن هبوط مستواهم؟! فإنه لا يستطيع أن يتغاضى عن الفارق بينه وبينهم ويقف معهم على قدم المساواة، فهم ليسوا كما ينبغى، أما هو فكما ينبغى، وذلك حسبهم وحسبه من فارق عظيم!

بل أنى كنت أعتقد أن من كان كما ينبغى لو رزقه الله ـ أو على الأصح لو رزأه ـ بأخ أو أخت أو أم أو قريب ليس كما ينبغى، لكان من واجبه أن يعتبر نفسه فوقهم، فلا حيلة فى أنهم دونه قدرًا وصفة.

ولم يكن أكبر ضرر أنزلته بى هذه العقيدة الضارة ضياع وقتى وجهودى الثمينة فحسب جريًا وراء تلك الترهات، مع أن هذه الفكرة جعلتنى أكره وأحتقر تسعة أعشار الجنس البشري من غير مبرر أو شبه مبرر، بل أن الضرر الماحق الذى أصابتنى به هذه العقيدة حقًّا هو ما استقر فى روعى من أن كون الإنسان كما ينبغى فضيلة كافية ومزية وافية شافية تكفل للفتى المكانة الاجتماعية الرفيعة، فهو غنى بها عن القيام بأى عمل أو تولى أى منصب عسكرى أو مدنى أو علمى، فإن يكون كما ينبغى، تلك غاية الغايات التى تتقطع دونها الأعناق، ولا يجوز أن تطلب من ورائها أمنية أو يعقد بعدها رجاء!

أن الجنس البشرى كله كان فى نظرى مجرد قاعدة لتمثال ينصب فوق قمته، وهذا التمثال هو «من هو كما ينبغى»!

والعادة أن كل شخص يستقبل الشباب يجد نفسه فى مفترق الطرق، فعليه أن يختار لنفسه مهنة أو صناعة أو عملًا كى يقوم بدور فعال أو إيجابى فى الحياة الاجتماعية، ثم يخصص نفسه للاتجاه الذى وقع عليه اختياره، ولكن هذا السلوك يندر جدًّا فى زمنى ذاك أن يقدم عليه من هو كما ينبغى.

أن الواحد من هؤلاء كنت تراه ضخمًا فخمًا، أخاذًا براقًا، لاذع

الرأى، معتدًا برأيه، ولو انتقل إلى العالم الآخر وسأله الملائكة أو الزبانية هناك.

ـ من أنت؟ وماذا كان شأنك فى الدنيا؟ وماذا صنعت فيها وخلفت بعدك من أثر؟

لما كان جوابه إلا أن يقول:

ـ كنت هناك رجلًا كما ينبغى!

وكان هذا هو المصير الذى ينتظرنى بفضل تلك الفكرة التى سيطرت على نفسى.

الجيران

لقد أدهشنى دهشة لا مزيد عليها أن أسمع أبى فى أول يوم من أيام حلولى بالريف أن يصف آل أبيفانوف بأنهم من كرام الناس وخيارهم، وكانت غاية دهشتى لأنه ذهب لزيارتهم فى بيتهم.

وسر هذه الدهشة أنه كانت بيننا وبين آل إبيفانوف منذ زمن طويل قضية كبيرة تنظرها المحاكم، وكثيرًا ما كنت أسمع والدى قبل ذلك وأنا طفل يثور ويلعن ويسخط بسبب تلك القضية على آل أبيفانوف وأجدادهم، ويتمنى أن يحميه أحد من ظلمهم وشرهم، وكثيرًا ما سمعت ياكوف أيضًا يسميهم أعداءنا، ويصفهم بأنهم من شرار الناس، بل أنى أذكر جيدًا أن والدتى كانت تحذر الجميع من ذكر أى شىء عن هؤلاء الناس فى بيتها أو على مسمع منها.

وتأسيسًا على هذه المعلومات والذكريات كونت لنفسى فى مدة طفولتى فكرة واضحة جدًّا عن آل أبيفانوف، وبمقتضى هذه الفكرة ثبت عندى أنهم أعداؤنا، وأنهم على أهبة الاستعداد لحز رقبة والدى أو خنقه، بل وأكثر من هذا لا يتورعون عن قتل أولاده لو أنهم وضعوا أيديهم عليهم.

وبلغ من تسلط هذه الفكرة الراسخة على ذهنى أننى عندما رأيت فاسليفنا أبيفانوفنا، الملقبة بالفلمنكية الحسناء، ساهرة بجوار فراش أمى عام وفاتها، وجدت عناءً شديدًا فى تصديق ما قيل لى من أنها تنتمى إلى هذه الأسرة الشريرة التى تناصبنا العداء، وظللت على اعتقادى القديم فى إساءة الظن وبغض هؤلاء القوم.

ومع أنى التقيت بهذه الأسرة كثيرًا فى غضون ذلك الصيف، إلا أنى بقيت على سوء الظن المفرط بالأسرة كلها، والواقع أن تلك الأسرة كانت تتكون من الأم وهى أرملة فى الخمسين من عمرها بيد أنها لم تزل محتفظة بنضارتها ومرحها، ومن ابنتها الحسناء فاسليفنا، ومن ابن متعثر اللسان هو بيوتر فاسليفتش أبيفانوف، وهو ملازم متقاعد أعزب جاد فى سلوكه.

أما الأم أنا ديمتربفنا أبيفانوفنا فقد ظلت أكثر من عشرين سنة منفصلة عن زوجها قبل وفاته، وقضت هذه السنوات الطويلة مقيمة فى سان بطرسبرج أحيانًا لدى أقاربها، ومقيمة معظم الوقت فى قريتها ميتشكى التى كانت تبعد مقدار ثلاثة فراسخ عن ضيعتنا.

وكانت الأقاويل المذهلة الفظيعة تروى فى الجيرة وتتردد عن أسلوب حياتها، حتى أن الإمبراطورة الداعرة مسالينا كانت تعتبر طفلة بريئة متى قورنت بها! وعلى هذا الأساس كانت أمى تحرص على عدم ذكر اسم آل أبيفانوف ولا سيما أبيفانوفا فى بيتها.

وأننا إذا نظرنا إلى الأمر نظرة جدية واقعية مجردة من السخرية أو التهكم لوجدنا أنه من المستحيل أن نصدق جزءًا ولو معشار ما

كان يقال عن فضائحها ومباذلها الأسطورية، فمن شأن الريف أن ينهش أعراض المقيمين فيه ويتقول عليهم بما لا يخطر على عقل.

وقد عرفت أن ديمتريفنا كان لديها فى البيت مدير لأعمالها الزراعية اسمه متيوشكا، وكان هذا الشاب مرجل الشعر بالمعاجين ويرتدى ثيابًا شركسية، ويقف دائمًا وراء مقعد أنا ديمتريفنا حين تجلس إلى مائدة العشاء، فكانت تدعو ضيوفها باللغة الفرنسية فى حضوره كى يتأملوا بإعجاب عينيه الجميلتين وفمه الجذاب! ومع ذلك أحسست أن أقاويل الناس ليست على أساس صحيح، ويظهر أنها فى السنوات العشر الأخيرة، أى منذ دعت ابنها البار بيوتر لترك خدمة الجيش وملازمتها، غيرت تمام التغيير أسلوب حياتها وكانت لذتها كلها فى التطلع إلى الجمال والإعجاب به!

وضيعة أنا ديمتريفنا أبيفانوفنا صغيرة الحجم، عدد فلاحيها أرقاء الأرض لا يزيد كثيرًا على مائة عبد، وكانت نفقاتها فى حياتها الطروب المرحة باهظة، حتى استغرقت الرهون والديون الضيعة منذ عشر سنوات وصار من المنتظر طرح الضيعة فى المزاد العلنى بين لحظة وأخرى، لأن ذلك الإجراء أصبح ولا مناص منه.

وقد حاول ابنها بيوتر فاسلفتش أن يصلح الأمور قدر الاستطاعة، ومع أنه كان مرضيًا عنه جدًّا فى الجيش وينتظر له مستقبل باهر فيه، إلا أنه لم يتردد فى الاستجابة لنداء أمه وترك الخدمة وعاد إلى القرية ليحاول إنقاذ أمه من ورطتها المالية المدمرة.

ومع أن سحنة بيوتر فاسلفتش عادية لا تدل على ذكاء، وهو

خجول مضطرب فى حركاته، متعثر اللسان، إلا أنه كان رجل مبادئ، قوى العزيمة واضح الفكر، له حاسة عملية يقظة وفطنة إدارية ومالية متوقدة، فعقد قروضًا صغيرة، وأحسن الأشراف على الزراعة، وباع الجياد والعربات التى تتطلب نفقات باهظة، ولم يشجع الزوار على الحضور للإقامة فترات طويلة كما تعودوا أن يفعلوا، وأحسن القيام على حفر المصارف وبيع أشجار الغابة من غير وسطاء فنجح فى إنقاذ الضيعة من البيع، ونذر ألا يخلع ثياب المزارعين إلى أن يفى بجميع الديون المتراكمة، ونذر كذلك ألا يركب إلا ركائب الفلاحين التى تجرها البغال أو خيول الحرث.

وحاول بيوتر أن يفرض هذه الحياة الرواقية المتطرفة على أفراد الأسرة جميعًا ويطالبهم بالتقشف، ولكن إجلاله لوالدته حال بينه وبين مراده، لأنه كان يرى ذلك الإجلال واجبه الأول.

وفى قاعة الاستقبال كان يتلعثم ويظهر التذلل الشديد نحو أمه، ويلبى أتفه رغباتها، ويقرع جميع من لا ينفذون إرادة أنا ديمتريفنا، ولكنه حين يذهب إلى مكتبه كان يستأدى الجميع حسابًا عسيرًا جدًّا عن أتفه النفقات، ولو كان ذلك تقديم بطة على المائدة من غير أمر صريح منه، أو ذهاب الفتيات الفلاحات إلى الغابة لإحضار الزهور البرية لوالدته بدلًا من العمل فى الحقل.

وتمكن بيوتر فاسلفتش من الوفاء بجميع الديون فى مدى ثلاثة أعوام، وسافر إلى موسكو لشطب الرهون، ثم عاد من هناك فى ثياب أنيقة مما يلبسه السادة، ولكنه على الرغم من ازدهار الأحوال ظل

يتبع فى حياته ذلك الأسلوب المتقشف الذى يظهر أنه تعوده وصار يفخر به أمام أفراد أسرته وأمام الغرباء، حتى أنه كان يقول بطريقته المتلعثمة:

ـ من أراد منكم أن يرانى حقًّا على صورتى الواقعية سيسره أن يرانى فى سترتى المصنوعة من فراء الأغنام ويأكل معى فى الحقل من مأكلى الخشن، فإنى آكل من طعام الفلاحين!

وكان ينطق كل حرف من هذه الكلمات بافتخار شديد، ومرجع ذلك إلى شعوره بأنه ضحى براحته ورفاهيته ومستقبله فى سبيل أمه، فاستنقذ الضيعة، وهو فى الوقت نفسه يعرض بسلوك أعضاء الأسرة الآخرين بل وبغيره من الملاك الذين لا يقدرون على شىء من ذلك.

وأما والدته وأخته فكانت سجاياهما مختلفة تمام الاختلاف عن سجاياه وطباعه، وفى الوقت نفسه تختلف طباع الأم عن طباع الابنة من وجوه شتى، فالأم مرحة فى المجتمعات لا تفارقها البشاشة وتبتهج لكل ما هو سار مطرب، ويفرحها على الخصوص أن ترى الشباب يمرحون، ولديها قدرة عظمى على مشاركة هؤلاء الشبان الأحداث والفتيات الصغيرات فى مسراتهم البريئة الخلية البال، وهى آية على طيبة القلب.

أما ابنتها فاسليفنا فكانت على عكسها أميل للجد، أو على الأصح من ذوات الطبائع الحالمة مع ترفع مشوب بعدم الاكتراث، شأن الحسان اللواتى لم يتزوجن، وعندما كانت تحاول المرح، كان مرحها يبدو عجيبًا كأنما هى تضحك على نفسها أو من نفسها، أو

ممن تتحدث إليهم، مع أنها لا ترمى إلى شىء من ذلك، وكثيرًا ما أدهشنى أن أسمعها تقول عبارات غريبة لم أستطع أن أفهم تأويلها ولا ماذا تعنى بها، من قبيل:

ـ طبعًا أنا جميلة جدًّا، طبعا الجميع يعشقوننى، إلخ.

وكانت أنا ديمتريفنا والدتها نشطة دائمة الحركة، مولعة بتدبير المنزل والإشراف على الحديقة ورعاية الأزهار وطيور الكنار وسائر الأشياء الجميلة، ولم تكن الحديقة أو حجرات الدار شديدة الاتساع والفخامة، ولكن كل شىء كان جميلًا أنيقًا منسقًا يوحى بالسرور والتفتح للحياة، وكانت أحب المعزوفات إليها هى الفالس والبولكا.

والحقيقة أن هذه السيدة كانت بقامتها النحيلة ووجهها المشرق ويديها الصغيرتين الجميلتين وأناقة هندامها أشبه بالدمى، وكل شىء فى حديقتها وبيتها شبيه مثلها بالدمى، ولم يكن يغير من هذا الأثر سوى ظهور العروق الزرقاء النافرة فى يديها الصغيرتين.

أما ابنتها فاسليفنا فكانت على عكسها لا تكاد تقوم بعمل من الأعمال، فهى لا تهتم بالبيت أو الحديقة أو الأزهار فحسب، بل ولا تكاد تهتم أيضًا بمظهرها، فكانت تضطر كلما حضر الضيوف إلى الدار إلى الاختفاء كى ترتدى ثوبًا مناسبًا، ولكن ما أن تعود إلى الحجرة وقد ارتدت ثيابها، حتى تبدو جميلة جمالًا خارقًا، فيما عدا نظرة عينيها الباردة التى لا تتغير، وابتسامتها التى تكاد تكون ابتسامة منحوتة على وجه تمثال جميل!

أن ملامحها المتناسقة فى دقة صارمة، ومحياها الجميل، وقامتها المهيبة كأنها تقول لك على الدوام:

ـ لك أن تنظر إلىَّ، ما دام ذلك يطيب لك.

وعلى الرغم من مرح الأم وشرود الابنة وعدم اكتراثها، كان هناك شىء خفى يوحى إليك أن الأم لم تحب فى حياتها السابقة أو الراهنة سوى الجمال والمرح، وأن فاسليفنا ابنتها من تلك النفوس التى متى أحبت مرة فى العمر ضحت حياتها كلها فى سبيل ذلك المحبوب الفريد.

الفصل الرابع

زواج أبى

كان أبى فى الثامنة والأربعين من عمره عندما اتخذ فاسليفنا أبيفانوفنا زوجة ثانية له.

وفى اعتقادى، على حد تصورى، أن والدى عندما جاء بمفرده فى الربيع إلى الريف مع الفتيات كان فى حالة نفسية من حالات السعادة العصبية التى تميل بصاحبها إلى الألفة والمخالطة، وهى حالة تنتاب المقامرين عادة عندما يكفون عن المقامرة بعد حصولهم على أرباح ضخمة منها، فشعر أنه لم يزل فى خزانة القدر له رصيد كبير من حسن الحظ لم يستنفده بعد، وما دام لا يريد أن يبعثره فى المقامرة، فمن حقه أن يستغله فى وجه آخر من وجوه التوفيق فى الحياة بصورة عامة.

وفضلًا عن ذلك كان الوقت مناسبًا لإذكاء العواطف، فهذه من صفات فصل الربيع الملازمة، وكان تحت يده مبلغ طائل من المال على غير انتظار، وهو فى وحدة تامة تبعث على الوحشة والسأم.

وأنى أتصوره يتباحث مع وكيله ياكوف ويتذكران القضية التى

تقادم عليها العهد بينه وبين آل أبيفانوف، فاستحضر فى ذهنه صورة الحسناء فاسليفنا التى لم يرها منذ أمد طويل، فقال لياكوف:

ـ ما رأيك يا ياكوف؟ أنى أرى من الأفضل حسمًا لهذا النزاع المزعج أن نترك هذه القطعة المنكودة من الأرض التى كانت سبب الخصومة تذهب إلى الشيطان، ما رأيك؟ هه؟

وأتصور أيضًا أصابع ياكوف وهى تتلوى فى تشنج وراء ظهره علامة على المعارضة، ثم محاولته إثبات أن الحق فى هذه القضية بجانبنا، بيد أن أبى أمر بإعداد العربة على الفور، وارتدى حلته الزيتية اللون التى فصلها على آخر طراز، ثم رجل البقية الباقية من شعر رأسه، وشعشع منديله بالعطر النفاذ، فداخله السرور والإعجاب بنفسه لاعتقاده بأنه على وشك القيام بتصرف نبيل ينم عن الارستقراطية وترفعها، وأيضًا على الخصوص أملًا منه فى أن يرى امرأة جميلة.

وهكذا ذهب أبى لزيارة جيرانه.

وقد علمت أن أبى فى هذه الزيارة الأولى لم يقابل بيوتر فاسليفتش الضابط المتقاعد لأنه كان على عادته يقوم بالإشراف على الأعمال الزراعية فى حقوله، فقضى ساعة أو ساعتين فى صحبة السيدتين.

وأستطيع أن أتصوره يتدفق ظرفًا وتوددًا حتى سحرهما وهو يدق الأرض بنعليه الرقيقين ويهمس فى نعومة ويرمقها بنظراته الغزلة، وأستطيع أن أتصور أيضًا السيدة الضئيلة المرحة العجوز وقد داخلها ميل مفاجئ إليه، أما ابنتها الحسناء الفاترة الطبع فدبت فيها الانفعالات الجياشة بصورة لم تألفها.

وعندما ذهبت الخادمة تجرى بأقصى سرعتها كى تخبر بيوتر فاسليفتش أن جاره الكبير حضر بنفسه للزيارة، فإنى أتخيله يجيبها بغضب:

ـ وماذا فى ذلك؟ ولماذا جاء؟

ولكن فى الوقت نفسه اضطر لذلك السبب أن يعود إلى البيت، فى تباطؤ، ولعله عرج فى الطريق على مكتبه ليرتدى عمدًا معطفه القديم القذر، وليرسل إلى الطباخ يخذره مهما كانت الأحوال أن يضيف شيئًا إلى الطعام المعد لغداء ذلك اليوم، حتى ولو أمرته السيدتان بذلك.

* * *

وقد رأيت أبى كثيرًا فيما بعد فى صحبة آل أبيفانوف، وفى صحبة بيوتر أيضًا، ولذا أستطيع أن أكون فكرة حية عن اللقاء الأول بينهما، وأنى أتخيل الأمر على هذا الوجه: فعلى الرغم من أن والدى عرض عليه أنهاء القضية بالطريق الودى، ألا أن بيوتر فاسليفتش لم يقابل ذلك العرض بالبشر بل بالتبرم والضيق، فهو رجل قد ضحى بمستقبل حياته كله فى سبيل أمه، أما والدى فلم يضح بشىء فى عمره كله فى سبيل أحد.

واخال أبى تجاهل تجهم بيوتر فاسيلفتش، واستطرد فى إشاعة المرح والدعابات، ولعله عابث بيوتر فاسليفتش متندرًا، ولا شك أن ذلك لم يرق لبيوتر بيد أنه اضطر لمجاراته على مضض.

ولسبب ما كان والدى على سجيته المألوفة فى المزاح ينادى بيوتر

فاسليفتش بلقب الكولونيل، ومع أن بيوتر كان يحمر حرجًا وضيقًا ويتلعثم لسانه أكثر من مألوفه فى التلعثم، ومع أننى سمعته يعترض ذات مرة فى حضورى على تلك التسمية مذكرًا أبى بأنه:

ــ ليس كو... لو... نيلا، بل بلاء... زم!

إلا أن أبى عاد إلى مناداته بالكولونيل بعد أقل من خمس دقائق!

وأخبرتنى ليوبوشكا أنه قبل وصولنا إلى القرية أنا وأخى كانت هناك مقابلات يومية مع آل أبيفانوف وتوثقت العلاقة كثيرًا، وتفنن أبى على عادته فى تنظيم جميع أموره تنظيمًا فنيًا يتصف بالأصالة والمرح والدعابة والأناقة، فأقام حفلات صيد فى البر وفى النهر، وأقام فى الليل ألعابًا نارية باهظة التكاليف حضرها آل أبيفانوف، وأكدت لى ليوبا أن الأمور كانت حرية أن تكون ألطف، والمناسبات أظرف وأمتع لولا وجود ذلك العتل بيوتر فاسليفتش الذى كان يقطب وجهه دائمًا ويتلعثم ويفسد بانقلاب سحنته كل شىء.

وبعد وصولنا أنا وأخى حضر آل أبيفانوف لزيارتنا مرتين فقط، وذهبنا نحن لزيارتهم مرة واحدة، وبعد الاحتفال بعيد القديس بطرس وهو العيد الخاص بأبى، وبمناسبته حضر آل أبيفانوف مع كثيرين غيرهم للتهنئة، انقطعت علاقتنا كل الانقطاع بآل أبيفانوف، وصار أبى يتوجه لزيارتهم بمفرده.

وخلال الفترة القصيرة التى أتيح لى فيها أن أرى والدتى وفاسليفنا التى تدللها أمها فتسميها دونشكا، لاحظت أن أبى كان سعيدًا جدًّا يفيض بالبشر على الحالة التى وجدته بها يوم وصولى، فهو يتدفق

شبابًا وسرورًا ويفيض بالحياة والسعادة، حتى أن سعادته كانت تغمر جميع من حوله فيشاركونه أياها مندفعين مع تيارها.

وعندما تكون دونشكا فى حجرة من الحجرات لا يمكن أن يغادرها أبى ولو خطوة واحدة، ويظل يمطرها بالتحيات والثناء العذب الرقيق حتى أننى كنت أشعر بالخجل له، لأنه كان يحملق فيها طول الوقت صامتًا، أو يسعل ثم يهمس فى أذنها باسمًا، بيد أنه كان يفعل ذلك كله بطريقته الهازلة الخاصة به حتى وهو يعالج أشد الموضوعات جدية وخطورة.

أما دونشكا فاسليفنا فبدا لى أن سعادة أبى سرت إليها بطريق العدوى، فتوهجت عيناها الزرقاوان الواسعتان توهجًا يكاد يكون مستمرًا، باستثناء تلك اللحظات التى كانت تنتابها فيها فجأة نوبات من الحياء حتى أننى كنت أتألم مشاركة لها فى الألم، لأنى كثيرًا ما أعانى من ذلك الشعور، فكنت أتأذى عندئذ من النظر إليها، ويلوح أنها فى تلك اللحظات تشعر بالوجل والخوف من كل نظرة ومن كل حركة، ويخيل إليها أن كل إنسان يتطلع إليها ولا يفكر ألا فيها ويستنكر كل شىء يتصل بها، فتنظر إلى الجميع نظرات خجلى، والحمرة والشحوب يتقاسمان محياها مرة بعد مرة، لغوا فى معظم الأحيان، وتشعر بتفاهة ما تقول، وتشعر فى الوقت نفسه أن الجميع بما فيهم أبى كانوا منصتين لكلامها، فيزداد خجلها أضعافًا.

وفى تلك الأوقات كان أبى لا يفطن إلى تفاهة الكلام، ويستمر فى سعاله العصبى الخفيف، وهو يكاد يأكلها بعينيه من فرط السرور والنشوة.

ولاحظت أنه على الرغم من إصابة دونشكا بنوبات الخجل من غير مناسبة أو سبب أحيانًا، إلا أن هذه النوبات كانت تنتابها دائمًا على أثر ذكر أية امرأة شابة جميلة أمام أبى، ولاحظت كذلك أنها أصبحت تستعمل اصطلاحات أبى الخاصة به فى الكلام والدعابة، مما كان حريا أن يدلنى على نوع العلاقة التى نشأت بين أبى وفاسليفنا، لو أن مكان أبى أى رجل آخر، أو أو كنت أكبر سنا فى ذلك الحين. ولذا لم يخامرنى الريب فى شىء، حتى عندما تلقى أبى فى حضورى خطابًا من بيوتر فاسليفتش، وظهر الاستياء الشديد والكدر على وجهه بعد قراءته، ثم قطع زياراته إلى دار آل أبيفانوف حتى نهاية شهر أغسطس.

وفى نهاية شهر أغسطس عاد أبى إلى استئناف زياراته لجيراننا، وفى اليوم السابق لرحيلى أنا وفولوديا إلى موسكو أخبرنا أنه بسبيل الزواج من فاسليفنا أبيفانوفنا.

كيف تلقينا النبأ؟

علم كل من فى البيت النبأ قبل إعلانه بيوم، وأخذوا جميعًا يتناقشون فيه، فأما ميمى فأنها لزمت حجرتها طول النهار وظلت تبكى، وجلست كاتنكا معها فلم تخرج ألا لتناول الغداء وعلى محياها آيات الامتعاض التى لاشك أنها استعارتها من أمها، وأما ليوبا فإنها على العكس كانت مرحة للغاية، وقالت ونحن على مائدة الغداء أنها تعرف سرًا بديعًا ولكنها لن تفضى به لأحد، فقال فولوديا:

ـ ليس فى سرك ما يجيز لك وصفه هذا الوصف المسرف.

وكان أخى لا يشارك ليوبا رضاها عن الموضوع، ولم يكفه ما قال تلميحًا، فاستطرد يقول بصراحة:

ـ بل أن الأمر بالعكس تمامًا، ولو كانت لديك ذرة من التفكير السليم الجاد لأدركت أنه شىء يؤسف له جدًّا، بلاء كبير!

فحملقت ليوبا فى أخيها بدهشة فائقة ولم تقل شيئًا.

وبعد الغداء أراد فولوديا أن يتأبط ذراعى، ولكنه خشى فيما يظهر

أن يبدو ذلك السلوك منه فيفسر على أنه تميع عاطفى، فاكتفى بأن لمس مرفقى وأومأ لى نحو البهو، فتبعته إلى هناك.

ولما اطمأن إلى أننا هناك وحدنا قال لى:

ـ أتعرف السر الذى أشارت إليه ليوبا؟

وكنا قلما نتحدث أنا وفولوديا عن شىء وجهًا لوجه، ولا سيما فى الأمور الجدية، لأنه لم يكن قبل ذلك يعتبرنى أهلًا لهذا، ولذا شعر كلانا بشىء من الارتباط والحرج، بيد أنه ثبت نظراته فى عينى جادًا كأنه يقول:

ـ ليس هناك ما يستدعى هذا الفزع، ولكننا أخوان قبل كل شىء ولذا ينبغى أن نتشاور معًا فى أمور الأسرة ذات الخطر.

وأدركت مراده فهدأت نفسى، واستطرد يقول:

ـ والدنا بسبيل الزواج من أبيفانوفنا، أتعلم هذا؟

فأومأت برأسى أن نعم، لأنى كنت قد سمعت بالنبأ، فقال:

ـ ليس هذا مستساغًا.

ـ لماذا؟

فحملق فولوديا فى وجهى وقال بارتباك وإنكار:

ـ أتقول لماذا؟ طبعًا سيكون من محاسن التوفيق أن ننادى يا خال هذا المتلعثم، الكولونيل الفاشل، وأن يصبح من ذوي قربانا بقية أفراد الأسرة الميمونة! أجل أنها تبدو الآن طيبة رحيمة ولا بأس بها، ولكن

من ذا الذى يدرى إلى أى حال ستنقلب؟ وتذكر أن الأمر إذا كان لا يعنينا كثيرًا أنا وأنت، أن ليوبا يجب أن تظهر فى المجتمعات بعد زمن قريب، وهذا ليس مستحبًا جدًّا عندما يرى الناس لها زوجة أب من هذا الطراز لا تحسن الكلام باللغة الفرنسية تمامًا، ثم أى تهذيب ذلك الى ستلقنه إياها؟! أنى أرى أن هذه المرأة عثرة فى طريقنا وطريق أختنا، وغير جديرة بأبينا.

وتعجبت جدًّا لسماع فولوديا ينتقد اختيار أبيه بهذا الهدوء والثبات حتى وقع فى روعى أنه محق، وسألته:

ـ ولماذا يقدم أبى على الزواج؟

ـ أنها قصة عجيبة، والله أعلم بالسبب الحقيقى، وكل ما أعلمه شخصيًا أن بيوتر فاسليفتش أخاها أقنعه بالزواج منها وطالبه بذلك، وكان أبى غير راغب ثم راقت له المسألة بدافع النخوة على نحو ما، أنها قصة عجيبة حقًّا وقد بدأت الآن فقط على ضوئها أفهم أبى، وأراه رجلًا ممتازًا جدًّا طيب القلب ذكيًا، بيد أنه نزق متقلب، وذلك يدعو للعجب حقًّا! أنه لا يستطيع أن ينظر إلى امرأة وهو متمالك جأشه، وأنت لا شك تعلم أنه ما من امرأة تعرف عليها إلا ووقع فى هواها، حتى ميمى!

ـ ماذا تعنى؟

ـ لقد اكتشفت أخيرًا أنه كان يحب ميمى عندما كانت صغيرة وكتب فيها شعرًا كان يرسله إليها، بل وكانت بينهما أشياء، ولم تزل ميمى تعانى من عواقب هذه العلاقة إلى يومنا هذا!

ثم انطلق فولوديا ضاحكًا، فقلت له فى دهشة:

ـ لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو!

فاستطرد فولوديا وقد عاد إلى الجد، وشرع يتكلم فجأة باللغة الفرنسية:

ـ ولباب المسألة كلها أن هذا الزواج سيزعج ويؤذى جميع أقاربنا! ثم أنها حتمًا ستنجب أطفالًا...

ووجدت فولوديا يتكلم بحصافة أذهلتنى فلم أدر ماذا أقول، وفى هذه اللحظة اقتربت منا ليوبا وسألت ووجهها يفيض حبورًا:

ـ أذن كنت تعلم؟

فأجاب فولوديا قائلًا:

ـ أجل، ولكنى فى دهشة من أمرك يا ليوبا، فأنت قد تجاوزت سن الطفولة، فكيف يمكن أن تشعرى بالسرور لأن والدنا بسبيل الزواج من هذه النفاية المرذولة؟

فظهر الجد على وجه ليوبا فجأة وقالت:

ـ يا فولوديا! أتقول أنها نفاية مرذولة؟ كيف تجسر أن تقول هذا عن فاسليفنا؟ وما دام أبى بسبيل الزواج منها، فهى لا يمكن أن تكون نفاية مرذولة؟

ـ هذا مجرد تعبير، ومع ذلك...

فقاطعته ليوبا ثائرة:

ـ لا مع ذلك هناك! أنك لم تسمعنى فى يوم من الأيام أقول عن الفتاة التى تحبها أنها نفاية مرذولة، فكيف تطلق هذا الوصف على والدنا وعلى امرأة ممتازة؟ لا تلق هذا على مسامعى حتى ولو كنت أخى الأكبر!

ـ أليس لى أن أعبر عن رأيى فى...

فقاطعته ليوبا مرة أخرى صائحة:

ـ كلا، ليس فى أب كأبينا! قد تفعل ذلك ميمى، أما أنت أخى فولوديا فلا ثم لا.

فقال فولوديا بازدراء:

ـ أنك لا تفقهين شيئًا، ليس هذا بعد فى استطاعتك، اسمعى: هل ترين جميلًا ومستساغًا أن هذه الأبيفانوفنا، دونشكا! تحتل المكان الذى كانت تشغله أمك الراحلة؟

فلزمت ليوبا الصمت دقيقة، ثم تحدرت الدموع فجأة من عينيها، وقالت:

ـ لقد كنت أعرفك مغرورًا، ولكنى لم أكن أعرفك شريرًا هكذا!

ثم غادرتنا فقال فولوديا وهو يقلب سحنته بصورة مضحكة:

ـ هذا جزاء من يحاول مجادلتهن بالمنطق!

فكأنه يلوم نفسه لأنه هبط سهوًا إلى مجاذبة ليوبا الحديث!

* * *

وفى اليوم التالى كان الجو سيئًا، ولم ينزل أبى ولا الفتيات لتناول الشاى عندما دخلت حجرة الاستقبال، وكان المطر قد انهمر طول الليل، ولكن السحب التى أفرغت ما فى جوفها ظلت تلبد السماء وتحجب قرص الشمس الذى ارتفع فى الأفق مؤذنًا بحلول الضحى، وكانت الريح تهب رطبة عنيفة باردة، ومن الباب المفضى إلى الحديقة رأيت المطر متجمعًا على السلم، والهواء يعبث بالباب المفتوح ويحركه جيئة وذهابًا، وأغصان السرو العالية البيضاء تتناوح فى حفيف تحمله الرياح كأنه موسيقى واجمة.

وكانت أفكارى مشغولة بزواج أبى الثانى من وجهة النظر التى أبداها فولوديا، ورأيت مستقبل أختى ومستقبلنا، بل ومستقبل أبى، لا يبشر بالخير، وأزعجنى جدًّا أن امرأة غريبة دخيلة، ولا سيما لأنها شابة، تحتل مكانًا لا حق لها فيه، ومكان من؟!

أنها سيدة شابة عادية جدًّا، فكيف تحتل مكان أمى الراحلة؟! وثقل قلبى بالهم، وتراءى أبى فى نظرى آثمًا يجترح أمرًا عظيمًا.

وفى هذه اللحظة سمعت صوته وصوت فولوديا يتحدثان فى حجرة أخرى، ولم أشأ أن أرى أبى فى تلك اللحظة، فخرجت من الباب إلى الحديقة، وإذا ليوبا تلحق بى وتخبرنى أن أبى يطلبنى.

وعدت إلى حجرة الاستقبال فوجدته واقفًا وقد أرسى إحدى يديه على البيانو وهو ينظر إلى جهتى بصبر نافد، ولكن فى الوقت عينه بزهو الانتصار، وكانت إمارات الشباب والسعادة التى لاحظتها على محياه طوال تلك الفترة قد فارقته، فبدا مضطربًا.

ورأيت فولوديا يتجول فى القاعة وفى يده غليونه، فاتجهت نحو أبى وألقيت عليه تحية الصباح، فقال بحزم وهو يرفع رأسه ويخرج الكلام من فمه بتلك اللهجة السريعة التى يستخدمها المرء للإفضاء بأنباء لا محل للشك فى غضاضتها، ألا أنه لا حيلة فى تداركها.

ـ أنتما تعلمان أذن ـ فيما أعتقد ـ أيها الصديقان أنى بسبيل الزواج من فاسليفنا أبيفانوفنا...

ولزم الصمت برهة ثم استطرد:

ولم تخامرنى الرغبة إطلاقًا فى الزواج بعد أمكما ولكن...

وصمت برهة ثم استطرد:

ـ ولكن هذه إرادة القدر، ودونشكا فتاة لطيفة عطوف لم تعد فى باكورة الشباب، وفى مرجوى أن تحباها، أما هى فتحبكما من صميم قلبها فهى امرأة صالحة طيبة القلب، والآن...

ثم اتجه إلينا بوجهه حتى لا يتيح لنا فرصة مقاطعته واستطرد بسرعة:

ـ آن لكما أن ترحلا من هنا، أما أنا فسأبقى إلى بداية العام الجديد، وعندئذ سآتى إلى موسكو...

وتردد مرة أخرى برهة قصيرة ثم جمع رأيه وقال:

ـ ومعى زوجتى وليوبا!

وآلمنى جدًّا أن أرى أبى يبدو أمامنا نحن ابنيه خجولًا متأثمًا،

فخطوت مقتربًا منه، أما فولوديا فظل يدخن غليونه ويذرع القاعة مطاطئ الرأس، وقال أبى مختتمًا، وقد احمر وجهه وأخذ يسعل سعاله العصبى:

ـ وهذا أيها الصديقان ما قرره والدكما العجوز.

ثم شد على يد فولوديا ويدى، ولمحت الدموع فى عينيه وهو يتكلم، ولاحظت أن اليد التى مدها إلى فولوديا الذى كان فى تلك اللحظة فى أقصى الغرفة كانت ترتعد قليلًا... فحزت فى نفسى رجفة تلك اليد، وخطر لى خاطر غريب أزعجنى جدًّا: إذ تذكرت أن هذا الأب كان فى الجيش حتى سنة ١٨١٢ وكان ضابطًا شجاعًا مشهودًا له بالبسالة...

وأبقيت يده الكبيرة القوية فى يدى، وأهويت عليها أقبلها، فشد على يدى بقوة، وأرسلت عيناه دمعهما، وانقض فجأة على رأس ليوبا الفاحم بكلتا يديه ثم انكب عليها يقبل عينيها.

وتظاهر فولوديا بسقوط غليونه، ثم انحنى على الأرض فمسح على عينيه بقبضة يده ثم غادر الحجرة بسرعة، مجتهدًا ألا يفطن أحد لخروجه.

الجامعة

كان المقرر أن يتم القران فى مدى أسبوعين، بيد أن محاضراتنا فى الجامعة كانت قد بدأت، فرحلت أنا وفولوديا عائدين إلى موسكو فى بداية شهر سبتمبر، وكان آل نخليودوف قد عادوا كذلك من مقرهم الريفى، وكنت قد وعدت ديمترى كما وعدنى أن نتراسل فى مدة الصيف، وبطبيعة الحال لم نتراسل ولو مرة واحدة!

وبمجرد وصولى حضر ديمترى لزيارتى، وقررنا فى ذلك اليوم أن نذهب فى اليوم التالى إلى الجامعة، كى أحضر أولى محاضراتى فيها.

وكان اليوم التالى يومًا صحوًا ساطع الشمس.

وما أن دخلت المدرج حتى شعرت أن شخصيتى تلاشت فى ذلك الحشد من الشبان المرحين الذين يتحركون فى جلبة شديدة مخترقين الأبواب والدهاليز فى ضوء الشمس الساطعة، وكان إحساسى بأنى عضو فى هذه الجماعة الكبيرة سببًا فى ارتياحى وسرورى، بيد أن نفرًا قليلًا جدًّا من جميع هؤلاء الأفراد من كنت أعرفهم من قبل، وكانت هذه المعرفة محدودة بإيماءة من الرأس وتحية عابرة

بكلمة أو كلمتين. ولكن جميع من حولى كانوا يتصافحون بالأيدى ويتبادلون الحديث وألفاظ الصداقة، والابتسام، والمداعبة، من غير تكلف أو احتشام، فداخلنى على الفور الإحساس بتلك الرابطة التى تربط هذه الجماعة من الشباب على اختلاف أعضائها، وأدركت فى أسف وأسى أن هذه الرابطة فاتتنى على نحو ما بسبب دراستى الفردية المنزلية، ألا أن ذلك الأسى لم يكن ألا إحساسًا وقتيًا عابرًا لم يلبث أن انقضى، فإننى سرعان ما استشعرت الارتباك والخجل من هذه المخالطة، ففطنت على الفور إلى حسن حظى لأن ظروفى جنبتنى الحياة فى تلك المجتمعات الصاخبة من قبل، وقررت على الأثر أنه ينبغى أن تكون لى دائرة صغيرة خاصة من خيار الشبان لا آلف أحدًا خارجها.

واتخذت مجلسى فى الصف الثالث حيث جلس الكونت ب، والبارون ز، والأمير ر، وأيفين، وشبان آخرون من طلبة الفرقة لم أكن أعرف منهم سوى أيفين والكونت.

ومن الطريقة التى رمقنى بها هؤلاء السادة جيرانى الذين لا أعرفهم، أحسست أننى لست من قبيلهم، كما أنهم ليسوا من قبيلى، وشرعت أوجه انتباهى لملاحظة كل ما يجرى حولى، فرأيت سمينوف بشعره الأشيب المشعث وأسنانه البيضاء ومعطفه المفكوك الأزرار، جالسًا غير بعيد منى، متكئًا على مرفقيه، يعض قلمه، أما الطالب الذى كان ترتيبه على رأس الناجحين فى امتحان القبول فقد رأيته جالسًا فى الصف الأول، وعنقه لم يزل ملفوفًا فى الوشاح

الأسود، يعبث بمفتاح ساعة من الفضة فى قماش سترته اللامعة، أما أيكونين الذى جاهد جهادًا عنيفًا كى يدخل الجامعة، فرأيته فى قمة المدرج من الخلف فى أعلى صف، وقد ارتدى بنطلونًا أزرق يخفى حذاءه إخفاء تامًا، وسمعته يقهقه ضاحكًا ويصيح متهللًا لأنه جالس فوق جبل البرناسوس.

وبعد قليل دخل أيلنكا، فأدهشنى أن يحيينى لا ببرود فحسب، بل وبتحد كأنه يريد أن يذكرنى تذكيرًا خاصًا بأننا جميعًا فى هذا المكان على قدم المساواة، ولذا جلس أمامى مباشرة ثم رفع ساقيه النحيفتين فوق المقعد بطريقة مستهترة أعتقد أنه تعمدها من أجلى، وجعل يثرثر مع طالب آخر، وهو يرمقنى بين الحين والحين بنظرات عرضية.

وأما مجموعة أيفين الجالسة بجوارى فكانوا يتكلمون الفرنسية، ولا شك أن هؤلاء السادة كانوا أغبياء بدرجة مذهلة، فكل كلمة نطقوا بها فى حديثهم ووصلت إلى أذنى، لم تكن خاطئة فحسب، ولا هذيانًا فارغًا فحسب، بل لم تكن من اللغة الفرنسية إطلاقًا.

وبدأ صدرى يضيق بين جهل هؤلاء السادة وبين السلوك غير اللائق الذى بدا من أقول وتصرفات سمينوف وأيلنكا وغيرهما، وصار واضحًا لدىَّ أنى لا أنتمى لأية مجموعة من هؤلاء، ولشعورى بالعزلة وعجزى عن تكوين صداقات فى تلك البيئة، بدأت أضيق بها.

ورأيت طالبًا فى الصف الذى أمامى مباشرة يقرض أظافره، وجميع أنامله محمرة من إدمانه لتلك العادة، وهى عادة أتقزز منها جدًّا حتى أننى ابتعدت عن الموضع الذى يجلس فيه، وكان هذا اليوم الأول فى الجامعة فيما أذكر يومًا أسيفًا تألمت له فى أعماق سريرتى.

ولما دخل الأستاذ فشت الهمهمة بين الجميع ثم ساد الصمت، وأذكر أن سخريتى ونظريتى المستهزئة إلى جميع الأشياء التى حولى، شملت الأستاذ أيضًا، وأدهشنى أن الأستاذ بدأ محاضرته بعبارة تمهيدية لم يكن لها فى نظرى أى معنى، وكنت أريد من المحاضرة أن تكون رصينة سدادها ولحمتها الحكمة من بدايتها إلى المنتهى، بحيث لا يمكن أن تقتطع منها كلمة أو تضاف إليها لفظة، ولما خاب أملى من هذه الوجهة، شرعت على الفور أخطط ثمانية عشر رسمًا كروكيًا جانبيًا للأستاذ فى كراسة المحاضرات التى أحضرتها معى، وتربط بين هذه الرسوم دائرة، وجعلت عنوان اللوحة «المحاضرة الأولى»، واكتفيت بأن أحرك قلمى تحريكًا ظاهريًا على الورقة بين الحين والحين حتى ينخدع الأستاذ ويظن أننى أكتب ما يقول، وكنت مقتنعًا أنه يوجه إلىَّ انتباهه بصفة خاصة.

وفى أثناء هذه المحاضرة نفسها قررت أنه ليس من الضرورى على الإطلاق أن أسجل كل كلمة يقولها كل أستاذ، فإن ذلك سيكون عملًا ينطوى على البلاهة، وقد نفذت هذا العزم طول مدة دراستى الجامعية.

وفى المحاضرات التالية خف إحساسى بالعزلة والدهشة وتعرفت بطلاب كثيرين وتعودت المصافحة والثرثرة، ولكن لسبب ما لم تنشأ بينى وبين زملائى ألفة حقيقية، وكثيرًا ما وجدت نفسى مستوحشًا مكتئبًا أتصنع المرح والبشاشة.

ولم يكن فى مقدورى أن أنضم إلى حفنة أيفين والارستقراطيين

كما كانوا يسمونهم، لأنى كما أتذكر الآن كنت فظًا غليظًا فى معاملتهم، جافيًا لهم لا أنحنى لتحيتهم إلا إذا انحنوا لى هم أولًا، وبطبيعة الحال لم تكن بهم حاجة شديدة إلى عقد أواصر المعرفة بينى وبينهم.

أما بالنسبة للمجموعات الأخرى، فإن الحواجز بينى وبين معظمهم قامت لسبب آخر، فإننى ما أن أحس أن زميلًا قد بدأ يميل إلى ويودنى، حتى أفهمه على الفور أننى تغديت على مائدة الأمير إيفان أيفانتش، وأن لى مركبة خاصة بى، وكنت أقول له ذلك على أمل أن أبدو فى نظره أجدر بتقديره ومودته، فيزيد من حبه لى، ألا أن النتيجة كانت لدهشتى العظيمة تأتى على عكس ذلك تمامًا، فينقلب هذا الصديق إلى الفتور والترفع بمجرد سماعه بصلتى بالأمير إيفان أيفانتش والقرابة التى تربط هذا الأمير بعائلتنا.

وكان فى فرقتنا طالب يتعلم على نفقة الدولة هو الشاب أوبيروف وهو فتى متواضع على درجة عظيمة جدًّا من الكفاءة، ومجتهد غاية الاجتهاد، وكان من عادته دائمًا أن يمد إلى كل إنسان يدًا متصلبة كأنها لوح من الخشب، فلا يحنى أصابعه عند المصافحة ولا يهز يده أو يأتى بأية حركة، حتى أن الهازلين من بين زملائه كانوا يصافحونه بالطريقة نفسها، وأطلقوا على هذه الطريقة اسم «المصافحة بأسلوب الألواح».

وكنت فى الأغلب الأعم أجلس بجوار أوبيروف، وأتحدث إليه كثيرًا، وكان أوبيروف يروقنى على الخصوص لآرائه الحرة فى

الأساتذة، فكان يعرفنى فى وضوح كبير ودقة بالغة بمزايا دروس كل أستاذ وعيوبها، وكثيرًا ما كان يسخر منهم سخرية تترك فى نفسى أثرًا غريبًا مدهشًا، لخروجها من فمه المفرط فى الصغر وبصوته الهادئ الخافت.

ومع هذا الرأى فى الأساتذة، كان يدون بعناية جميع المحاضرات بلا استثناء، بيده الصغيرة الحجم، وبدأت الصداقة تتوطد بيننا حتى قررنا أن نستذكر دروسنا معًا، وبدأت عيناه الصغيرتان الرماديتان القصيرتا النظر تتجهان نحوى بسرور واضح عندما أقترب لأحتل مكانى المألوف بجواره.

ورأيت من الواجب أن أخبره ذات مرة، فى عرض الحديث، أن والدتى عندما كانت على شفا الموت توسلت إلى أبى إلا يرسلنا أنا وأخى إلى أى معهد من المعاهد التى تنفق عليها الدولة، فإن جميع الأساتذة هناك والخريجين وأن كان من الجائز أن يتصفوا بالعلم الغزير، ألا أنهم على كل حال ليسوا ممن يقال عنهم أنهم «كما ينبغى».

وتلعثمت لسبب ما وأنا أقول له ذلك وأحسست بالدم يصعد إلى وجنتى، ولم يقل أوبيروف شيئًا فى ذلك الحين، ولكنه فى المحاضرات التالية لم يبدأ بتحيتى كما كانت عادته والترحيب بى، ولم يمنحنى يده الصغيرة المتخشبة ولم يوجه إلىَّ الكلام، وعندما كنت أجلس فى مكانى بجواره كان يحنى رأسه حتى تكاد تمس الكتب التى أمامه، ويتظاهر بالاستغراق فيها.

وأدهشنى برود أوبيروف المفاجئ، ولكنى لم أجد من اللائق بكرامة شاب كريم الأصل أن يعاتب طالبًا تنفق عليه الدولة مثل أوبيروف، فتركته وشأنه، مع أن فتوره آلمنى ألمًا شديدًا.

وذات مرة وصلت إلى المدرج قبله، وكان المحاضر من الأساتذة المشهورين المحبوبين، فتقاطر على المدرج فى ذلك اليوم كثير من الطلاب الذين لم يكن من عادتهم أن يحضروا المحاضرات، ولذا كانت جميع المقاعد مشغولة فجلست فى مكان أوبيروف الشاغر ووضعت كراساتى فوق القمطر ثم خرجت، وعندما عدت إلى المدرج أدهشنى أن أجد كراساتى وقد نقلت إلى الصف الخلفى فى مؤخرة المدرج، وأن أرى أوبيروف جالسًا فى مكانه المألوف، فنبهته إلى أنى كنت واضعًا كتبى وكراساتى هناك، فأجابنى فى ثورة مفاجئة من غير أن يكلف نفسه النظر إلىَّ:

ـ لا أدرى شيئًا عن هذا الموضوع.

فقلت متلعثمًا وأنا أنظر إلى الطلاب من حولى:

ـ أقول لك أنى وضعت كتبى وكراساتى هنا، والجميع شاهدوا ذلك.

ومع أن الكثيرين ممن حولنا كانوا ينظرون إلىَّ باستطلاع، لم يتطوع أحد منهم للشهادة، وقال أوبيروف وهو يضطجع فى المقعد بتشبث ويحملق فى وجهى باستنكار:

ـ أن المقاعد هنا غير محجوزة لأشخاص، من يأتى أولًا هو الذى يحتل المكان.

فصحت به:

ـ هذا يعنى أنك سيئ التربية.

وغمغم أوبيروف بكلام لم أسمعه، وما جدوى أن أسمعه؟ هل كنا سنتشاجر كغلمان الشوارع، ولعلنى كنت سأقول كلامًا آخر تتطور به المشادة، لولا أن الباب انفتح بعنف، ودخل منه الأستاذ فى سترته الرسمية الزرقاء واتجه إلى منصته.

ورغم هذا الذى حدث فإننى عندما احتجت إلى المذكرات قبل الامتحان، لم ينس أوبيروف وعده القديم فقدم لى مذكراته ودعانى للاستذكار معه!

الفصل الخامس

أشجان القلب

وفى ذلك الشتاء استحوذت على اهتمامى أمور عاطفية، فأحببت ثلاث مرات!

مرة منها أحببت سيدة بدينة الجسم حبًا مشبوبًا، وكان من عادة هذه السيدة أن تركب الخيل فى مدرسة فريتاج للفروسية، ولذا كنت أذهب إلى هذه المدرسة كل يوم ثلاثاء وجمعة، لأنها كانت تذهب فى هذين اليومين إلى هناك، وكنت أكتفى بالتطلع إليها، بيد أنى كنت دائمًا أرتجف خشية أن ترانى وأنا أحملق فيها، ولذا كنت أجلس بعيدًا عنها، وإذا رأيتها تقترب من الموضع الذى أحتله، أسرع بالفرار، وإذا نظرت نحوى أشيح برأسى فى إهمال، ولذا لم أتمكن من التفرس فى وجهها جيدًا ولو مرة واحدة، فأنا أجهل حتى يومنا هذا هل كانت جميلة حقًّا أم لا.

وذات يوم أدهشنى أن أرى دبكوف يفاجئنى، أو بعبارة أدق يضبطنى مختفيًا وراء الخدم الذين يحملون معاطف السيدات، وكان دبكوف قد علم من ديمترى نبأ غرامى بتلك السيدة، ولما كان يعرفها

معرفة جيدة فقد عرض علىَّ عرضًا أفزعنى، وهو أن يقدمنى إلى تلك الفارسة، وبلغ من فزعى أنى وليت الأدبار، وكان مجرد تفكيرى فى أن دبكوف ربما حدث تلك السيدة بأمرى، كافيًا فى الحيلولة بينى وبين الإقدام على دخول تلك المدرسة مرة أخرى، ولو للوقوف قرب الباب بين الخدم والحجاب، خوفًا من التقائى بها وجهًا لوجه.

وكنت عندما أحب نساءً لا أعرفهن، ولاسيما المتزوجات منهن، أشعر بالخجل الشديد، بل أن هذا الخجل الذى كان يستولى على كان يبلغ ألف ضعف خجلى وحيائى عندما كنت أحب سونشكا.

كنت أخشى أشد الخشية أن تكتشف محبوبتى الحقيقة، بل كنت أخشى أن تكتشف مجرد وجودى على ظهر الدنيا! لأنى كنت أعتقد أنها ما أن تعرف ذلك حتى تحس بإهانة شديدة لحقتها منى بحيث لا تغفرها لى أبدًا.

والواقع أن تلك الفارسة لو أنها عرفت بالتفصيل كيف أننى عندما كنت أنظر إليها من وراء صف الحجاب والخدم كنت أفكر فى الانقضاض عليها وخطفها إلى الريف، وكيف كنت سأعيش معها هناك، وماذا كنت سأفعل بها، أذن لكان لها الحق كل الحق فى الشعور بالإهانة.

وكان من غفلتى أننى لم أفطن إلى أنها حتى أن عرفت شخصى واكتشفت وجودى فلن تستطيع أن تعرف جميع ما يدور فى ذهنى بشأنها، وأنه لا غضاضة على الإطلاق فى التعرف إليها بطريقة عادية.

أما حبى الثانى، فكان تجديدًا لحبى القديم لسونشكا، فإنى ما

أن رأيتها مع أختى حتى أحبيتها حبًا جديدًا بالمرة، وكانت ليوبا قد أعطتنى ديوانًا من الشعر نسخته سونشكا، بيدها، وفى هذا الديوان قصائد حب ومقطوعات غرامية متشائمة لرمنتوف، وقد وضعت خطوطًا بالحبر الأحمر تحت هذه المقطوعات وأزهارًا جافة لتحديد صفحاتها، وتذكرت كيف يفعل العاشقون المتيمون بآثار حبيباتهم، فلما خلوت بنفسى فى حجرتى تلك الليلة جعلت أُقبل تلك الأزهار، وشعرت بلذة حين غامت بالدموع عيناى وأدركت أني أحببتها من جديد، أو على الأقل هذا ما خيل إلىَّ مدى بضعة أيام!

وأخيرًا أحببت للمرة الثالثة فى ذلك الشتاء فتاة كان يحبها فولوديا، وكانت تأتى لزيارة بيتنا، وهذه الشابة على ما أذكرها اليوم لم يكن فيها شىء من الجمال، ولا سيما النوع الذى يروق لى عادة.

وكانت هذه الفتاة ابنة سيدة من أشهر السيدات المثقفات فى موسكو، وكانت فتاة قصيرة القامة، نحيفة، لها شعر أشقر طويل مرجل على الطريقة الإنجليزية، وكان الجميع يقولون عنها أنها أذكى وأعلم من أمها، بيد أن ظروف لم تكن تسمح لى بتمييز هذه الأمور، فقد كلمتها مرة واحدة ولم يترك الحديث المتحفظ أثرًا رائعًا فى نفسى، بيد أن توله فولوديا بها ـ وكان من عادته ألا يكتم شغفه وهيامه عن الناس ـ سرى إلى نفسى بطريق العدوى سريانًا بلغ من قوته أنى علقت بهذه الفتاة بصورة جنونية.

ولما كنت أعلم أن فولوديا لن يرضيه الأمر، كتمته عنه، وفى الوقت نفسه شعرت بلذة كبرى لأن هذه العاطفة كانت طاهرة، ولذا

يمكن أن تستمر المودة بينى وبين أخى رغم اشتراكنا فى حب فتاة واحدة، وقدرت أن ذلك سيجعل من اليسير على أى واحد منا عندما يأتى الأوان أن يضحى بنفسه وسعادته فى سبيل الآخر!

ولكن يظهر أن فولوديا ما كان ليشاركنى فى موقفى بخصوص الاستعداد للتضحية بالنفس، لأنه كان يعشق تلك الفتاة عشقًا عنيفًا، حتى إنه انتوى أن يصفع شابًا موظفًا فى السلك السياسى على وجهه لأنه سيقدم على الزواج بها، كى يضطره إلى المبارزة.

لقد كان يطيب لى جدًّا أن أضحى بعواطفى، ولعل ذلك راجع إلى أن هذه التضحية لم تكن تكلفنى كثيرًا من الجهد، فهى عواطف غير ذات جذور، وكل ما جنيته من هذا الحب أنى حدثت تلك الشابة ذات مرة برأيى فى الموسيقى الكلاسيكية، وكان رأيًا خطيرًا حقًّا.

ورغم جهودى الكبيرة فى استبقاء جذوة هذا الحب متقدة فى نفسى، لم يلبث أن مات فى مهده، بعد أسبوع واحد!

المجتمع

وكانت المسرات الشائعة فى المجتمع، التى حلمت أن أعب منها عندما أدخل الجامعة محاكاة لأخى الأكبر، سببًا فى شعورى بخيبة الأمل الشديدة فى ذلك الشتاء، وكان فولوديا يكثر من الرقص، وأبى أيضًا يذهب إلى المراقص الساهرة فى قصور العلية وفى الأوبرا مع زوجته الشابة، ولكن يظهر أنهم كانوا يعتبروننى أحدث سنًا من أن أحظى بهذه المسرات، أو غير لائق لها، ولذا لم يقدمنى أحد إلى البيوت التى تقام فيها الحفلات الراقصة.

وعلى الرغم من عهد الصراحة المتبادلة بينى وبين ديمترى، لم أتحدث إلى أى إنسان حتى ولا إليه عن رغبتى الشديدة فى الذهاب إلى الحفلات الراقصة ولا كيف يؤلمنى ويخجلنى نسيانهم أياى وإهمالهم شأنى، وكان من الواضح أنهم ينظرون إلىَّ نظرتهم إلى فيلسوف لا تعنيه هذه الأمور الدنيوية، وهذا ما حاولت أن أتكلفه وأتظاهر به فعلًا.

وفى غضون الشتاء أقامت الأميرة كورنكوفا حفلة مسائية، وقامت

هى شخصيًا بدعوتنا جميعًا إليها، بما فيهم أنا، وهكذا أتيح لى أن أذهب فأشهد لأول مرة فى حياتى حفلة راقصة.

وحضر فولوديا إلى حجرتى قبل أن يرتدى ثيابه بقصد أن يرى كيف سأتهيأ لتلك الحفلة وكيف ستكون ثيابى، وأدهشنى هذا التصرف من قبله دهشة عظيمة وحيرنى، ذلك أنه كان يخيل إلىَّ أن الرغبة فى حسن الملبس رغبة مخجلة، وأنه من الضرورى، بل ومن الواجب المحتوم أن يخفى الإنسان تلك الرغبة، أما هو فكان على العكس من ذلك يعتبرها رغبة طبيعية لا غنى عنها، حتى إنه كان يقول بصراحة تامة:

ـ أنى لأخشى أن تسىء إلى نفسك ويلحقك الخزى لعدم ظهورك فى الملبس الملائم بالطريقة الملائمة.

ثم أمرنى أن أحرص على انتعال حذائى المصنوع من الجلد الرقيق، وأفزعه جدًّا أن يرانى أهم بارتداء قفاز من الشامواه، وحرص على أن تكون ساعتى فى وضع معين حدده بيده، ثم حملنى حملًا فى عربته إلى دكان الحلاق الذى يقص شعره عنده فى أرقى حى بالمدينة، وقام الحلاق بتمويج شعرى تمويجًا صناعيًا، وتراجع فولوديا إلى الوراء وأخذ ينظر إلىَّ عن بعد... ثم قال للحلاق:

ـ هذا جميل، ولكن ألا تستطيع أن تقص من هذا الجانب قليلًا، وأن تجعل الشعر فى هذه الناحية ناعمًا مرجلًا أكثر من هذا؟

وأقبل الحلاق الفرنسى المسيو شارل على تنفيذ تلك الرغبة،

ولكن الشعرات القائمة فى جانب رأسى رفضت أن ترضخ لتأثير المادة الصمغية ونفرت واقفة كالأشواك من جديد، وخيل إلىَّ أن منظرى لا يصلح للأناقة ولا يصلح بها، وفرصتى الوحيدة أن أبدو فى مظهر أقرب إلى الإهمال، فيكسبنى ذلك نوعًا من الوجاهة.

ويبدو أن فولوديا وصل أخيرًا إلى هذا الرأى، فطلب منى عندما عدنا إلى البيت أن ألغى هذه التموجات، ففعلت كما أمرنى، ولكن منظرى لم يتحسن، فيئس فولوديا من أمرى ولم ينظر إلى وجهى بعدها وظل صامتًا مكتئبًا طول الطريق إلى قصر آل كورنكوف.

ودخلت قصر آل كورنكوف بكل إقدام بجوار فولوديا، ولكن عندما دعتنى الأميرة للرقص تعللت لها بعذر ما وقلت أنى لا أرقص عادة، مع أننى ذهبت تلك الليلة خصيصًا لا لشىء ألا لكى أرقص ما وسعنى الرقص، وبعد أن قلت لها ذلك شعرت فجأة بالخجل، وقد تركونى وحدى مع أناس لا معرفة لى بهم من قبل، فزاد ذلك من انطوائى وظللت صامتًا لا أبراح مكانى طول السهرة.

وفى أثناء رقصة من رقصات الفالس أقبلت نحوى إحدى الأميرات من آل كورنكوف وسألتنى بالظُرف المعهود فى جميع أفراد أسرتها على سبيل المجاملة:

ـ لماذا لا ترقص يا سيدى؟

وأنى لأذكر حتى اليوم كيف استولى علىَّ الخجل لهذا السؤال، ولكن فى الوقت نفسه أشرق وجهى بابتسامة لا إرادية ورحت أحدثها

باللغة الفرنسية حديثًا سريعًا ملتويًا حافلًا بالجمل الاعتراضية، حتى أنى بعد مرور عشرات السنوات على هذا الموقف لم أزل أذكره بالخجل الشديد.

ولا بد أن الموسيقى أحدثت أثرها فى نفسى، فأثارت أعصابى، ولكنى أملت أن تفرق هذه الموسيقى فى ضجتها نبرات صوتى فلا تسمع الأميرة هذيانى، لأنى كنت أحدثها عن الطبقة الراقية وغرور أفرادها ولا سيما النساء منهم، إلى أن وجدت نفسى قد تورطت فى مأزق لا حيلة فيه، فتوقفت فى منتصف الكلام عاجزًا عن الاستمرار فيه.

ورغم تأدب الأميرة الشديد، لم تستطع أن تمنع نفسها من إظهار ما يعتمل فى أعماقها، ونظرت إلىَّ نظرة عتاب، فابتسمت، وفى هذه اللحظة الحرجة اقترب منا فولوديا، وكان قد لمح عن بعد طريقة كلامى فى حماسة واحتداد، ولعله أراد أن يعرف كيف سأعتذر عن عدم اشتراكى فى الرقص، وكان دبكوف فى صحبة فولوديا، ولما رأى فولوديا ابتسامى، وأمارات الاستياء والارتياع المرتسمة على وجه الأميرة، ثم سمع طرفًا من الهذر الذى كنت أطلقه من بين شفتى، احمر وجهه وابتعد مديرًا لنا ظهره.

ونهضت الأميرة واقفة وغادرتنى، ولبثت أنا أضحك، أو بعبارة أصح ابتسم ابتسامًا تشنجيًا لفرط شعورى بغباوتى، حتى لقد تمنيت فى تلك اللحظة لو أن الأرض انشقت وابتلعتنى، وأدركت أننى يجب أن أقوم بأية حركة بالغًا ما بلغ الثمن وأن أقول شيئًا يحسن موقفى قليلًا.

وتوجهت إلى دبكوف وسألته أن كان قد راقصها أدوارًا كثيرة، ونسيت فى حرج الموقف أن دبكوف هذا هو الذى انتهرته فى مطعم يار منذ شهور وطلبت منه ألا يمزح معى، فتظاهر دبكوف أنه لم يسمعنى وأشاح عنى، فتركته واقتربت من فولوديا وكلمته بلهجة المزاح المتكلف، ولكنه نظر إلىَّ صامتًا نظرة كأنه يقول لى بها:

ـ أنك لا تخاطبنى بهذه اللهجة ونحن فى خلوة، فماذا دهاك هنا؟

وأولانى ظهره أيضًا وابتعد، وكان ظاهرًا من سلوكه أنه يخشى أن ألازمه، فقلت فى نفسى:

ـ حتى أخى يتخلى عنى!

ولكن لسبب ما لم تواتنى العزيمة على الانصراف، فظللت واقفًا حيث كنت إلى نهاية السهرة، ولم أفق لنفسى إلا عندما أخذ الجميع يغادرون الحجرة ويتجمعون فى البهو، وتقدم الخادم ليساعدنى على ارتداء معطفى، وعندئذ انفجرت ضاحكًا بمرارة والدموع تنهمر من عينى.

* * *

ومع أن تأثير ديمترى علىَّ لم يزل فى ذلك الوقت يمنعنى من الانهماك فى ملاهى الطلبة المألوفة ومباذلهم التى كانت تسمى حفلات «العربدة»، إلا أنى فى ذلك الشتاء اشتركت مرة واحدة فى حفلة منها، وخرجت منها بتأثير حسن، وهاكم كيف حدث ذلك:

ذات يوم، أثناء محاضرة من محاضرات بداية العام، دعانى

البارون «ز» وهو شاب طويل القامة أشقر يبدو عليه الجد، أنا وسائر الجماعة إلى بيته لتمضية سهرة معه، والمقصود هنا بالجماعة هم طبعًا أبناء فرقتنا الجامعية الذين يقال عنهم أنهم كما ينبغى، فلم يكن فيهم بطبيعة الحال جراب ولا سمينوف ولا أوبيروف، ولا أى طالب ممن على شاكلتهم أو دونهم.

وابتسم فولوديا باستخفاف عندما سمع أننى سأذهب إلى حفلة عربدة يقيمها طلاب السنة الأولى، ولكنى توقعت أن أستمتع بسرور عظيم فى هذه الحفلة، لأنها كانت شيئًا طريفًا بالنسبة لى، ولذا كنت فى الساعة الثامنة تمامًا فى بيت البارون «ز»، وهو الموعد المحدد لبداية السهرة.

وكان البارون «ز» مرتديًا سترة بيضاء، ومعطفه مفكوك الأزرار وهو يستقبل ضيوفه فى البهو المتوهج بالأنوار وفى قاعة الاستقبال بمنزل والديه، وكان والداه قد أذنا له باستعمال قاعات الاستقبال والبهو لاحتفال تلك الليلة، ولمحت فى الدهليز وجوه وملابس الخادمات المستطلعات، كما مرت مرة سيدة أظنها كانت البارونة.

وكان الضيوف نحو عشرين، وكلهم من الطلبة فيما عدًا الهر فروست الذى جاء مع أيفين، ورجلًا طويل القامة أحمر الوجه فى ثياب مدنية كان طالبًا سابقًا فى جامعة دوبارت، وهو من أقرباء البارون.

وفى البداية أحدثت الأضاءة الشديدة وزخارف قاعات الاستقبال شعورًا عامًا بالتحفظ لدى الشبان، فلم يتحركوا كثيرًا، اللهم إلا

نفر قليل من ذوى الجسارة جعلوا يتنقلون بين الحجرات فى خفة ويشيعون فى أرجاء المكان شيئًا من التبسط، ثم نهض الطالب السابق فى جامعة دوربات وفك أزرار صداره ورفع عقيرته بالغناء، بيد أن الباقين ظلوا صامتين، أو جعلوا يتناقشون حول الأساتذة والعلوم والامتحانات وسائر هذه الموضوعات الجدية غير المسلية.

وكان كل واحد منهم بلا استثناء يحدق فى اتجاه باب قاعة الطعام، ولسان حاله يقول بوضوح:

ـ لقد آن الأوان للابتداء!

وشعرت أنا كذلك أن الوقت قد حان للابتداء، وانتظرت هذا الابتداء بلهفة وسرور.

وبعد أن قدم إلى الضيوف الشاى، سأل الطالب السابق الهر فروست بالروسية أن كان يجيد صنع البانش، فأجابه فروست بالألمانية:

ـ طبعًا!

وأخذ يهز قبضتيه بنشاط، فعاد إلى سؤاله بالروسية:

ـ وماذا تنتظر؟ هيا ابدأ فى صنعه.

وشرع فروست يذهب من قاعة الاستقبال إلى قاعة الطعام ويعود بخطوات واسعة من ساقيه القويتين، وبعد قليل وضع فوق المائدة إناءً ضخمًا من آنية الحساء، ووضع فى الإناء قطعة ضخمة من السكر تزن عشرة أرطال فى وضع عمودى، وسندها الطلبة بثلاثة خناجر،

وفى الوقت نفسه أخذ البارون «ز» يهيب بالطلبة الباقين فى حجرة الاستقبال بصوت جاد كل الجد:

ـ هيا أيها السادة كى نشرب كما يشرب الزملاء، على طريقة الطلبة، فإنه من المخجل ألا تتوثق الألفة بيننا ونحن أعضاء فرقة دراسية واحدة، وليفك كل واحد منكم أزرار صداره، أو ليخلعه كلية.

وأقبل طالب دوبارت السابق على معطفه فخلعه، ثم شمر كمى قميصه إلى ما فوق المرفقين، وباعد ما بين قدميه فى وضع يدل على التصميم، وأشعل النار فى الروم الموجود بآنية الحساء، وصاح فجأة:

ـ اطفئوا الأنوار أيها السادة!

فشرعنا جميعًا نطفئ الشموع وقد سرى فينا المرح أخيرًا، ولما سادت الظلمة، ظهرت النار مشتعلة فى الروم، وقطعة السكر تحترق بلهب أزرق، وعلى ضوئها ظهر لنا وجه طالب دوبارت وقميصه الأبيض، وهو يقلب السكر بخنجر طويل ويغنى، فانضم إليه الجميع فى ضجة جعلت أركان المكان تهتز، وخلع الكثيرون ستراتهم، ولا سيما من كانوا منهم يرتدون قمصانًا فاخرة، وخلعت أنا أيضًا معطفى لأنى أدركت أن البهجة الحقيقية بدأت، وكنت واثقًا تمام الثقة أن المرح سيكون عظيمًا متى شربنا كوبًا من هذا المشروب الذى يحضره طالب دوبارت العجيب.

وأخيرًا تم إعداد الشراب، وصب الطالب الدوبارتى البانش فى الأكواب، وسكب مقدارًا كبيرًا منه على المائدة ثم صاح:

ـ هيا أيها السادة!

وتناول كل واحد منا كوبًا حافلة من الشراب، وأخذ الهر فروست يغنى مع الطالب الدوبارتى أغنية ألمانية، فأخذنا نغنى معهما غناءً يغلب عليه النشاز، ونقطع ذلك لنصيح بعبارات الثناء على ذلك الشراب الحلو الطعم، وكان واضحًا أن الحفلة أصبحت فى ذروتها، وكنت قد شربت كوبًا كاملًا فصبوا لى كوبًا آخر، وبدأت عروق عارضى تنبض نبضًا عنيفًا، وكل واحد ممن حولى يصرخ ويضحك، ومع ذلك أحسست أن هذا المرح ظاهرى، وأن الجميع مثلى يشعرون بالسأم والملل ويتصنعون البهجة فيما عدا الطالب الدوبارتى.

وازداد احتقان الوجوه وانطلاق الألسنة، والطالب المرح كلما رأى كوبًا فارغًا ملأه فى الحال، وأعجبنى مرحه الطبيعى حتى أنى حفظت عن ظهر قلب الأغنية الألمانية التى كان يرفع عقيرته بها.

وازداد عنف الصداع، وبدأت أفقد سيطرتى على أطرافى كما حدث لى فى مطعم يار، وخيل إلىَّ أنى سأموت فى الحال، ونظرت حولى فإذا الجميع وقد جلسوا على الأرض ومدوا أذرعتهم كأنهم يجدفون، وأخذوا ينشدون نشيد الملاحين فى نهر الفولجا.

وأذكر بغموض أننا تناولنا العشاء وشربنا نوعًا آخر من الشراب، وأنى خرجت بعد ذلك إلى فناء البيت لأستنشق الهواء وقد أيقنت من سكرى سكرًا واضحًا، وكانت الظلمة حالكة فلم أتبين سلم عربتى، ولم أستطع أن أعتمد على كوزما فى الركوب، لأنه كان ضعيفًا متقدمًا فى السن.

وأحسست على العموم بغباوتى الشديدة لأنى بحثت عن المرح بهذه الصورة المتكلفة، وشربت فوق طاقتى غير مفكر فى العواقب، وكان رأيى فى سائر الحاضرين أنهم أغبياء حقيقة غاية الغباء فى تكلفهم السمج لسرور لا حقيقة له، ومشكلتهم فى الواقع أن كل واحد منهم كان يتوهم أنه وحده المتضجر البرم، وأن الآخرين مسرورون سرورًا لا مزيد عليه، فيجد من البلاهة أن يبدو على خلاف المجموع المحيط به، ويندفع فى تصنع البهجة والطرب مجاراة للتيار العام.

وهذا ما فعلته شخصيًا إذ قدرت كمية الشراب التى استخدمت فى تلك المأدبة بسبعين روبلًا، فضلًا عن أصناف المآكل، فمن قلة الذوق أن أبدى عدم السرور والانشراح.

ولكن الذى أدهشنى حقًّا أن من حضروا عربدة البارون ز، جعلوا فى اليوم التالى يتفاخرون فى مدرج الجامعة بما حدث، غير مستشعرين الخزى من أنفسهم، بل أنهم كانوا يتكلمون بصوت مرتفع متندرين بما كان فى الحفلة من تهريج، حتى يسمعهم من لم يحضرها من الطلبة.

وكان من أهم ما تفاخروا به أن العشرين شابًا احتسوا أربعين زجاجة روم، وأن أكثر من طالب قضوا ليلتهم على الأرض تحت المائدة من شدة السكر إلى الصباح.

ولم أستطع أن أفهم لماذا كانوا يتكلمون عن أنفسهم بهذه الصورة، ولماذا على الخصوص يبالغون كذبًا وبهتانًا فيما من شأنه أن يكسوهم عارًا.

زوجة أبى

ومع أن أبى لم يكن فى نيته القدوم إلى موسكو مع زوجته إلا بعد رأس السنة، فقد رأيناه يصل فى شهر أكتوبر، فى الموسم الذى يستحب فيه الصيد والطراد فى الريف، وقال أبى فى تعليل ذلك أنه غيّر خطته بسبب قضية له ستنظر أمام مجلس الأعيان، بيد أن ميمى أخبرتنا أن فاسيليفنا زوجته سئمت الإقامة فى الريف، وجعلت تجرى كثيرًا ذكر موسكو على لسانها، وتصنعت المرض، فاضطر أبى إلى إجابة مطلبها، وقالت ميمى فى ذلك الصدد:

ـ أنها لم تشعر بحبه فى يوم من الأيام، وكل ما هناك أنها ظلت تتشدق بالحب لأنها كانت تتوق إلى الزواج من رجل ثرى.

وتنهدت ميمى، وكأنها تعنى ذلك التنهد:

ـ أن امرأة أخرى غير فاسيليفنا، امرأة معينة بالذات، كانت حرية أن تسعده، لو أنه عرف كيف يقدر مزاياها.

بيد أن تلك المرأة المعينة بالذات ظلمت فاسيليفنا، فإن حبها

لأبى حبًا شديدًا مخلصًا، وتضحيتها فى سبيله براحتها، كانت أمرًا واضحًا جدًّا فى سلوكها كله، ألا أن هذا الحب الشديد لم يكن يمنعها من التعلق بالثياب الجميلة والأناقة التى تبرزها فى أحسن صورها.

وقد نشأت علاقات غريبة بيننا وبين زوجة أبينا منذ أول لحظة لوصولها، فبمجرد نزولها من العربة اتجه فولوديا نحوها متبخترًا وقَبَّل يدها بوقار شديد، وقال لها وكأنه يقدم لها شخصًا آخر:

ـ أتشرف بأن أقدم إليك تهنئتى بالوصول، بوصول أم عزيزة ويسرنى أن أقبل يدها.

فقالت فاسيليفنا وهى تبتسم ابتسامتها الجميلة المتشابهة:

ـ آه يا ابنى العزيز!

فقلت أنا، مقتربًا منها لتقبيل يدها ومحاولًا عن غير قصد محاكاة فولوديا فى هيئته ولهجته:

ـ ولا تنسى يا سيدتى ابنك العزيز الثانى!

وكان من الواضح أن هذا الاستقبال ينم عن شىء من التهكم المموه بالرياء، وبدأت العلاقات بيننا وبينها تتأسس على هذا النمط، فكنا على الدوام مهذبين معها، ولا سيما أنا وفولوديا، نناديها بالفرنسية ونحن ننحنى بقولنا يا أمنا العزيزة، فيكون جوابها علينا بمثل ذلك الأسلوب، أما ليوبا فكانت أقل منا نفاقًا وتكلفًا، لما شعرت به من الميل نحو زوجة أبينا، وحاولت بطريقتها الساذجة أن تقربها من نفسينا، ولذا كانت ليوبا هى المخلق الوحيد من أفراد الأسرة الذى

أحبته فاسيليفنا حقًّا بعد والدنا، بل أن فاسيليفنا كانت تكن لأختنا إعجابًا شديدًا واحترامًا كان يدهشنا كثيرًا.

وفى البداية كانت فاسيليفنا مولعة جدًّا بأن تسمى نفسها باسمها الحقيقى، أى أنها زوجة أب، وتلمح إلى الطريقة الظالمة السيئة التى جرت العادة أن ينظر بها أفراد الأسرة إلى زوجة الأب، وأن مركزها لهذا السبب يكون حرجًا، ومع ذلك لم تحاول أن تتجنب سوء الموقف بأن تلاطف هذا مثلًا أو تتحف ذاك بهدية، بل أنها لم تحجم عن ذلك المسلك المتودد فحسب، وأنما راحت فضلًا عن ذلك تسير فى الطريق العكسى، فتعد عدتها للوقوف موقف الدفاع من غير أن يقع عليها هجوم، وأخذت مأخذ التسليم أن جميع أفراد الأسرة يريدون استخدام كل ما فى وسعهم لإهانتها والإساءة إليها وتكدير صفوها، فتشعر بسوء القصد فى كل حركة، وترى أن أليق خطة بها هى الاحتمال فى صمت، فكان من نتيجة هذه السلبية أن اكتسبت العداوة بدلًا من المودة.

ويضاف إلى هذا أنها كانت عاجزة عن فهم الناس فهمًا صامتًا لا يحتاج إلى الألفاظ، مع أن هذه الوسيلة فى التفاهم كانت قد نمت وتأصلت فى أسرتنا، كما أن عاداتها كانت تخالف العادات التى ألفناها فى بيتنا مما أكد غرابتها فى جونا وغربتها فيه، فتبدو لعيوننا فى بيتنا الأنيق الهادئ المنظم بطريقة خاصة وكأنها دخلته لتوها، مما يستتبع النظر إليها نظرة الطارئة التى ينتظر منها أن ترحل، فهى مثلًا تصحو أحيانًا مبكرة، وفى أحيان أخرى تصحو متأخرة، وتارة

تتناول العشاء وتارة لا تتناوله، وتقضى معظم النهار بملابس النوم تقريبًا غير محتفية بزيها طالما أنه ليس فى بيتنا ضيوف، ولا يخجلها أن تبدو لنا، بل وللخدم فى قميص أبيض من فوقه شال يبرز منه ذراعاها العاريتان.

وفى البداية طاب لى هذا التجاوز للتقاليد والعرف، ولكن سقط تهيبى لها واحترامى السابق، وأذهلنى أن أجد فى جلدها امرأتين مختلفتين، تبدو إحداهما حين يكون فى البيت زائرون، وتبدو الأخرى حينما يخلو البيت من الزوار.

فحينما يكون فى البيت زوار، نرى أمامنا شابة صحيحة الجسم جميلة أنيقة الزى مرحة ليست بالذكية ولا بالغبية، حتى إذا خرج الضيوف رأيناها امرأة مجهدة، فارقها رونق الشباب، واستولى عليها السأم.

وكثيرًا ما سألت نفسى ماذا عسى أن يقول القائلون من المعجبين بها لو أنهم رأوها كما نراها نحن، صامتة واجمة خابية النظرات والابتسامة كأنها شبح، غير مرجلة الشعر، تنتظر أوبة زوجها من النادى، وقد تنهض بنفسها إلى غرفة المخزونات حتى لا تزعج الخدم فتحضر خيارًا مملحًا وتأكله وهى واقفة بجوار النافذة، أو تتجول بين الحجرات فى ملالة واضحة.

وكل هذا كان يحتمل إلا شيئًا واحدًا أذهلنا وأثار اشمئزازنا، وهو حديثها الذى لا ينقطع إلى كل إنسان يزورنا عن مبلغ حبها لأبينا، وهى صادقة فعلًا فى هذا، فحياتها كلها تتلخص وتتركز فى

حبها لزوجها، بيد أن تقديرها لهذا الحب فى غير تحفظ كان يبدو لنا مبتذلًا، فكنا نشعر بالخجل منها حين تتحدث فى هذا إلى الغرباء، بل أن خجلنا منها لذلك السبب كان أشد من خجلنا حين تخطئ فى اللغة الفرنسية!

لقد كانت تحب زوجها فوق حبها لكل ما فى الدنيا، وكذلك زوجها كان يحبها ولا سيما فى البداية، وكان هدف حياتها الأوحد أن تكسب حب زوجها، ولكن يبدو كأنها كانت تعمل عامدة بكل ما فى وسعها على اتيان ما يثير استياءه، مع أنها كانت تأتى تلك الأمور بالذات بقصد إظهار قوة حبها له واستعدادها لتضحية نفسها فى سبيله.

كان غرامها بالثياب الفاخرة عظيمًا، وكان أبى يحب أن يراها جميلة فى المحافل والمجتمعات، تثير الثناء والإعجاب، ولكنها ضحت بحبها فى شهود المحافل من أجل أبى، وتعودت الجلوس فى البيت فى ثياب خالية من الأناقة.

وكان فى مرجو أبى أن تتوطد الألفة على قدم المساواة بين ليوبا وزوجته الشابة، بيد أن فاسيليفنا انتهجت خطة غريبة، فجعلت دأبها إظهار الاحترام لربة البيت الحقيقية فى نظرها وهى ليوبا! فاغتاظ والدى لذلك غيظًا شديدًا.

وكان أبى يكثر من المقامرة فى ذلك الشتاء، وخسر فيها مبلغًا طائلًا من المال، بيد أنه أخفى ذلك عنا كعادته حتى لا يخلط لهوه بحياته العائلية، ولما حملت فاسيليفنا واعتلت صحتها وجدت من

واجبها أن تلزم البيت باستمرار، وتظل فى ثيابها المنزلية وشعرها المشعث جالسة فى انتظاره إلى الرابعة صباحًا حين يعود من المقامرة مجهدًا يشعر بالخزى من خسائره الفادحة، وعندئذ تسأله وهى شاردة هل حالفه الحظ فى المقامرة، وتصغى لما يرويه لها عن أحداث الليلة فى النادى، ثم يتوسل إليها للمرة المائة إلا تظل جالسة فى انتظاره وهى تعانى من الغيرة لطول غيابه عنها، إذ كانت تعتقد اعتقادًا جازمًا لا حيلة فى اقتلاع جذوره من رأسها أن أبى لا يقضى سحابة الليل فى لعب القمار، بل فى أحضان عشيقة!

وهذا هو السر فى أنها كانت تسأله عن أحداث ليلته فى النادى، عسى أن يزل لسانه فيروى لها شيئًا غير معقول يفضح سره، وكانت تجتهد أن تقرأ هذا السر فى وجهه وعينيه، فإذا أعياها أن تقرأ هناك شيئًا من ذلك، أكلت قلبها كمدًا وحسرة!

وكان من نتيجة تصرفاتها هذه مدفوعة بحب أبى، أن أخذ حب أبى لها فى أواخر الشتاء، عندما استفحلت خسائره، يتناقص حتى وصل إلى شىء من المضاضة والكراهية، ووافق ذلك تضخم بطنها بالحمل، وأصبحت تصرفاته معها تنم عن شىء كثير من الرغبة المكبوتة فى الإساءة إليها إساءة معنوية موجعة.

أصدقاء جدد

وتسلل الشتاء، وبدأ فى أعقابه الربيع، وعلقت قوائم الامتحانات الجامعية، وإذا بى أتذكر فجأة أننى مطالب بالإجابة عن ثمانى عشرة مادة سمعت فيها محاضرات، ولكنى لم أنصت إلى محاضرة منها أو أسجلها بالكتابة أو أستعد للامتحان فيها.

وأنه لمن العجيب أن سؤالًا هينًا كهذا السؤال:

ـ كيف سأودى الامتحانات؟

لم يخطر بذهنى من قبل، فهل كنت مثالًا للكسل طوال ذلك الشتاء، أم أنها نشوتى وفرحتى بالنمو، وبأننى كما ينبغى، أما الآخرون فليس منهم من يعتبر كما ينبغى إلا الأقلية النادرة، والحق أننى كنت أتردد على المحاضرات لا لشىء إلا لأنى تعودت ذلك، وكان لى معارف كثيرون أقضى فى صحبتهم وقتًا طيبًا فى الجامعة، وكنت أحب الضجة وتجاذب الحديث السهل والضحك فى المدرجات، وأصبح من عادتى أن أجلس فى الصف الأخير وأرخى العنان للأحلام،

وصوت الأستاذ الرتيب المتواتر يهدهدنى فى تلك الأحلام. وأن صحوت منها جعلت أرقب زملائى.

وبين الحين والحين كنت أتخلف عن المحاضرات وأذهب مع بعض صحابى إلى مقصف مارتن لنحتسى الفودكا ونأكل وجبة خفيفة، ثم أذهب إلى المحاضرة متأخرًا وأسمع الأستاذ يوبخنى وأنا أبدى شيئًا من الخجل.

ولما تقدم العام وانتظم الطلبة، وأتم أستاذ الطبيعة محاضراته واحتجب عنا إلى موعد الامتحانات، انهمك الطلبة فى جمع المذكرات والاستعداد، وبدأت أنا كذلك أفكر فى الامتحان، وكانت علاقاتى بأوبيروف فاترة جدًّا، أحنى له رأسى عن بعد، بيد أنه دعانى لتحضير الامتحان من مذكراته أنا وبعض الطلبة، وشكرته ولكنى رجوت أن يكون اجتماعنا فى بيتى، فأخبرونى أنهم قرروا الاجتماع فى بيت كل واحد منا مرة، وكان أول اجتماع فى مسكن زوخين، وهو عبارة عن حجرة صغيرة فى بيت كبير بشارع تربنى، وكان وصولى إلى الاجتماع الأول متأخرًا وقد شرعوا فى القراءة فعلًا، ووجدت الحجرة حافلة بالدخان المنبعث من طباق زوخين، وفوق المائدة زجاجة فودكا وأكواب وخبز وملح.

ودعانى زوخين من غير أن ينهض واقفًا إلى تناول كأس من الفودكا وأن أخلع معطفى، وأردف ذلك بقوله:

ـ أعتقد أنك لم تألف مثل هذه الأشياء...

وكان كل واحد من الحاضرين مرتديًا قميصًا رخيصًا قذرًا

فأحببت ألا أبدى ازدرائى لهم وخلعت معطفى واستلقيت على الأريكة فى تبسط، وواصل زوخين القراءة بصوته المرتفع، وكان البعض يستوقفونه ليلقوا عليه أسئلة كان يجيب عنها دائمًا بدقة وذكاء وإحاطة، وأصغيت برهة من الوقت، ولكنى لم أفهم شيئًا كثيرًا، لأنى لم أعرف ماذا كان من أمر المادة قبل حضورى، فسألت سؤالًا ينبئ عن ذلك فقال زوخين:

ـ أنك أيها الرفيق العجوز لن تستفيد من الاستماع ما لم تكن لديك فكرة عن المادة، وسأعطيك المذكرات حتى تطالعها الليلة وغدًا.

وشعرت بالخجل الشديد لجهلى، وفى الوقت نفسه كنت على يقين من صواب كلام زوخين، فكففت عن الإصغاء وشغلت نفسى بملاحظة هؤلاء الرفاق، وعلى حسب التصنيف الذى كنت أطبقه على الناس، فأقسمهم إلى من هم كما ينبغى ومن ليسوا كما ينبغى، أيقنت أن هؤلاء كانوا من الفريق الثانى ولا مراء، وتكون فى نفسى شعور عميق لا بالازدراء لهم فحسب، بل وبالكراهية أيضًا، فهم على الرغم من دونيتهم كانوا ينظرون إلىَّ كما لو كنت ندًا لهم، بل وأحيانًا كانوا يعاملوننى بما يشعر بترفقهم بى.

وكان نظرى إلى أقدامهم وأحذيتهم القذرة وأيديهم وأظافرهم غير المشذبة، والألقاب البذيئة التى يتقاذفونها فيما بينهم فى غير تورع أو تكلف، وطريقة زوخين فى التمخض إذا يسد بإصبعة أحد منخريه، كل ذلك جعلنى أتقزز منهم تقززًا فظيعًا.

وعلى الرغم من ذلك المظهر الذى نفرنى منهم، لم أخطئ فى

هؤلاء الناس جوانب طيبة، فهم متآخون فيما بينهم مؤاخاة جذبتنى إليهم وجعلتنى أتمنى مزيدًا من المعرفة بهم، وهو أمر لم يكن صعبًا عسيرًا وأنا أعرف من بينهم ذلك الفتى الرقيق الجاد أوبيروف.

وكان زوخين صاحب النفوذ والسيطرة على المجموعة كلها يروقنى كثيرًا، وهو شاب قصير بدين أسمر اللون يفيض وجهه بالبشاشة والذكاء والحيوية، وله لحية سوداء مدببة، ولا يبدو عليه مطلقًا أنه يفكر فى نفسه وأن كان من الواضح أن ذهنه لا يعرف الكسل أو الخمود.

وما أن حان المساء حتى رأيت التجاعيد تظهر فجأة على وجهه، ورأيت عينيه تزدادان عمقًا، وابتسامته يعتريها التغير حتى صار من العسير أن أعرف فيه الشخص الذى رأيته فى بداية الأمسية.

ولما انتهى الاجتماع شرب زوخين وأصحابه كوبًا من الفودكا، وشربت مثلهم حتى أظهر لهم رغبتى فى مصادقتهم، ولم يكد يتبقى فى الزجاجة شىء فسأل زوخين: من منا معه ربع روبل كى يرسل العجوز التى تخدمه فتشترى مزيدًا من الفودكا، وعرضت عليه نقودى، بيد أنه تحول إلى أوبيروف وكأنه لم يسمع صوتى، وأعطاه أوبيروف النقود المطلوبة، وهو يقول له:

ـ احذر من الإفراط فى الشراب...

والحقيقة أن أوبيروف لم يكن يحتسى الخمر إطلاقًا، فكان لهذا التحذير معناه، وأجابه زوخين باسمًا فى مودة:

ـ وماذا لو أننى أفرطت؟ ما الضرر؟ أراهن أنى أستطيع أن أجارى فى قدرتى على الشراب أى فتى منكم، ولكن سمينوف هو الذى يجازف بالرسوب فى الامتحان حقًّا لإفراطه فى الشراب هذه الأيام.

والحق أن سمينوف الذى كان ترتيبه الثانى فى امتحان القبول بالجامعة وظل يواظب على حضور المحاضرات طوال الشهر الأول من السنة الجامعية، قد انصرف بعد ذلك إلى الشراب، وفى أواخر السنة أصبح لا يرى فى مبنى الجامعة إطلاقًا، وسأل بعض الرفاق:

ـ وأين هو الآن؟

فقال زوخين:

ـ لقد غاب عن نظرى فى المدة الأخيرة، وفى آخر مرة تقابلنا قضينا معًا ليلة حمراء فى مقصف لسبون، ويقال أن منظرنا أثار ضجة وفضيحة، ولعمرى أنه لرجل هائل! كان فى جوفه نارًا لا تنطفئ! وأن عقله لجبار، وليس من المعقول أن يطيق الهدوء فى الجامعة.

وبعد فترة أخرى من الحديث نهض الجميع للانصراف بعد أن اتفقوا على اللقاء فى مسكن زوخين فى الأيام التالية، لأن مسكنه كان أقرب مسكن، ولما خرجنا إلى فناء البيت شعرت بالحرج الشديد، فهم جميعًا سينطلقون على أقدامهم، وليس بينهم من تنتظره عربة سواى، وعرضت فى حياء على أوبيروف أن أحمله إلى بيته، وكان زوخين قد خرج معنا واقترض من أوبيروف روبلًا فضيًا ليقضى سهرة قاصفة مع أصحابه فى الملهى.

وفى طريقنا بالعربة، أخبرنى أوبيروف الشىء الكثير عن خلق زوخين وأسلوب حياته، ولما وصلت البيت لم أستطع النوم وظللت وقتًا طويلًا أفكر فى أولئك الناس الذين تعرفت بهم الليلة، وأنا حائر متردد بين احترام علمهم وأمانتهم وبساطتهم، وبين التقزز الذى شعرت به من مظهرهم السيئ.

ولم تشفع لهم رغبتى الصادقة فى صحبتهم لأن تأثير المظهر فى ذلك الوقت كان تأثيرًا جارفًا، وكانت آراؤنا وأفكارنا متضادة، ولكن الذى كان يفصلنا أكثر من الأفكار هو ثيابى الفاخرة وعربتى الخاصة وقمصانى الناصعة البياض، وقام بذهنى أنى أسىء إليهم بما يبدو من مظاهر ترفى وبذخى، فأحس أمامهم إحساس المذنب.

ولم ألبث أن استرددت شجاعتى، وصرت أتردد كل مساء تقريبًا على مسكن زوخين للدراسة والاستذكار، وكانت استفادتى محدودة جدًّا لأنى كنت أفتقر إلى الأساس الضرورى فى كل مادة، فكنت أتصنع الاستماع والفهم لما يقولون، وخيل إلىَّ أن رفاقى فطنوا إلى تمويهى.

ويومًا بعد يوم أصبحت أستسيغ فوضى هذه الجماعة ويزداد ميلى إليهم، وقد وجدت فيهم جانبًا شاعريًا، ولم يمنعنى من قضاء ليالى القصف معهم إلا سابق وعدى لديمترى.

وذات مرة خطر لى أن أظهر معلوماتى فى الأدب، ولا سيما الأدب الفرنسى، فوجهت الحديث إلى هذا الموضوع، وإذا بى أكتشف أن هؤلاء السوقة على الرغم من سوء نطقهم بلكنة روسية

للمؤلفات والمؤلفين الفرنسيين، إلا أنهم قرءوا أكثر مما قرأت بكثير، ويعرفون فوق ذلك المؤلفين الإنجليز والأسبان ويقدرونهم قدرهم، أما ديما، وأدبون سو، وفيفال، فكانوا عندهم من سقط الكتاب، ويمتاز زوخين على الخصوص بأحكام واضحة فى الأدب ليس عندى لها مثيل.

وحتى الموسيقى لم يكن لى فيها امتياز عليهم، إذ اكتشفت ببالغ الدهشة أن أبيروف يحسن العزف على الكمان، وأن رفيقًا آخر يعزف البيانو، وكلاهما يعرفان الموسيقى معرفة جيدة ويحسنان تذوقها.

وعلى الجملة كان فى هؤلاء الرفاق علم وفضل كثير، أكثر جدًّا مما كنت أتشدق به، ومن غير زهو، فما الذى يفصل بينى وبينهم؟ وعلى أى أساس أنظر إليهم على أنهم دونى فى شىء من الأشياء؟ لأننى أعرف الأمير إيفان أيفانتش؟ التى أجيد النطق بالفرنسية؟ الآن لى عربة خاصة وحوذيًا خاصًا؟ القمصانى الفاخرة؟ الأظافرى المشذبة؟

ألا أن هذه كلها لغو باطل، وكثيرًا ما خطر ببالى أنها لا تساوى شيئًا بالقياس إلى روح الصداقة والبساطة التى لمستها فى هؤلاء الناس، فكل منهم ينادى الآخر بغير تكليف، ومظهرهم بسيط لا يتكلفون له شيئًا، وهم فى الوقت نفسه حريصون رغم خشونة ألفاظهم ألا يجرحوا شعور فرد من جماعتهم.

أن كلمة خنزير التى يتنادون بها كانت تزعجنى، ولكنها كانت لا تعنى فيما بينهم سوى كلمة تودد وملاطفة، والحقيقة أن الصلات

فيما بينهم كانت رقيقة مهذبة، ذلك النوع من التهذيب الذى لا يكون ألا بين الشبان ذوى الخصاصة الشديدة.

على أن أعظم ما راعنى فى هؤلاء الرفاق هو شخصية زوخين المتعددة النواحى الجريئة، ومغامراته فى ملهى لسبون، وخُيل إلىَّ أن تلك الليالى الماجنة يجب أن تكون شيئًا مختلفًا تمامًا عن الحفلة المخمورة التى أحرقنا فيها السكر فى إناء الروم فى بيت البارون «ز».

حصاد العام

وحل موعد الامتحان وأنا لم أزل فى حالة الشرود الحالمة، وليس عندى أدنى أدراك واضح لما ينتظرنى فى ذلك الامتحان.

وكثيرًا ما خطر لي بعد تمضية السهرة مع الرفاق فى صحبة زوخين أن من الضرورى إدخال تعديلات جوهرية على خطة حياتى وأفكارى، وأن موقفى من الحياة وشئونها غير سليم أو غير لائق، ولكن ما أن تشرق الشمس حتى أرانى مرة أخرى كما ينبغى، وأشعر بالرضى الشديد عن نفسى ولا أجد أدنى رغبة فى تغيير حياتى وأفكارى.

وبهذه الروح دخلت امتحان الأول، واتخذت لى مكانًا فى صف جلس به الأمراء والكونتات والبارونات، وشرعت أجاذبهم الحديث باللغة الفرنسية، ومن أعجب العجب أنه لم يخامرنى الشك فى أية لحظة فى أننى سأنادى بعد قليل لأجيب عن أسئلة فى موضوعات لا أعرف عنها شيئًا وحملقت ببرود شديد فى أولئك الذين حضروا الامتحان، بل أنى سمحت لنفسى أن أسخر من فريق منهم لما رأيته على وجوههم من أمارات الخوف، ووعدت صديقى البارون ز

أن أتناول الغداء على مائدته فى مطعم مارتن بمجرد الانتهاء من الامتحان، وكان أداء الامتحان مسألة على جانب عظيم من التفاهة.

وعندما نودى اسمى مع أيكونين قمت وسويت ثيابى بيدى ثم اتجهت إلى مائدة الامتحان بكل هدوء وعدم اكتراث، ولم أشعر برهبة الموقف إلا عندما واجهت عينى الأستاذ الذى أديت أمامه امتحان الدخول ثم مددت يدى لاختار سؤالًا عن طريق القرعة.

وكانت إجابة أيكونين سيئة جدًّا، ولكنها إجابة على كل حال، أما أنا فجعلت أقلب الورقة ولا أجيب، ونظر الأستاذ إلى وجهى بإشفاق ثم قال لى بحزم:

ـ لن تنقل هذه المرة إلى السنة الثانية، ولا حاجة بك إلى التقدم فى المواد الأخرى لأن رسوبك مكفول بعد إجابتك اليوم، وكذلك الحال معك يا سيد أيكونين.

وجعل أيكونين يتوسل ويستجدى فرصة أخرى، فقال الأستاذ:

ـ هراء! أنك لن تحصل فى يومين ما فاتك أن تحصله فى عام! أما أنا فنهضت عن المائدة صامتًا، ولا أذكر كيف شققت طريقى بين الطلبة ولا بماذا أجبت عن استفساراتهم، ولكن الذى أذكره أننى عدت إلى البيت مضعضع النفس من الهوان والشقاء.

ولم أغادر حجرتى ثلاثة أيام سويًا، ألتمس العزاء فى دموعى كما كنت أفعل صغيرًا، وبحثت عن مسدس كى أقتل نفسى، وتصورت من أحتقرهم وقد نجحوا وسولت لهم نفوسهم أن يبصقوا فى وجهى أو

يشمتوا بى، وتذكرت جميع من أهانونى فيما مضى مثل كولبيكوف، ورأيتهم على حق فى احتقارهم لشأنى، وجعلت ألعن أيامى.

ولم أجد فى نفسى قابلية للاستمرار فى الدراسة الجامعية بعد هذا الإخفاق المهين للذكاء، فطلبت من أبى أن يسعى لإلحاقى بسلاح الفرسان، وكان أبى ساخطًا على رسوبى، بيد أنه إزاء حزنى وندمى غفر لى وعرض علىَّ دخول كلية أخرى.

أما الفتيات فلم يفقهن شيئًا ولم يدركن لماذا حزنت، فهن لا يعرفن ما الامتحان، ولا ما الفشل، بيد أنهن رثين لاكتئابى.

وجعل ديمترى يحضر كل يوم لزيارتى ويبدى لى منتهى المودة والعطف، وكان ذلك كافيًا لسخطى عليه، وعندما أبلغنى رغبة والدته وأخته وخالته فى ذهابى لزيارتهن وجدت فى ذلك التلطف جرحًا لكبريائى، ورفضت هذه الشفقة المهينة.

* * *

وهكذا ختمت مرحلة البلاهة فى باكورة شبابى، وانتهت علاقتى بالدراسة الجامعية، بسبب ضعف أخلاقى وانصرافى عن الدرس، وكتب فى سجل حياتى أننى كنت طالبًا فاشلًا لم يصلح للعلم والثقافة.

وهكذا أفضى بى فشلى العلمى والثقافى إلى صفحة جديدة، هى التحاقى بخدمة الجيش ضابطًا فى سلاح الفرسان، فلم يكن أمامى بعد أن قصرت فى ميدان الكتاب والقلم، سوى أن أجرب امتشاق السيف.